الباحثون عن الله

- الأنبيـاء
- العلمـاء
- الفلاسفة
- المتصوفة

أعداد
محمود القلينى

دار العلم و الإيمان للنشر و التوزيع

١٨٩
م.١

القليني، محمود .

الباحثون عن الله / محمود القليني .- ط١.- دسوق :دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع ،

٢٦٨ ص ؛ ١٧.٥ × ٢٤.٥سم .

تدمك : 4 - 385 - 308 - 977 - 978

١. الفلسفة الإسلامية .   ٢. التصوف

أ - العنوان .

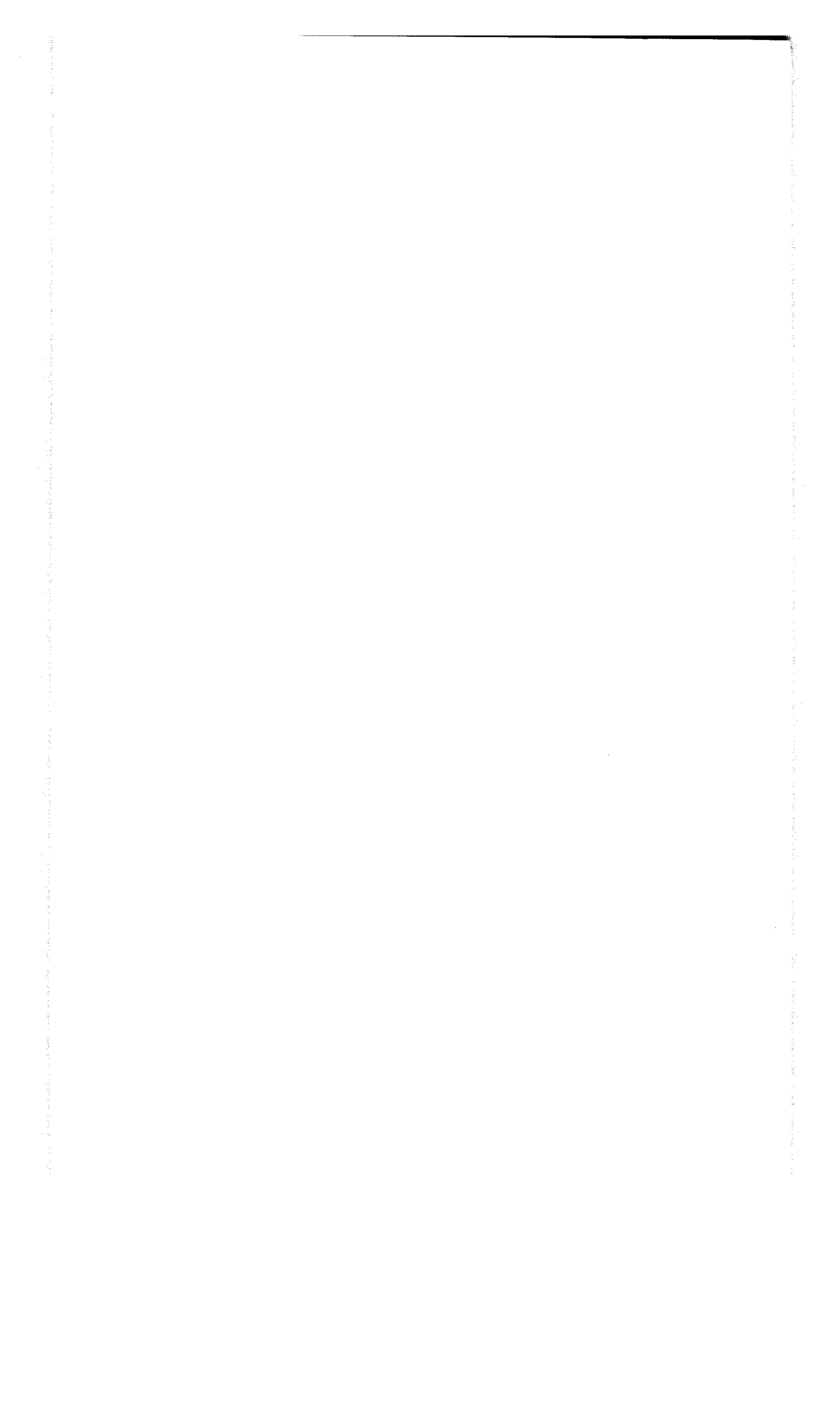
رقم الإيداع : ١٥٠٦٤- ٢٠١٣ .

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع
دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة
هاتف : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ - فاكس: ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١
E-mail: elelm_aleman@yahoo.com
elelm_aleman@hotmail.com

2013

الباحثون عن الله

الفهرس



المقدمة

ماذا يحدث لو اجتمع الأنبياء والفلاسفة والمتصوفة فى صعيد واحد وتحدث كل منهم عن الطريق الذى سلكه للوصول إلى الله - عز وجل - أو الأسلوب الذى اتخذه ليهديه إلى الله ، أو الرؤية والنظرة التى أرشدته إلى الله ؟

ورب معترض يعترض ويقول : وما شأن العلماء والفلاسفة والمتصوفة بهذا الأمر الجليل ، حسبنا الأنبياء – وهم أشرف وأطهر وأصدق خلق الله – وما أيدهم الله به من وحى أوصلهم وهداهم وأرشدهم إلى الله ، وهم – أيضا معصومون من كل خطأ أو ذلل ، بينما العلماء والفلاسفة والمتصوفة معرضون ولا شك – لكل خطأ وذلل ؟

ولكن غاب عن هذا المعترض الأريب أن الأنبياء أنفسهم لم يهدهم الله بالوحى إلا بعد جهد وجهاد وأنهم سلكوا سبلا وطرقا ودروبا كثيرة ، وخير مثال لذلك أبو الأنبياء إبراهيم – عليه السلام – وهو يبحث عن الله ، وسواء كانت الآيات للنظر أو المناظرة ، فالنتيجة واحدة ، أن هناك طرقا كثيرة ومتعددة للبحث عن الله .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (الأنعام: ٧٥ – ٧٩)



فالنبى – بمعنى ما – عالم وفيلسوف ومتصوف ، وكل ما يخطر على البال من توصيف علمى وعقلى ونفسى ؛ فشخصيته تتسم بالشمول والإحاطة والعمق والأصالة ، هو يملك كل الأساليب والأدوات والسبل للتعامل مع مختلف أنواع وأصناف البشر ، سواء كان عالم أو فيلسوف أو متصوف ، لأن كل تلك المعارف فيض من علمه ، وقطرة من بحر حكمته ،

وكل العلوم والمعارف الإنسانية سائرة – سواء أراد أصحابها أم لم يريدوا إلى الإعتراف بأن لهذا الكون خالق ، ولهذا الكون إله واحد أحد .

فهذا الكون وما يستبطنه من قوانين ومبادئ وعلاقات تربط بين أجزائه وعناصره ، وتوحد بين أكبر أجرامه وأصغر جسيماته ، وأن أى عالم منصف ومحايد ليدرك أن كل هذا يقود إلى الله .

وهذا العقل الإنسانى وما يتضمنه من قدرات هائلة على الإدراك والاستنباط والاستنتاج والقياس والاستطاعة من الانتقال من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، وإن أى فيلسوف أو مفكر ليدرك – بدون تعصب أو تعنت – أن العقل إذا لم يعترف بقضية الإيمان فقد حكم على نفسه بالإغلاق والإفلاس ، وأوصد أبواب عوالم راقية وسامية ، وحرم من مجرد الاطلاع أو استشراف معالمها .

وهذه النفس الإنسانية ، وما غرز فى جوانبها ، وما أودع فى حناياها وما ألهمت من سجايا ، وما فطرت عليه من إيمان وتوحيد ، ليستشف أى صوفى أن النفس متى تخلت عن الهوى ، ونحت عن طبيعتها الحجب ، وأبعدت عن فطرتها الأغشية ، فإنها – لابد – واصلة إلى الله .

تنويه

لم هذا الكتاب ؟

دائما أسال نفسى قبل الشروع فى كتابة أى كتاب هذا السؤال ، ويستتبعه أسئلة أخرى من قبل:

ما جدوى هذا الكتاب ؟
وهل هو لا غنى عنه ؟
وماذا لو لم أكتبه ؟

- ❖ وماذا لو لم يقرأه أحد ؟
- ❖ وطالما غيرك قد كتبوا فى الموضوع ، فما المبرر أن تأتى أنت وتكتب ؟
- ❖ وهل هذا الشئ الذى – تظن – أنك ستضيفه من الأهمية والخطورة بحيث يستأهل كتابة كتاب ؟

وإذا أجبت عن تلك الأسئلة مستبعدا غرور وأنانية الكاتب ، وكانت الإجابات مقنعة ، توكلت على الله ، وبدأت فى الكتابة ، ولا شئ يمنعنى عن ذلك وإذا لم أجد إجابة مقنعة انصرفت عن الكتابة حامدا الله .

وكثيرة تلك الموضوعات والقضايا التى لم أكد أبدأ فيها حتى انصرفت عنها ونفضت يدى منها حينما وصلت إلى قناعة بعدم جدوى الكتابة .

والظروف والمستجدات وطبيعة العصر الذى نعيش فيه ، كل هؤلاء يلحون على الكاتب أن يسأل نفسه تلك الأسئلة ، وأيضا جعلوا الكاتب فى موقف حرج للغاية ، فليس هناك ((**حافز**)) حقيقى للكتابة ، وهذا أخطر ما تمر به أمة كانت الكلمة – سواء كانت مسموعة أو مكتوبة – تمثل دعامة من دعائم وجودها

الحقيقى ، وأسباب تلك الأزمة التى يعانيها الكاتب والكتابة فى هذا العصر كثيرة وليس هذا مجال الإسهاب فيها .

وحينما تجد كتابا جديدا ، فأعلم أن هذا الكتاب قد مر بعقبات لا حصر لها وأن الكاتب قد تحمل وضحى بأشياء ليست هينة ، وإن كنت لا إدرى إلى متى سيقدر للكتاب أن يتغلب على تلك العقبات ؟

وإلى متى سيقدر للكاتب أن يتحمل ويضحى ؟

أهمية الكتاب وحاجة العصر

لا ترجع أهمية الكتاب على ما يشتمل عليه ، بل لا ترجع أهمية أى كتاب على مضمونه ، فقد لا تجد اثنين يتفقان على قيمة أى شئ ... ولكن أهمية الكتاب وأى كتاب – ترجع إلى حاجة العصر إليه، الحاجة الملحة والضرورية للناس أقول ((**حاجة**)) وليست رغبة ، فقد يكون الناس فى مسيس الحاجة إلى شئ ولكنهم لا يرغبون فيه ، بل هم زاهدون فيه معرضون عنه .

والناس اليوم – فى العالم بصفة عامة ، والأمة الإسلامية بصفة خاصة فى حاجة أن يقفوا أمام الله ، ومع الله ، ويقتربوا أكثر وأكثر من الله ، اقتراب حقيقى وصادق وحميم ؛ ذلك لأن حياتهم أصبحت غير محتملة ، لا تطاق ، **واسأل أى إنسان** :

- **هل أنت راض عن حياتك ؟**
- **هل أنت راض عن الآخرين ؟**
- **هل أنت راض عما يحدث في العالم حولك ؟**

أشياء كثيرة ساهمت فى تشكيل وصياغة وجودنا وحياتنا على هذا الشكل .

والخطير فى الأمر أننا فتحنا أبوابنا للجميع يسهم ويشكل ويحدد ، ونسينا إسهام الله ، وهذا يرجع إلى إحساس دفين أن هذا الوجود الإنسانى وتلك الحياة

البشرية لا تتفق مع ملكوت الله ، فكل ما نعمله نوع من الهروب من مواجهة الله... الوقوف أمامه . فالتاريخ الإنسانى أثبت أن الإنسان عاجز عجزا كاملا أن يدبر حياته ويدبر وجوده بعيدا عن الله ... وإن حدث ذلك ، فهى حياة مفلسة ووجود فارغ .

والمأساة الحقيقية التى يعيشها الإنسان ، أن الله منحه الإرادة والقدرة والفعل أن يناصبه العداء ، وأن يضل ضلالا بعيدا ، وأن يجحد فضله ، وينكر منّنه ومع ذلك فالله يفتح له أبوابه ، أبواب العفو والمغفرة ، انتظارا أن يثوب إلى رشده ويرتدع عن غيه ، ويعود إلى خالقه مرة أخرى ، منيبا تائبا ، وكأنه لم يفعل شيئا فى حق خالقه ، والذى زاد من فداحة تلك المأساة أن الإنسان لم يجترأ مثلما اجترأ على الله ، والعجيب أن تلك – أيضا – منحها الله للإنسان !!

وهنا لابد أن نعترف أن العالم ضل عن الله ، ومن السذاجة ، والافراط فى التمنى أن نتوقع أن يعود العالم إلى الله .

وأقصى ما نطمح إليه أن توجد فئة راشدة ورشيدة قريبة من الله بل متحدة مع الله تنقذ العالم من نفسه ، ومن أن يتردى أكثر وأكثر وأكثر .

ولم نعتمد على فئة أو فرد فى هذا الأمر الجلل ؟

فقد يمتد بنا الزمان ، ولا توجد تلك الفئة الرشيدة ، كذلك لا نستطيع أن نلقى تلك التبعة على فرد إلا أن يكون نبيا ، وزمن الأنبياء ولى .

- ✓ إذن لم يبق إلا نحن .
- ✓ ولكن كيف ننقذ العالم ؟
- ✓ أو بالأحرى كيف ننقذ أنفسنا ؟

- ✓ أن نقوم بالبحث .
- ✓ البحث عن ماذا ؟

فقد نبحث عن شئ ضائع منا .

وقد نبحث عن شئ نحن ضائعون عنه أو منه . أى ضللنا الطريق إليه هو موجود ، ونحن على يقين من ذلك ، ولكن السبل تفرقت بنا ، وتشعبت وتشابكت .

- ✓ فنحن الضائعون .
- ✓ نحن الضالون .
- ✓ نحن التائهون .

فى تلك اللحظة نحن نبحث عن أنفسنا ، لأننا إذا عثرنا على أنفسنا ستقودنا إلى الله . لأننا لم نضع ولم نضل إلا بسبب نسيان الله .

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

(الحشر: ١٩)

- وقد نفتقد وجود شئ ؛ لأنه لم يعد موجودا .
- وقد نفتقد وجود شئ وهو مع ذلك موجود .

هنا لا نفتقد الوجود وإنما الإحساس بهذا الوجود ، أصابت نفوسنا شئ من العتامة ، شئ من الكثافة ، منافذ الإحساس والشعور التى تطل على هذا الشئ الموجود سددت وغلقت ، فأصبحت عاجزة عن استقبال فيوض وأنوار هذا الموجود الأعظم .

فالله موجود .

ولكننا ضللنا عنه .

فالله موجود .

ولكن الإحساس بهذا الوجود لا يملأ كياننا ، ولا يشغل عقولنا ، ولا يعمر قلوبنا .

فإذا بحثنا عن الله ، فنحن بالأحرى نبحث عن هذا الإحساس .

نبحث عن كيفية أن يملأ كياننا ، ويشغل عقولنا ، ويعمر قلوبنا .

إحساس لا يعدله إحساس حينما تشعر أنك وجدت الله ، وأنك قريب قريب جدا من الله ، تخلع كل الهموم وكل الآلام ، وكل الأحزان ، لا شئ ، لا شئ سوى الله ، وأنت مع الله ... مع خالق الكون ، ومبدع الوجود .

وإن لم نستطع فعل ذلك ، فليس أقل من أن نسير وراء الباحثين عن الله علنا نصل – بعد ذلك – إلى ما وصلوا إليه ، وإن لم نستطع فيكفى أننا قمنا بأشرف وأسمى وأنبل محاولة قام بها الإنسان ، وهى محاولة الوصول إلى الله .

الباب الأول
الطريق إلى الله

معرفة الله كانت أعظم فتوحات شهدتها الإنسانية للعقل والضمير الإنسانى .بل الإنسانية لم تبدأ البداية الحقة والتأريخ لها لم يبدأ إلابعد أن وصلت أوهديت إلى الإله الحق . انبسط الكون أمام الإنسان بعد أن كان صندوقا مغلقا تفتحت أسرار الوجود بعد أن كانت ألغازا مبهمة ، استنارت الأرض بعد أن كانت قاعا مظلما وظالما ، خلقت الإنسانية خلقا آخر بعد أن كانت عدما معدما .

أول معارج الرقى

يوم أن عرف الإنسان طريقه إلى الله ، وضع قدميه على أول معارج الرقى والسمو ، ولم يعد هذا الكائن الطيني الذي يسعى سعيا حثيثا لإشباع غرائزه إشباعا أعمى، ظل زمنا منغمسا فيما تنغمس فيه الدواب ، يأكل كما تأكل ويفعل ما تفعل ، ولكنه بين الحين والآخر يتحسس وعيه ، ويشعر شعورا غامضا أن هناك في كيانه مناطق معطلة ، مساحات يغلفها الضباب ، والذي نبهه إلى هذا الطبيعة حوله ... الشمس النجوم المطر ، الولادة ، الموت ، ما يراه في أحلامه .. برفع بصره إلى السماء وإلى قمم الجبال وإلى كتل السحاب وهى هائمة على صفحة السماء الصافية ... هناك شئ غامض يدفعه لممارسة شئ يختلف عن كل ما يفعله وفعله .

ما هو هذا الدافع ؟ هو لا يتبينه .

- ما هو الفعل الذى يجب أن يمارسه ؟ هو لا يدركه .

ولكن الدافع موجودٌ يلح عليه ، والاستعداد لممارسة الفعل مهيأ له .

ومضى زمنا حائرا يتخبط بين ما يتعلق به إحساسه وشعوره ويعجز عن إدراكه عقله .

هناك شئ ما وراء كل ما يحيط به ، يملك كل شئ ، يسيطر على كل شئ بما فيه هو... قوة فاعلة تحرك هذا الكون ، قادرة على أن تهب الحياة ، وكذلك تسلبها .

كان يخشاها ويهاب جبروتها ، وفي نفس الوقت يحبها ويسترضى عطفها .

وامتزجت الهيبة والخوف منها ، بالحب والرجاء فيها ، لترسم في وجدانه قوة خيرة صرفة ، يرى فيها غاية ما يمكن أن يصل إليه وجدانه وعقله من كمال يتناسب مع وجدانه الساذج وعقله الضحل .

وبدات العلاقة بين الإنسان وبين القوة الخيرة ، وبمرور الوقت توطدت وتطورت وأرتقت ، وقامت الإنسانية ببناء هيكل من القيم ، والتى كان لها من القوة والقدرة أن شكلت وحددت نواحى كثيرة في حياة الإنسان .

صفات المعبود

وكان لابد للقوة الخيرة – المعبود – أن تكون كاملة الأوصاف ، ورسم الإنسان للمعبود صورة كاملة له ، فكل نقص يراه في نفسه يبرأ منه معبوده فإذا كان الإنسان ينام فمعبوده لا ينام ، وإذا كان يمرض فالمعبود لا يمرض وإذا كان يأكل ويشرب ويتناسل فالمعبود لا تجرى عليه مثل تلك الأمور ، وإذا كان يموت فالمعبود باق حي لا يموت . فالمنطلق لتنزيه الإله هو ذات الإنسان الناقصة الضعيفة ، وكل صفة سلبية في الإنسان تقابلها صفة إيجابية في المعبود .

ولكن كل تلك الصفات من صنع الإنسان ، وهو الذى وهبها للإله في حالة رضاه ، ومن الممكن أن يستردها منه في حالة غضبه ، أو من الممكن أن يصفه بصفات تحقق مصلحة أو فائدة له . ثم أن هذا الأمر حتم وألزم إن يكون الإنسان به عيوب وبه نقص ، وتلك العيوب والنقائص من طبيعة جبلة الإنسان ، ومحال إن يتخلص منها لإنسان ، لأنه لو تخلص منها فما الفرق بينه وبين المعبود ؟

ولو تخلص منها فهو إذن إله !

إذن فخير للمعبود وخير للإنسان أن يظل في الخطيئة متصفا بالعيوب والنقائص .

وبهذا المنطق ، أو بهذا التعاطى مع الموقف ، فإن أوثق علاقة بين الإنسان والمعبود هى (**الخطيئة**) ، فهى تؤكد على إنسانية الإنسان ونقصه ، وكذلك برهان

على كمال المعبود ، وأيضا تؤكد على حاجة الإنسان إلى المعبود ليغفر ويصفح وبرهان - كذلك - على قدرة المعبود على العفو والغفران .

وأمتلأ التاريخ الإنسانى بفكرة الخطيئة ، وشرتها الندم . ولكن إذا كان الإنسان مخلوق وفى طبيعته بذرة الخطيئة ، أى إنها قدر محتوم لا مهرب منه ، فلم يحاسبه المعبود على هذا ؟ أليس هو خالقه على هذه الشاكلة ؟ ثم لماذا يتحمل الإنسان ضريبة شئ هو لا يملك التحكم فيه ؟

هل خلق الإنسان ناقصا ليخطأ ؟ فيتجه إلى المعبود نادما باكيا مستغفرا ليغفر المعبود له ؟

هل هذا حادث ليتمتع المعبود بإذلال الإنسان وسحقه والتلذذ بفرض هيمنته وسيطرته عليه ؟

في الأرض إنسان يعانى من النقص والضعف والخطيئة ، ويكابد سياط الندم والألم ويرفع يديه وعينيه إلى المعبود باكيا مستغفرا .

وفى السماء معبود يشمت في الإنسان يتمتع ويلتذ بألمه ومعاناته وندمه وبكائه .

ظلم الإنسان

تلك صورة فيها الكثير من الدراما ... وفيها الكثير من ظلم الإنسان ، ولكنها في النهاية الإنسان هو الذى صممها ، ووضع ملامحها ووضع لمساتها النهائية .

وكان الوجود الإنسانى - حقا - مثقلا من جراء تلك الترهات والخزعبلات ولكنها كانت طبيعة مرحلة من مراحل بحث الإنسان عن الله ، نوع من التخبط

نوع من محاولة الإمساك بحلم أو تلمس إحساس غامض لا تكاد تنبض به مراكز الإحساس حتى يهرب ويتلاشى .

(وليس في ذلك كله ما يقدح في الغاية البعيدة التى يؤمها من وراء هذه الخطوات ، وليس في جميع هذه الأخطاء ما يقدح في الحقيقة الكبرى . لأن معرفة الإنسان بالحقيقة الكبرى دفعة واحدة هو المحال الذى لا يجوز ، وترقيه إليها خطوة بعد خطوة هو السنة التى اتبعها في كل مطلب يعنيه فلم يكن من الجائز أن يتعرف الصناعات والعلوم جزءا في هذه الآماد الطوال وأن يتلقى حقيقة الوجود الكبرى كاملة مستوفاة منذ نشأته على هذه الأرض أول نشأة .

وقد مضى عليه عشرات الألوف من السنين وهو يخلط في طهو غذائه وحاجته إلى الطعام لا شك فيها ، ومادة الطعام بين يديه ، وعلم الطعام ليس بالعلم المغيب وراء الحجب والأستار .

فإذا فإنه أن يدرك « الوجود المطلق » قبل أن يتقن غذاءه فليس من الجائز أن نعجب لذلك أو أن نستفتح به أبواب التشكك في كنه العقيدة أو في لباب الحقيقة ، وإنما العجب ألا يكون الأمر كما كان »[1] .

الإلــــه الحــــــــق

وكانت الإنسانية على قدر مع السماء .

وهديت الإنسانية بعد بحث طويل ومرير وصراع فكرى ونفسى إلى الله الحق .

ورحمت الإنسانية من عذابات فادحة .

وشفيت من أمراض فاتكة .

وأهم ما جاءت به الرسل والكتب السماوية – وكل ما جاءت به مهم – أنها صححت ووضحت وبينت ويسرت الفكرة والمفهوم عن الله ؛ لأن – كما قلنا – ذلك هو الأساس الذى يبنى عليه الإنسان وجوده ، وما يرتكز عليه الوجود من قيم ومبادئ . فإذا كان هذا الأساس باطلا أو فاسدا ، تقوض هذا الوجود وانهارت دعائمه من قيم ومبادئ .

- ❖ ولم يعد الإله – كما كان – من صنع وتشكيل الإنسان .
- ❖ ولم يعد الإله – كما كان – يشمت ويلتذ بعذاب الإنسان
- ❖ ولم يعد الإله – كما كان – المهيمن والمسيطر والمنتقم الجبار .

ولكن الإله ذات تتصف بالكمال الذى لا يحده العقل البشرى ، يعجز أن يضع لهذا الكمال مواصفات أو سمات ، على هذا فلا يحاط ولا يدرك صفات تلك الذات ، ولا يقدر الذات حق قدرها إلا الذات نفسها .

والإنسان لم يعد له يد أو فضل في توضيح صورة الإله ، أصبح كل ما يقدر عليه هو محاولات مضنية لا تتوقف للسعى الدءوب نحو استقبال ما ترسله تلك الذات من أنوار وهدى .

وأصبح الإله هو الرحمن الرحيم الرءوف الحنان المنان الغفار التواب .

الذى يحب عباده ويحبب لهم الإيمان ، ويكره لهم الكفر والفسوق والعصيان .

الإله الذى يفتح لعباده أبواب العفو والغفران والتسامح بعد ما قنطوا .

الإله الذى يفتح لعباده أبواب التوبة بعدما يأسوا .

ولم يعد الإله هو المهيمن والمسيطر هيمنة طغيان أو سيطرة اعتداء ، ولكنها هيمنة خلق وسيطرة قيومية وتدبر .

ولم يعد المنتقم من عباده والجبار عليهم ، ولكنه المنتقم للمظلومين من الظالمين ، والجبار على من بغى وتجبر .

أعظم فتح

معرفة الله كانت أعظم فتوحات شهدتها الإنسانية للعقل والضمير الإنسانى . بل الإنسانية لم تبدأ البداية الصحيحة ، والتأريخ لم يبدأ إلا بعد أن وصلت أو هديت إلى الإله الحق .

- انبسط الكون أمام الإنسان بعد أن كان صندوقا مغلقا .
- تفتحت أسرار الوجود بعد أن كانت ألغازا مبهمة .
- استنارت الأرض بعد أن كانت قاعا مظلما ظالما .
- خلقت الإنسانية خلقا آخر بعد أن كانت عدما معدما .

أعظم كشف سيقت إليه الإنسانية يوم أن كشف عن عينيها وقلبها وعقلها الحجب بينها وبين الله .

حينما عرفت الإنسانية الله ، اكتشف الإنسان نفسه ، أنه ليس مخلوقا ناقصا ، الخطيئة لازمة عليه قدرا مقدورا ، والندم يسعى وراءه أينما ذهب .

فهو يؤمن بذات كاملة ... ويشهد لها بذلك . وشهادته وإيمانه بهذا الكمال يرتفع به إلى درجات الكمال والرقى الإنسانى ؛ لأن أيماني بذات كاملة من شأنه أن يفيض على شيئا من الكمال ، لأن الإيمان نوع من الاتصال بينى وبين الذات المؤمن بها .... العبادة من أقوى الوشائج التى تفتح عالما من المعانى السامية بين المعبود والعابد .

الشهادة اعتراف بوحدانية وكمال الله ، وإلزام النفس بالارتفاع والارتقاء لمنزلة تلك الشهادة

اعظم منة منها الله على الإنسان أن سمح له أن يشهد له ، وأن يكون من الشاهدين .

الشهادة لمن ؟ لله .

والشهادة بماذا ؟ بالوحدانية .

أجل صورة ، وأعظم آيات التكريم للإنسان أن يؤمن بالله وأن يشهد له .

الله يفتح الأبواب إلى ذاته .

الله يكشف عن آذاننا وعن أسماعنا وعن قلوبنا وعقولنا الحجب لنعى ذاته .

الله ينير لنا الوجود . ويبدد ظلمات الجهل والكفر لنتلمس السبل إلى دلائل قدرته .

وإذا كان الله وصف ذاته بصفات الكمال لكى نؤمن بها ، فإن الإيمان في أسمى وأرقى صوره هو محاولة الاقتراب من تلك الصفات على قدر مايسمح به الجهد الإنسانى ، وعلى قدر ما تطيقه النفس الإنسانية .

- فإذا كان الله عدلا ، فهو يأمرنا أن نكون عادلين .
- وإذا كان الله رحيما فهو يأمرنا أن نكون رحماء .
- وإذا كان الله كريما فهو يأمرنا أن نكون كرماء .

"وجماع هذه الأخلاق كلها هو تلك الصفات التى اتصف بها الخالق نفسه في أسمائه الحسنى وكلها مما يحمد للإنسان أن يروض نفسه عليه وأن يطلب منه أوفى نصيب يتاح للمخلوق المحدود فيما عدا الصفات التى خص بها الخالق دون سواه"(٢)

فنحن لا نتخلق بمكارم الأخلاق لأن الإنسانية حددت وقننت تلك المكارم ، أو نفعل ذلك ليرضى الناس عنا ، نحن نتخلق بكل تلك المكارم لأن الله قد اتصف بها ، ونحن حينما نحاول جاهدين أن نتصف بها على قدر ما تمكننا طبيعتنا ، نكون قد اقتربنا درجة من الله .

" ومعنى ذلك أن شهادة أن لا إله إلا الله هى شهادة بضرورة أن تتحقق مجموعة من الصفات بصورة كاملة في الإله وبصورة ناقصة في الإنسان ، فمن لم يعمل على أن يكون في حياته عالما مريدا قديرا ، مهيمنا عزيزا ، جبارا ... إلخ كانت شهادته باللفظ دون المعنى " (٣) .

معــرفــة الله

نخشى الله ، نحذر الله ، نتقى الله ، نحب الله ، نؤمن بالله .... لن يتسنى لنا فعل شئ من هذا إلا بعد معرفة الله المعرفة الحقة ، على قدر ما تسمح به طبيعتنا البشرية ، ووفق ما يشاءه الله لنا .

ومن أنبل وأشرف المعارف هى معرفة الله :

- لأنها أساس منه تتفرع جميع المعارف الأخرى .
- لأنها تتعلق وترتبط بذات الخالق وواهب الوجود .
- ولأنه بتلك المعرفة – وليس بغيرها – يتحقق الاستقرار والاطمئنان للوجود الإنسانى في هذا الكون
- لأنها بها ومن خلالها نجيب على أسئلة حارت الإنسانية قرونا تبحث عن إجابات لها ، وأيضا تحل أعضل المشكلات التى تصادف الإنسانية في مشوارها الطويل .

الله يرشدنا إليه

كل المعارف التى نكتسبها نعتمد فيها على أنفسنا وعلى عقولنا ، أما تلك المعرفة فنحن نستلهم الله فيها أولا ، لأن الله هو الذى سيرشدنا ويهدينا إلى ذاته وليس أحد غيره ، فالمعرفة التى اعتمد فيها الإنسان على نفسه وعقله لم تصل به إلى الحقيقة ، وإنما هى مجرد خيالات وظلال للحقيقة ، لأنه لا يملك الوسائل التى تقوده إلى معرفة الحقيقة .

ومعرفة الله – على قدر طاقتنا- يسيرة وعسيرة في نفس الوقت .

عسيرة: إذا أردنا أن نعرف الله كما تعودنا أن نعرف من حولنا ، أو إذا اتبعنا المنهج الذى نتبعه في تحصيل معارفنا ، ذلك لأن مادة البحث أعلى وأرقى

وأشمل وأرحب من أن يحيط بها أو يلم بها أى نهج من مناهج المعرفة ، والمعرفة الإنسانية في أبسط معانيها نوع من الإحاطة ، نوع من التصور ، نوع من الامتلاك والاستحواذ على الشيء موضوع المعرفة .... وكل هذا محال في أمر معرفتنا بالله .

ويسيرة : إذا عرفنا الله كما يريد الله أن نعرفه ،فالإنسان طموح إلى الترقي لا سيما في المعرفة ، يريد أن يعرف المزيد والمزيد ، وليس بقانع بحد معرفي ... هذا حادث مع الأنبياء والرسل بصفة خاصة ، فهم يمثلون صفوة الخلق ، يجمعون بين جوانبهم كل ما تتصف به الذات الإنسانية من نبل وسمو ورقى وطهر ونقاء ونور وجمال ، ويجسدون أقصى ما يمكن أن يصل إليه طموح الذات الإنسانية إلى المثل والكمال ، بل هم يتجاوزون ما في إمكان النفس الإنسانية بمراحل وما كان ليتسنى لهم ذلك لو لم يكونوا الصفوة المختارة **من قبل الله عزوجل** :-

(ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ) (الحج :٧٥)

هذا الاصطفاء تبعه أو واكبه إعداد رباني للنبي أو الرسول ؛ ليجعلهم قادرين على استقبال العطاء الرباني والهدى الإلهي ، ذلك لأن جوهر وجودهم البشرية ، وقدر لهذا البشرى أن يكلمه الله **من خلال ثلاثة أمور** : الوحي ، من وراء حجاب ، الملك . **كما قال الله عز وجل** :

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴿٥١﴾ ﴾ (الشورى: ٥١)

حتى بوجود تلك الوسائط بين الأنبياء والله ، فهم في حاجة إلى إعداد وتهيئة تجعلهم يمثلون أرقى صورة من صور البشر من ناحية ، وتجعلهم جديرين

بأن يكونوا رسلا من الله إلى البشر، ولتلك المكانة العظمى التى وصلوا إليها استحقوا ثناء الله عليهم.

(وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا)(مريم: ٤١)

(وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا)(مريم: ٥١)

(وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا)(مريم: ٥٦)

﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ (الصافات: ١١٢)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ (الأحزاب: ٥٦)

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾(الأحزاب: ٢١)

في الأصل بشر، ولكن هذا البشر ارتقى درجات عليا من خلال هذا الطموح غير المحدود إلى السمو والرقى الممتزج بنوع رفيع من الحب لله، وإيثار الخير للإنسانية.

الأنبياء يجسدون طموحات الإنسانية إلى معرفة الله

شاء الله أن يكون الأنبياء والرسل هم همزة الوصل بين الخلق وبين ذاته تبارك وتعالى ، لذلك فمعرفتنا بالأنبياء والرسل تزيدنا معرفة بالله . والطريقة أو الأسلوب الذى تعامل به **الله** مع الأنبياء والرسل يظهر بجلاء ووضوح عطفه عليهم وترفقه بهم ، وتقديره لهذه الرغبة الإنسانية الجارفة المتأججة في طلب المعرفة ، تلك المعرفة التى تفوق قدرات ليس البشر فحسب لكن الأنبياء والرسل فإذا كانوا يمثلون الصفوة المختارة من البشر فهم كذلك يمثلون أقصى طموحات البشر في المعرفة بل هم يتجاوزون ذلك بمراحل .

ففى أن يطلب « إبراهيم » عليه السلام من الله أن يريه كيفية إحياء الموتى ، وهو في غنى عن هذا الطلب لأنه في قمة الإيمان فهذا لا يدل إلا على رغبته الشديدة في العلم والمعرفة ، والأنبياء لا يطلبون من الله أدلة وبراهين ، كيف يطلبون وهم من يحملون تلك الأدلة أو يجسدونها ، إذن الطلب هنا لا يتعلق بقضية الإيمان بقدر تعلقه بقضية العلم والمعرفة ، وهو في هذا الطلب لا يتحدث بلسانه فقط، وإنما يتحدث بلسان الإنسانية ؛ لأنه من ينوب عنها ، أو أنه المكلف بتلقى العطاء الإلهى من السماء .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ (البقرة: ٢٦٠)

جاء في تفسير الكشاف "أرني : بصرني . فإن قلت كيف قال :

((أولم تؤمن)) وقد علم انه أثبت الناس إيمانا . قلت : ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين و((بلى)) ايجاب لما بعد النفى معناه بلى آمنت ((ولكن ليطمئن قلبى)) ليزيد سكونا وطمانينة بمضامة علم الضرورة علم الاستدلال ; وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب وأزيد للبصيرة واليقين ، ولأن علم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف العلم الضرورى فأراد بطمانينة القلب العلم الذى لا مجال فيه للتشكيك . فإن قلت بم تعلقت اللام في ليطمئن قلت : بمحذوف تقديره ولكن سألت ذلك إرادة طمأنينة القلب " (٤) .

وفي حاشية صفحة (٣٩١) و (٣٩٢) ما نصه : (من تفسير الكشاف)

" أما سؤاله الخليل عليه السلام بقوله كيف تحيي الموتى فليس عن شك والعياذ بالله في قدرة الله عن الإحياء ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء ولا يشترط في الإيمان الإحاطة بصورتها فإنما هى طلب علم ما لا يتوقف الإيمان على علمه ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة كيف وموضعها السؤال عن الحال ، ونظير هذا السؤال أن يقول القائل :

كيف يحكم زيد في الناس ؟ فهو لا يشك أنه يحكم فيهم ولكنه سأل عن كيفية حكمه لا ثبوته ولو كان الوهم قد يتلاعب ببعض الخواطر فيطرق إلى إبراهيم شك من هذه الآية ، وقد قطع النبى عليه الصلاة والسلام دابر هذا الوهم بقوله : ((نحن أحق بالشك من إبراهيم))أى ونحن لم نشك فلأن لا يشك إبراهيم أحرى وأولى فإن قلت فإذا كان السؤال مصروفا إلى الكيفية التى لا يضر عدم تصورها ومشاهدتها بالإيمان ولا تخل به فما موقع قوله تعالى – أولم تؤمن – قلت : قد وقعت لبعض الحذاق فيه لطيفة وهى أن هذه الصيغة تستعمل ظاهرا في السؤال

عن الكيفية كما مّر، وقد تستعمل في الاستعجاز مثاله أن يدعى مدع أنه يحمل ثقلا من الأثقال وأنت جازم بعجزه عن حمله **فتقول له** :

أرنى كيف محمل هذا فلما كانت هذه الصيغة قد يعرض لها هذا الاستعمال الذى أحاط علم الله تعالى بأن إبراهيم مبرأ منه أراد بقوله أولم تؤمن أن ينطق إبراهيم بقوله بلى آمنت ليدفع آمنت ليدفع عنه ذلك الاحتمال اللفظى في العبارة الأولى ليكون إيمانه مخلصا نص عليه بعبارة يفهمها كل من يسمعها فهما لا يلحقه فيه شك **فإن قلت** :

قد تبين لى وجه الربط بين الكلام على التقدير المبين فما موقع قول إبراهيم ولكن ليطمئن قلبى ؟ وذلك يشعرنا ظاهرا بأنه كان عند السؤال فاقدا الطمأنينة ؟ قلت : معناه ولكن ليزول عن قلبى الفكر في كيفية الحياة ، لأنى إذا شاهدتها سكن قلبى عن الجولان في كيفياتها المتخيلة ، وتعينت عندى بالتصوير المشاهد ، وجاءت الآية مطابقة لسؤاله لأنه شاهد صورة حياة الموتى تقديره الذى يحيى ويميت ".

درس جليل

نتعلمه من الأنبياء ، أنهم مع تمام إيمانهم وثبوته ورسوخه، لم يعطل أو يوقف رغبتهم في طلب العلم العقلى ، وكأنهم لسان حال الإنسانية التى ستسعى وراء المعرفة سعيا حثيثا ، مضحية بكل ما تملك ، مستهينة بكل جهد يبذل في ذلك .

نعم لقد وصل (إبراهيم) عليه السلام إلى قمة الإيمان التى لا زيادة بعدها ولكن عطاء الله الإيمانى ليس له حد يتوقف عنده ، وما طلبه (**إبراهيم**) ليس عن نقص إيمان وإنما رغبة في المزيد .

وشتان بين أن يكون الإنسان شاعرا بنقص في الإيمان ويطلب زيادة لسد هذا النقص ، وبين أن يكون قد وصل لتمام هذا الإيمان ، ولكنه يشعر أن هناك مرحلة أخرى تبدأ بعد أن يصل الإيمان إلى قمته وإلى تمامه ، فليس هناك حد معين للإيمان يصل إليه النبى ، ويشعر بحالة من التشبع ، نفوس الأنبياء ظمآنة دائما إلى المزيد ، حتى وإن وصلت إلى درجة التمام والكمال ، فنفوسهم الطاهرة الذكية وعقولهم الطموحة الوثابة تشرأب إلى مرحلة أخرى ، تبدأ منها الصعود والترقى لتنهل من المعرفة بذات الله تبارك وتعالى ، فهم لا ينظرون إلى قدرة عقولهم على الإدراك والاستيعاب ، ولكنهم مشغولون بعظمة وعلو وجليل ذات الله عن محدودية نفوسهم ،وتناهى عقولهم ، لذلك يكلفون أنفسهم عنتا ، ويجشمون عقولهم مشقة ، وبذلك يتجاوزون قدراتهم ، ويتعدون تلك الحدود التى وضعت لهم .

(فهو طلب للطمأنينة فيما تنزع إليه نفسه القدسية من معرفة خفايا أسرار الربوبية ، لا طلب للطمأنينة في أصل عقد الإيمان بالبعث الذى عرفه بالوحى والبرهان دون المشاهدة والعيان) (٥).

ويشفع لهم هذا التجاوز وهذا التعدى ، أن الدافع لذلك رغبة ملحة وشوق جارف إلى فهم وإدراك بعض الأسرار القدسية الخاصة بذات الله تبارك وتعالى وقد قدر الله تلك الرغبة وهذا الشوق لدى أنبيائه ، ولم يعرض عنهم ، ولم يصرفهم عما طلبوا ، ولكنه أقبل عليهم ، واستجاب لطلبهم استجابة رب يعلم من خلق ويعطف ويحنو عليهم ، والدليل على ذلك ما طلبه **(موسى) عليه السلام** :-

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾
(الأعراف: ١٤٣)

وقال صاحب (الكشاف) :

(أرنى أنظر إليك) ثانى مفعول أرنى محذوف : أى أرنى نفسك أنظر إليك . فإن قلت الرؤية عين النظر فكيف قيل أرنى أنظر إليك ؟ قلت : معنى أرنى نفسك اجعلنى متمكنا من رؤيتك بأن تتجلى لى فأنظر إليك وأراك .

فإن قلت فكيف قال (لن ترانى) ولم يقل لن تنظر إلى قوله أنظر إليك ؟ قلت : لما قال أرنى بمعنى اجعلنى متمكنا من الرؤية التى هى الإدراك علم أن الطلبة هى الرؤية لا النظر الذى لا إدراك معه ، فقيل لن ترانى ولم يقل لن تنظر إلى ، فإن قلت كيف طلب موسى عليه السلام ذلك وهو من أعلم الناس بالله وصفاته وما يجوز وما لا يجوز وبتعاليه عن الرؤية التى هى إدراك ببعض الحواس وذلك إنما يصح فيما كان في جهة وما ليس بجسم ولا عرض ، فمحال أن يكون في جهة ، ومنع المجبرة إحالته في العقول غير لازم لأنه ليس بأول مكابرتهم وارتكابهم ، وكيف يكون طالبه وقد قال حين أخذت الرجفة الذين قالوا أرنا الله جهرة – أتهلكنا بما فعل السفهاء منا – إلى قوله – تضل بها من تشاء – فتبرأ من فعلهم ودعاهم سفهاء وضلالا ، قلت ما كان طلب الرؤية إلا ليبكت هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلالا وتبرأ من فعلهم وليلقمهم الحجر ، وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكر عليهم وأعلمهم الخطأ ونبههم على الحق ، فلجوا وتمادوا في لجاجهم وقالوا : لابد ولن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك وهو قوله – لن ترانى – ليتيقنوا ويتزاح عليهم ما دخلهم من الشبهة ، فلذلك قال – رب أرنى أنظر إليك – فإن قلت : فهلا قال أرهم ينظروا إليك ؟ قلت : لأن الله سبحانه إنما كلم موسى عليه السلام وهم يسمعون ، فلما سمعوا كلام رب العزة أرادوا أن يرى موسى ذاته فيبصروه معه كما أسمعه كلامه فسمعوه معه إرادة مبنية على قياس فاسد ، فلذلك قال موسى :

أرنى أنظر إليك ولأنه إذا ذجر عما طلب وأنكر عليه في نبوته واختصاصه وزلفته عند الله تعالى . وقيل له لن يكون ذلك كان غيره أولى بالإنكار ولأن الرسول إمام أمته ، فكان ما يخاطب راجعا إليهم ، وقوله أنظر إليك وما فيه من معنى المقابلة التى هى محض التشبيه والتجسيم دليل على أنه ترجمة عن مقترحهم .

فإن قلت : كيف اتصل الاستدراك في قوله ((ولكن انظر إلى الجبل)) بما قبله ؟ قلت : اتصل بع على معنى أن النظر إلى محال فلا تطلبه ولكن عليك بنظر آخر وهو أن تنظر إلى الجبل الذى يرجف بك وبمن طلبت الرؤية لأجلهم كيف أفعل به وكيف أفعله دكا بسبب طلبك الرؤية ، لتستعظم ما أقدمت عليه بما أريك من عظيم أثره ، كأنه عز وعلا حقق عند طلب الؤية ما مثله عند نسب الولد إليه في قوله – وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا ((فإن استقر مكانه)) كما كان مستقرا ثابتا ذاهبا في جهاته ((فسوف تراني)) تعليق لوجود الرؤية موجود وألا يكون من استقرار الجبل مكانه حين يدكه دكا ويسويه بالأرض ، وهذا كلام مدمج بعضه في بعض وارد على أسلوب عجيب ونمط بديع ... ألا ترى كيف تخلص من النظر إلى النظر بكلمة الاستدراك ثم كيف بنى الوعيد بالرجفة الكائنة بسبب طلب النظر على الشريطة في وجود الرؤية : أعنى قوله فإن استقر مكانه فسوف تراني ((فلما تجلى ربه للجبل)) فلما ظهر له اقتداره وتصدى له أمره وإرادته ((جعله دكا)) أى مدكوكا مصدر بمعنى مفعول ((وخر موسى صعقا)) من هول ما رأى وصعق ومعناه خر مغشيا عليه غشية الموت ((فلما أفاق)) من صعقته ((قال سبحانك)) أنزهك بما لا يجوز عليك من الرؤية ((وأنا أول المؤمنين)) بأنك لست بمرئى ولا مدرك بشئ من الحواس))

((وتفسير آخر وهو أن يريد بقوله أرني أنظر إليك : عرفني نفسك تعريفا واضحا جليا كأنها إرادة في جلائها بآية مثل آيات القيامة التى تضطر الخلق إلى معرفتك ، أنظر إليك : أعرفك معرفة اضطرار كأنى أنظر إليك كما جاء في الحديث ((سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر)) بمعنى ستعرفونه معرفة جلية هى في الجلاء كإبصاركم القمر إذا امتلأ واستوى ((قَالَ لَن تَرَىٰنِي)) أى لن تطيق معرفتى على هذه الطريقة ولن تحتمل قوتك تلك الآية المضطرة ولكن انظر إلى الجبل فإنى أورد عليه وأظهر له آية من تلك الآيات فإن ثبت لتجليها واستقر مكانه ولم يتضعضع فسوف تثبت لها وتطيقها ((فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ)) فلما ظهرت له آيات قدرته وعظمته ((جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا)) لعكم ما رأى ((فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ)) مما اقترحت وتجاسرت ((وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ)) بعظمتك وجلالك وأن شيئا لا يقوم لبطشك وبأسك)) (٦) .

وجاء في تفسير (المنار) خلاصة لتفسير معنى الآية :

((أن موسى عليه السلام لما نال فضيلة تكليم الله تعالى بدون واسطة فسمع ما لم يكن يسمع قبل ذلك ، وهو من الغيب الذى لا شبه له ولا نظير في هذا العالم ، طلب من الرب تبارك وتعالى أن يمنحه شرف رؤيته وهو يعلم حتما أنه تعالى ليس كمثله شئ في ذاته ولا في صفاته التى منها كلامه عز وجل ، فكما أنه سمع كلاما ليس كمثله كلام بتخصيص ربانى استشرف لرؤية ذات ليس كمثلها شئ من الذوات ، كما فهم من ترتيب السؤال على التكليم ، فلم يكن عقل موسى وهو في الذروة العليا من العقول البشرية بدليلى العقل والنقل – مانعا له من هذا الطلب ، ولم يكن دينه وعلمه بالله تعالى – وهما في الذروة العليا أيضا – ما نعين له

منه ، ولكن الله تعالى قال له :((قَالَ لَن تَرَىٰنِي)) ولكى يخفف عليه ألم الرد وهو كليمه الذى قال له في أول العهد بالوحى إليه:

﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ﴾ (طه: ٤١)

أراه بعينيه ومجموع إدراكه من تجليه للجبل بما لا يعلمه سواه أن المانع من جهته هو لا من الجود الربانى ، فنزه الله وسبحه وتاب إليه من هذا الطلب فبشره الله بأنه اصطفاه على الناس برسالته وبكلامه – أى دون رؤيته – وأمره بأن يأخذ ما أعطاه ويكون من الشاكرين له))(٧) .

نبي يكلمه الله :

أقصى ما تطمح إليه نفوس الأنبياء أن يكلمهم الله، هل بعد ذلك مطمح لنبى أو رسول ؟

أى شرف وأى سمو وأى رقى أن يقول الله لموسى :

﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ (طه: ٣٩)

﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ﴾ (طه: ٤١)

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (الأعراف: ١٤٤)

أما وقد نال (موسى) عليه السلام هذا الشرف ، وتلك المكانة العليا والزلفى العظمى فلم لا تطمح نفسه إلى المزيد وهو في حضرة الأكرم ؟

وكما قلنا إن نفوس الأنبياء ليس عندها حد تقف عنده ، وهى لا تصل إلى حد التشبع الإيمانى ، إنها ظمآنة دائما إلى المزيد ، إلى الرقى والسمو ، ... النبى ذات معلقة ومرتبطة ومشغولة دائما بالله ، وتعلم علم اليقين ، أن ذاتها بكل

ما منح لها من صلاحيات وامتيازات لاستقبال العطاء الربانى والهدى الإلهى ، ومع كل هذا الإعداد والاصطفاء هى قاصرة ومحدودة أمام الذات الإلهية ؛ لذلك طلب (موسى) الرؤية وهو يعلم يقينا أن هذا ليس له بحق .

وأنه تعدى .

وأنه تجاوز.

ولكن الشوق والحب والطموح الإيمانى هو ما دفعه إلى ذلك . لقد طلب العبد من ربه طلبا ولن يرد الله عبدا من عباده ، فما بالك بنبيه ورسوله ؟

وقد رأى (موسى) عليه السلام ربه رؤية علمية ، علم وأدرك وعرف وعقل أن هذا محال ، وأن هذا فوق طاقة البشر ، بل فوق طاقة أى مخلوق مهما كانت مكانته من الله ، فما نحن إلا ذرات متناهية الصغر والضآلة في ملكوت الله وإن مجرد الطموح إلى الرؤية وطلبها هو نوع من الذنب يستوجب التنزيه والتوبة وإعلان الإيمان بالله وبعظمته وقدسيته من أن يرى أو يدرك أو يحاط به .

أمـــر الله

أسـرار مقدسـة

لله عز وجل أمور لا يشرك فيها أحدا ، ولا يطلع عليها أحدا ، تلك الأمور خاصة بذاته العليا المقدسة ، ولا ينبغي لأحد من الخلق أن يتطلع أو يطمح إلى العلم بها .

أمور ممنوعة .

أسرار محجوبة .

فرضتها صفات الذات العليا كنوع من طلاقة القدرة والكمال والعلو والجلال ... فله الأمر ... يقضي ولا راد لقضائه ، ويحكم ولا معقب لحكمه .. لا لشئ إلا لأن قضائه عدل ، وحكمه حق .

وليس وراء العدل نقض .

ولا وراء الحق تبديل .

وفرضتها صفات المخلوق ، ذلك لأن المساحة المتاحة لعقله كي يصول ويجول فيها ما شاء الله له تكاد لا تغطي أي شئ يذكر مما يجب أن يعرف من صفات الله العليا .

إذن فهناك اتساع بلا حدود لصفات الخالق .

ووجود لا يدرك ولا يحاط به .

وهنا قصور وعجز ومحدودية عن إدراك أو إحاطة .

وتبقى مساحة واسعة خاصة بالذات العليا غير مدركَة ، وغير محاطة من قبل الإنسان ، لا لأن الله أمر بذلك وحكم به ، ولكن لأن ذلك حال الله وأمره وشأنه ، يجل عن الإدراك من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن الإنسان عاجز وقاصر

ومحدود الإمكانات والقدرات عن عملية الإدراك تلك ، وتلك المساحة تظل بالنسبة للإنسان محجوبة مجهولة .

والإنسان مخلوق غير مدرك لتواضع إمكاناته ، غير واع لقصور قدرته ومن هنا جاء جدله وظلمه لنفسه وجهله بطبيعته ، وهو يسأل أسئلة إجاباتها تفوق قدرته العقلية ، ويقدم على أشياء يعجز عن تحملها ، ويطلب أشياء ليس له حق ولا مبرر لها ، **ولن تنفعه بل ستكون شرا وبيلا عليه** :-

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٥٣) ﴾ (النساء: ١٥٣)

سر الأسرار

ومن الأشياء الخاصة بالله والمحجوبة والممنوعة والمجهولة عن البشر الروح تذكر الروح **فيذكر (أمر الله)**:-

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) ﴾ (الإسراء: ٨٥)

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ (الشورى: ٥٢)

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) ﴾ (النحل: ٢)

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) ﴾ (غافر: ١٥)



وقال المفسرون إن المقصود بالروح : جبريل ، أو أنه ملك ، أو أنه القرآن العظيم ، أو أنه الروح الذى في الحيوان . أيا ما كان ، فهذا الأمر من شأن الله ومن الغرور ، ومن تجاوز الحد أن يتطلع الإنسان ليحاول معرفة هذا الأمر لأن الأداة التى يعتمد عليها متواضعة السبل ، أو قل إن ميدانها الطبيعة وما بث الله فيها من قوانين ، وقد يعلو العقل فوق الطبيعة ويتجاوزها إلى ما وراء الطبيعة ، ولكن هذا يتم في حدود، وحينما يعمل العقل في مجاله يحقق إنجازات ونتائج باهرة تسهم بنصيب وافر في تقدم وتطور الأمم وإسعادها .

وإذا وجدت إنجازات عقلية وعملية فاعلم أن العقل يسير في مساره الصحيح ، وإذا انعدمت تلك الإنجازات ولم تلمح أى تطور أو تقدم فاعلم أن العقل قد ضل مساره أو دخل في مجال ليس مجاله ، أو أن هناك أمورا قد حالت بينه وبين أن يمارس دوره الطبيعى في دفع عجلة التقدم والتطور، أو أنى أقحمت العقل إقحاما فيما لا يتفق ومنطقه ووظيفته ... فمثلا ما النتيجة وما الثمرة التى ستعود على الإنسان أن يعرف الروح ؟

- **كيف سأوظف تلك المعرفة ؟**
- **وهل تلك المعرفة ينتج عنها علم ؟**
- **وكيف سأستثمر هذا العلم ؟**
- **وما الإنجازات والنتائج التى سأحققها من وراء هذا العلم ؟**
- **وهل تلك المعرفة ستفيد الأجيال المتلاحقة أم أن المعرفة ستظل في صندوق مغلق يسلمه سابق للاحق ؟**

ثم هل أحاط العقل بالعالم المادي المشاهد واستخلص كل ما فيه من منافع وصلاحيات ؟

" وفي سبيل ألا يضل الإنسان في عوالم الغيب وضع الله تعالى في كتابه الكريم الحقائق النهائية التى يحتاجها كى لا يتعب نفسه وفكره في هذا المجال دون

جنى ثمرة ليتفرغ إلى التفاعل مع الأرض والاستفادة من الزمن لإنجاح عملية الخلافة الإلهية وانطلاقا من هذا المبدأ فإن على الإنسان في إطار الحقائق الإلهية التى وضعت أمامه أن يسلم بالتفصيلات الغيبية فهو طالما آمن بإله الكون وأدرك غاية وجوده وحقيقة عبادته فلا داعي أبدا أن يذهب وراء خيالاته المادية في محاولة تصور ماهية الإله وصفاته ولذلك فلقد دعاه الخالق سبحانه وتعالى إلى الإيمان بالغيب وجعل ذلك من إمارات صدق يقينه في قوله:-

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (البقرة: ٣)

ثم وبين أن أى تحرك خيالى للعقل في غير ما كلف به لا يكون مجديا أبدا

ولن يصل إلى المراد :-

﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (الشورى: ١١)

إن العقل الإنسانى بالرغم من طاقاته الكبيرة عقل محدود ناقص وجد أصلا ليكون عقلا عمليا يشتغل في إطار عالم المادة فيحاول الكشف عن قوانينه وأسراره ومن أجل ذلك نجد العقل الإنسانى في التاريخ كله كلما حمل نفسه في قضايا ما وراء المادة أكثر مما يتحمل ضل وتاه ولم يصل قط إلى الأمان.

والدليل على ذلك أراء الفلاسفة والمفكرين في تلك القضايا الغيبية منذ أقدم العصور إلى اليوم فهى عبارة عن مجموعة من الأفكار المضطربة والمتصارعة والمتضادة والساذجة في أحيان كثيرة، والتى تحمل كل قصور ذلك العقل المحدود في المجالات الغيبية المذكورة. ومن جهة أخرى كلما عرف العقل الإنسانى مقداره ومجاله واشتغل في إطار كشف أسرار المادة أنتج وأبدع في هذا الإنتاج" (٨).

قليل من العلم

لذلك قال الله تعالى : ﴿ ......وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾[الإسراء:٨٥]

أنتم لم تصلوا إلا إلى القليل من العلم بالكون الواسع ، ولن تصلوا في يوم من الأيام بالإحاطة علما بهذا الكون ، وسيظل العقل يلهث محاولا أن يعرف المزيد .

وانظر إلى (من) ، وإلى (قليلا) ، أى ما أنتم مهيئون له ، ما تستطيع عقولكم أن تحصله في ماضيكم وحاضركم ومستقبلكم ، وكل ما ستخترعونه وتكتشفونه وما هو مقدر لكم يعد قليلا ، فأين أنتم من ملكوت السمات والأرض وما نسبة ما تم معرفته إلى ما لم يتم معرفته ؟

وقد يكون – والله أعلم – أن الإتيان هنا ليس العلم وإنما أداة تحصيل العلم وهو العقل والدليل على ذلك أنهم (**يسألونك**) ، **والجواب** : أن ما لديكم من عقل لا يمكنكم إلا من معرفة بعض من القليل ، فالله لا يعطينا العلم ، ولكن يعطينا العقل الذى به نحصل العلم .

ولكن من قال إن الذى يقود الإنسان هو العقل فقط ، بل قد يكون العقل مدفوعا أو مساقا بإرادة الإنسان أو طموحه أو تطلعه أو رغباته .

كل هؤلاء قد يدفعون العقل أن يتخطى حدوده ويتعدى مجاله وهذا حادث حينما يكون الأمر متعلقًا بذات الله أو بأمر من أمور الله .

لا عقل أمام ذات الله ، لا جدوى منه ولا نفع ، فليس هذا مجاله ولا تلك وظيفته ولم يعد لمثل هذا الأمر

﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (الشورى: ١١)

ولكن هذا العجز العقلي أكبر دافع يدفع الإنسان نحو الله ، التشوق إليه الحنين له ، فهو الخالق ، وهو المعبود ، هو الرازق ، هو المحيى هو المميت هو الأول هو الآخر.

نعم العجز العقلي يفصلنا عن الله ، ومع ذلك فنحن مندفعون إليه متلهفون له ، اتجاه قدري نحوه ، منجذبون إليه كانجذاب الفراش نحو النور ، انجذاب فطرى لا نملك أن نتحكم فيه .

علاقتنا بالله
رضا وقناعة

العلاقة بين الله والإنسان عمادها الخضوع والاستسلام من الإنسان . هذا الخضوع والاستسلام يجب أن يرتكزا على الرضا التام والقناعة الكاملة . وإذا توافر هذان الأساسان تحققت معانى العبودية في أسمى وأرقى صورها بين خالق ومخلوق ، بين عابد ومعبود .

ولله أن يقدر ما يشاء من صنوف وأنواع الابتلاءات على عباده ، تلك الابتلاءات قد ينتج عنها في صدر الإنسان ، أو قد تحرك إحساسا بالضيق أو الحرج أو جملة من التساؤلات نابعة من ضعف الإنسان ومحدودية تفكيره وهو إزاء الحكمة الإلهية المستترة خلف الأحداث .... تساؤلات مثل : إذا كان الله في غنى عن عذابنا في الدنيا فلم يعذبنا بأنواع الآلام ؟ أو ما الحكمة أن يكون الإنسان طوال حياته بين ضفتى من المعاناة والشقاء ؟

- ويزداد هذا الضيق وطأته على النفس .
- ويزداد هذا التساؤل إلحاحا على العقل .

إذا تعرض الإنسان لتلك الآلام ، أو أحد الأعزاء لديه ، لا سيما إذا كان هذا الابتلاء ليس له من نهاية سوى الموت ، بل قد يكون الموت عزيز المنال .... وعدم حدوثه – وهو حتم – يعزز الاعتقاد بأن ، أو لنقل الظن بأن العذاب هنا لمجرد العذاب ، والمعاناة لمجرد المعاناة . وهذا لا يفسره إلا رغبة في الانتقام ، أو عقاب لذات إنسانية جبلت على الخطأ ، أو خلقت وهى مفطورة على القصور ، وعلى عدم

القدرة إلى الارتقاء بأن تؤدى التكاليف والفروض الإلهية بما يتناسب وعظيم تلك الذات .

مأزق إنسانى

لذلك قد يحدث نوع من الاعتراض ، إحساس بعبثية الوجود وتفاهة الحياة .

الرضا هنا وصل إلى أدنى درجاته .

معانى العبودية الكامنة في النفس بدأت تتصدع .

العلاقة بالله بدأ ينالها شئ من الفتور من جانب الإنسان .

وهذا مأزق يتعرض له الإنسان .

ومحنة أو قل صنف من صنوف الابتلاءات ، أو نفق مظلم لا يدرى الإنسان كيف الخروج منه .

كيف الخروج ؟

وأين العلاج ؟

الخروج من تلك الحالة أو علاجها نتبع الأتى :

أولا : تشخيص هذه الحالة .

ثانيا : معرفة الأسباب .

ثالثا : العلاج .

أولا : تلك الحالة ليست حالة طبيعية ، فالإنسان لا يصدر منه الاحتجاج أو الرفض أو الشكوى على طول الخط ، فقد يكون مؤمنا بقضاء الله خيره وشره ، محتسبا أجره عند الله ، راجيا أن يزيد هذا في ميزان حسناته ، هذه حالة طبيعية ، ولكن من قال إن الطبيعى والمنطقى هو السائد طوال الوقت ؟ فقد تحدث أمور وتستجد حوادث ، تخرج الطبيعى عن مساره

وينتقل الإنسان من طور إلى طور ، وتتغير الأمور ، وتلك سنة من سنن الحياة ، والوجود الإنسانى لا يعرف الثبات ولا الجمود . فكل شئ متذبذب ومتأرجح . اليوم يشعر الإنسان بأن الإيمان يملأ أفئدته ويعمر خلاياه ... يشعر أنه قريب جدا من الله ، يسير في أنس طاعته ، ويعيش في رحاب . رضاه ، الوجود كله قبسة من قبسات أنوار الله .. الصدر متسعا منشرحا يستقبل فيوض الإيمان .

وغدا قد يتغير كل هذا ، هناك الضيق والقنوط واليأس والشك ، يشعر الإنسان أنه بعيد عن الله ، ينتابه القلق ، ويساوره الألم ، يبحث في مناحى نفسه فلا يجد ما كان واجده بالأمس .

ما هذا ؟

إنه مرض ... فكما الجسم يمرض ... كذلك النفس تمرض . وللإمراض شرها وخيرها .

- شرها أنها تهدد بقاء الإنسان .
- خيرها أنها تمنح المناعة .

ثانيا : قد يمرض الإنسان لا لشئ إلا لأن المرض والصحة حالتان تنتابان الإنسان على مدى حياته . ومع ذلك فهناك أسباب ، فكما أن الجسم الإنسانى في حاجة دائما إلى الرعاية والاهتمام أو الملاحظة الدقيقة والكشف الدورى على أجهزته كى لا ينالها أى عطب أو اختلال ، كذلك النفس الإنسانية في حاجة إلى رعاية واهتمام في حاجة إلى مداومة شحنها .. تذكيرها ... تعميرها .. وعظها .. إرشادها ، فقد تفرغ النفس وتنسى وتضل وتخطأ .

وهناك مفهوم خاطئ عند الإنسان وهو (الثبات) ، يظن أنه قد ثبت على الإيمان ، وأن هذا الثبات سيصاحبه إلى آخر يوم في حياته ، وهذا وهم خالص .

فالإنسان الذى يتمتع في تلك اللحظة بوافر الصحة الجسدية ، يخطئ إذا ظن أنه سيمضى كل أيامه متمتعا بتلك الصحة ، ففى يوم قد يجد جسده نهبا للأمراض ، وقد يحدث هذا فجأة بدون مقدمات ، بدون سابق إنذار... وقد تودى العلة التى حدثت بالجسد .

ما يحدث للجسد يحدث للنفس .

إذن النفس في حاجة إلى مراقبة دائمة ، وتوقع المرض ، بل التيقن منه لابد أن يكون سيد الموقف . هناك مرض ، وهناك أسباب ، وتلك الأسباب في مجملها عبارة عن غفلة ، نسيان إهمال ، مفاهيم خاطئة عن طبيعة النفس وعن مفهوم الإيمان .

ثالثـــا: العلاج وينقسم إلى شقين ، الشق الأول محاصرة الحالة والحيلولة دون زيادتها واستفحالها ، والشق الثانى محاولة القضاء عليها ومحو آثارها السيئة .

الشق الأول ويحتاج إلى أمرين : السرعة والصبر .

السرعة في محاصرة المرض ، ومنعه من أن يستفحل ، وهذا لا يكون إلا من خلال الاعتراف الصريح أن هناك مرضا وهناك خللا ، لابد أن يكون هناك مصارحة لا فائدة ، أنا أدرى بنفسى حتى لو شهد كل من حولى بتمام الإيمان وكمال الاستقامة لى ، مثل هذا الإنسان الذى يذهب إلى الطبيب شاكيا من علة ، فيخبره الطبيب أنه في صحة تامة ، فيخرج من عنده غير مصدق لكلامه ، لأنه أدرى بنفسه من الطبيب .... وحينما يقف الإنسان أمام نفسه معترفا بكل جرأة وشجاعة أنه

قد تغير للأسوأ ... لحظة الاعتراف تلك أول محاولة صادقة لمحاصرة المرض ومنعه أن يزداد .

الصبر أن أعود إلى حالتي الطبيعية من الإيمان والقرب من الله .. لن يتم هذا بين يوم وليلة ، مثل المرض الجسماني .. قد يستغرق العلاج أسبوعا أو شهرا أو عاما ، وقد يسير العلاج على امتداد العمر كله ، فكما يقول الأطباء أن العلاج يتم على مراحل كل مرحلة تستغرق مدة يعقبها مدة أخرى وهكذا ، فأى علاج في حاجة إلى صبر ، لأن التحسن يكون ببطئ ، ولكن هناك الأمل الذى لا ينقطع ، والرجاء الذى لا ينتهى في الشفاء .

" ليكن في قرارة قلوبنا أن الروح ليست اسما لشئ ولكنها اسم لحياة وإن خلاص الروح ليس بالسلعة أو المنحة التى تشترى أو تستعطى ، ولكنه تطور نبلغه ونترقى إليه ، وإن تخليص روح الإنسان ليس بالعمل الموقوت الذى يتم في ساعته ولكنه سعى طويل يستغرق مدى العمر كله ، وليس هو إنقاذ لكيان مبهم لا تعريف له في سبيل التأهب لحياة متصلة ولكنه خلق لنموذج من الشخصية من طريق الاعتراف بالقيم البينة التى تدور عليها تجارب كل يوم إنه نضج باطنى لمعانى الحق والجمال وكرامة الحياة "(٩) .

الشـــق الثـــانى : الجزع القلق الهلع الخوف الضعف الضيق الملل السأم الكبر العجب الغرور...... تلك كلها مشاعر تنتاب النفس ، بسببها قد تنهار من بعد تماسك ، وتضعف من بعد قوة وتشك من بعد إيمان ، وتقلق من بعد اطمئنان ، فحال النفس في تقلب مستمر ، وعلى الإنسان أن يعى ذلك ويتوقع تلك التقلبات والتغيرات ، لأننا في عالم كل شئ فيه عرضة للتغيير ومن رحمة الله بنا أن جعل للنفس حماية ضد تلك الأوبئة والفيروسات . فهناك الصلاة والصيام والزكاة والذكر والحج ، فمن ضمن حكمة تلك

الفـروض أن تقـى الـنفس مـن المـرض ، وتعصـمها مـن الضـلال وتنقـذها مـن العصيان ... سياج حـول النفس ، أو هـى صـلات وثيقـة تربطنـا بـالله كى لا ننسى .

كمال الذات

الكمـال والجـلال والجمـال والقـوة بعض صفات تتصف بهـا الـذات العليـا ولأن تلك الـذات محبـة فقد أوجدت ذواتـا لينعموا بتلك الصفات ، وهذا مـا حـدد العلاقة بين الله والعباد ، علاقة محب بمحب بشئ جدير بالحب . والكمـال يتـأتى للذات حينمـا تكون في غنى عمن يشهد لتلك ، فلا شئ يشهد الشهود الحق للذات إلا الـذات نفسهـا ... تلك الحقيقـة تكشف علـة مـن علـل خلـق الخلـق .. أن الـذات في غنى غنـاء مطلقـا ، ولا يتجلى هـذا الغنـاء في أجلى صـوره إلا في وجـود المستغنى عنه .

الـذات العليـا أشد غنى حينمـا تكون هى الواجدة لهذا الشئ ، بل الإيجـاد والقدرة عليه أو عملية الخلق من العدم وإفنـاءه مرة أخرى ثم بعثـه دليل على الغنـاء واستقلال الذات .

فلأن الله غنى عن الخلق أوجد الخلق .
ونحن لم نوجد إلا لنشهد بإيجادنا وخلقنا أن الله في غنى عنا .
فهو في غنى عنا قبل خلقنا ، وهو أشد غنى بعد خلقنا .

﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ ﴾
(الحج: ٦٤)

وكل الأوامر الصادرة من الله لنا ، الخاصة بتوحيده وعبادته وطاعته مرجع نفعها لنا .

وهذا ملمح آخر من ملامح الكمال الذى تتصف به الذات . أن كل المنافع العائدة من طاعته وعبادته في غنى عنها غناء تاما ، ونحن في مسيس الحاجة إليها مع أنه هو الذى أمر بها .

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ (فاطر: ١٥)

- يأمر عباده بتوحيده وعدم الشرك به .
- يأمر عباده بطاعته وعدم عصيانه .
- يأمر عباده بأن يتقوه .
- يأمر عباده بالحذر منه .
- يأمر عباده بالخوف منه .

لا لأنه في حاجة أو رغبة لتلك الأمور ، ولكن لأن هذا في صالحهم ، ويحقق النفع لهم في الدنيا والآخرة ، وهذا مرجعه إلى حب الله لعباده.

﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾(آل عمران: ٩٧)

ليس في حاجة إلى كل ما يتقدم به العباد من فروض الطاعة والولاء والخضوع .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾(ابراهيم: ٨)

فإن كفر العباد ولم يبق من رجل يوحد فله الكبرياء في السماوات والأرض .

ولكن إذا كان هذا حادثا ، فلم تواترت رسل وأنبياء الله وتعاقبت صحفه وكتبه ، وكان هناك تشديد وتخويف وتحذير ، وإغلاظ في الوعيد ومبالغة في التهديد وذكر لأنواع وأصناف من العذاب وصب اللعنات فوق من كفر وأشرك ؟

فالغنى ليس في حاجة إلى استعمال مثل تلك الأساليب التى تدفع الناس دفعا إلى الإيمان ، وتنفرهم من الكفر والعصيان .

فقد يتوهم إنسان أن الله في حاجة إلى من يوحده ، في حاجة إلى من يعبده في حاجة إلى من يطيعه .

وإلا ما الغرض وما الهدف من الوعيد والتحذير والتخويف والتهديد .... فما كان أغنى الله سبحانه وتعالى عن كل هذا .

هذا يكون إذا كان الله غنيا فقط ، ولكنه غنى ورحيم ، فكل هذا التحذير والتخويف والتهديد ، وذكر آيات العذاب وتصوير مشاهد المعذبين يعذبون في نار جهنم مبعثه رحمة الله .

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ (الأنعام: ١٣٣)

فالرحمة تقرب بين الله وعباده ، فهو لا يتركهم لأنفسهم فيضلوا ضلالا بعيدا ، ولا يتركهم نهبا للشيطان ليتردى بهم في درجات الكفر والعصيان ، وقد ألزم الله نفسه بتلك الرحمة .

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (الأنعام: ١٢)

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ (الأنعام: ٥٤)

ليس رحمة فحسب ، وإنما رحمة واسعة

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ (الأنعام: ١٤٧)

- غنى .
- ورحمة .
- ورحمة واسعة .
- وعلم أيضا .

وهذا العلم من شأنه أن يؤصل الرحمة ، ويجعلها في مكانها الصحيح ووضعها الحق ،

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾ (غافر: ٧)



ونحن العباد في مسيس الحاجة إلى تلك الصفات القدسية . فالله الغنى ونحن الفقراء . ليس فقر مال ولكن فقر وجود . والله رحيم . ونحن ضعفاء في حاجة إلى من يسد هذا الضعف . والله عليم ونحن جاهلون نستمد من علمه قبسا يهدينا إليه .

ومن رحمته أنه لا يرضى لعباده الكفر . مع أنه - كما قلنا - ليس في حاجة إلى إيمانهم إلى عبادتهم وطاعتهم . فالكفر جزاؤه جهنم . والإيمان جزاؤه الجنة وحبه لعباده حبب لهم الإيمان وكره لهم الكفر .

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾
(الحجرات: ٧)

﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾ (الزمر: ٧)

ثم أن الله نص في كتابه الكريم في سورة الذاريات :-

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾(الذاريات: ٥٦ - ٥٨)

هل العبادة علة خلق الخلق ؟

أم هى إرشاد وتنبيه للعباد أن هناك أشياء كثيرة يفعلونها في حياتهم الدنيا ، ولكن أسمى وأرقى وأطهر وأنقى وأبقى فعل يفعلونه هو العبادة والتوحيد لله، وأن هذا الفعل - وليس غيره - هو ما يحقق وجودهم الحق ، لأنه يوصلهم

بالخالق ، ويحقق الحكمة من إيجاد الإنسان ، وأن هذا الفعل نفعه راجع إليهم ، ولن ينال الله منه شيئا ، غير أنه سيؤدى بالعباد إلى درجة التقوى . ولعظمة هذا الفعل تضاءلت بجواره الأفعال الأخرى ، بل هذا الفعل هو المعتبر به والمعتد به ، وأسلوب القصر يوضح هذا توضيحا كاملا ، ولاستبعاد مظنة مرجع نفع العبادة إلى الله ، أن الآيات أكدت على أن الله لا يريد رزقا أو طعاما ، فهو الرزاق وهو القوى ، والله يريد من العباد أن يعبدوه عن اختيار بدون جبر أو قسر ، ليكون مبعثها الحب والشعور بالامتنان والفضل ... يقول الزمخشرى – رحمه الله – في تفسير الآيات :

« أى ما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة ولم أرد من جميعهم إلا إياها ، فإن قلت : لو كان مريدا للعبادة منهم لكانوا كلهم عبادا ، قلت إنما أراد منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة لا مضطرين إليها لأنه خلقهم ممكنين ، فأختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريدا لها ، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم ، يريد أن شأنى مع عبادى ليس كشأن السادة مع عبيدهم ، فإن ملاك العبيد إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وأرزاقهم فأما مجهز في تجارة ليفئ ربحا أو مرتب في فلاحة ليغتل أرضا ، أو مسلم في حرفة لينتفع بأجرته أو محتطب أو محتشى أو مستق أو طابخ أو خابز وما أشبه ذلك من الأعمال والمهن التى هى تصرف في أسباب المعيشة وأبواب الرزق ، فأما مالك ملك العبيد وقال لهم اشتغلوا بما يسعدكم في أنفسكم ولا أريد أن أصرفكم في تحصيل رزقى ولا رزقكم وأنا غنى عنكم وعن مرافقكم ومتفضل عليكم برزقكم وبما يصلحكم ويعيشكم من عندى فما هو إلا أنا وحدى » (١٠) .

- ✓ إذن هناك خلق من عدم .
- ✓ وهناك أسمى فعل من الخلائق وهى العبادة .
- ✓ وهناك اختيار حر من العباد في تأدية تلك العبادة لله أو عدم تأديتها .
- ✓ وهناك غنى كامل من الله عن تلك العبادة .

يقابله احتياج شديد إلى تأدية العبادة لله لأنها هى الرابطة أو العلاقة وتعتبر من أقوى الوشائج التى تربط العباد بالله . وبدون تلك الوشيجة هم تائهون ضائعون ضالون ، وكأن بالعبادة ، الله يمد يده لهم ليهديهم ويرشدهم وينير لهم الطريق ويكشف عن قلوبهم الظلمات .

أعداء الله

أن يخلو العالم من الله هذا غاية ما يطمحون إليه ، أو هو هدف الأهداف الذى ينامون ويستيقظون على أمل تحقيقه ، سواء كان على المدى القريب أو البعيد ؛ ذلك لأن وجود الله في العالم مفسد عليهم كل خططهم ، ومبطل عليهم كل مؤامراتهم ، ومخسر عليهم كل مساعيهم .

ولقد حاولوا منذ أمد بعيد أن يوهموا أنفسهم والآخرين بما صاغوه من فلسفات وبما زخرفوه من مذاهب وبما اخترعوه من ديانات أن يلبسوا على العالم أن الإنسان في غنى عن الله ، هذا إذا كان في فرضهم أن الله موجود .

ولكن كل تلك الفلسفات والمذاهب والديانات أعلنت – مؤخرا – إفلاسها وتجردت من لباس الحق الذى كانت ترتديه خداعا ومكرا ، وأزيلت من على وجهها القبيح تلك الأقنعة المموهة ، ولأنها عجزت أن تداوى تلك الأمراض التى تشكو منها الإنسانية ، بل زادت أمراضها مرضا عضالا و يئست الإنسانية منها يئسا تاما وأخذت تقلب وجهها شطر المشرق والمغرب حائرة تريد أن تستقر وتطمئن وتشفى من تلك العلل والأمراض ، فقد أخذت في استخدام القوة بجوار الفكر .

أعداء الله أدركوا في هذا العصر أن الفكر وتوابعه قد يحقق ما يرجونه ولكن على المدى البعيد ، ولديهم سجل لنتائج تلك المعارك التى فشل فيها الفكر

فشلا مبينا ، لذلك لجؤوا إلى القوة ، وفى نفس الوقت لم يتخلوا عن استخدام الفكر لتعضيد تلك القوة ، أو لنقل أنه قد حدث أمر غريب في هذا العصر ، أن القوة أصبحت نوعا من الفكر أو أسلوب من أساليب الإقناع ، فوجود القوة في أقصى درجاتها نوع من الإقناع الحاسم ، إقناع لأصحاب القوة أنهم غالبون ، وإقناع للآخرين أنهم مغلبون .

إذن وجود القوة على الأرض ساكنة بدون فعل هو نوع من الحرب الصامتة أو هو نوع من أنواع الحرب النفسية والمعنوية ، وكذلك تحطيم خفى لمكامن أو منابع أو مشاريع قوة على وشك الظهور .

وإذا لم تحقق تلك القوة الساكنة ما ترجوه من إرهاب فكرى ، فلا مانع من تحريك تلك القوة تحت أى ذريعة من الذرائع في أضيق نطاق ، لا لشئ إلا لتحقيق الهدف الذى لم تستطع تحقيقه وهى ساكنة ، ولا شك أن تلك القوة ناجحة نجاحا منقطع النظير في النطاق الضيق ، ولكنه نجاح زائف .

وقد يترجم الفكر إلى قوة ، وأيضا تترجم القوة إلى فكر ، وقد لمس القرآن هذه الحقيقة ، **قال الله عز وجل :-**

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (الأنفال: ٦٠)

فهو لم يقل تحاربون أو تقاتلون ، وإنما هى قوة ساكنة ، ولكن أثرها متحرك وفى ديمومة وهو الإرهاب لعدو الله ، وفى تفسير الآية الكريمة جاء في تفسير **(الوسيط)**

((لاشك أن العدو المجاهر والمتخفى إذا عرف قوة استعدادنا الحربى فإنه يجبن عن قتالنا ، وأن يجرب حظه في الهزيمة منا)) (١١) .

وجاء في تفسير (المنار) :

((وهذا التقيد لإعداد المستطاع من القوة ومن رباط الخيل يقصد إرهاب الأعداء المجاهرين والأعداء المستخفين وغير المعروفين ، دليل على تفضيل جعله سببا لمنع الحرب على جعله سببا لإيقاد نارها ، فهو يقول استعدوا لها ليرهبكم الأعداء في أن يمتنعوا عن الإقدام على قتالكم ، وهذا عين ما يسمى في عرف دول هذه الأيام بالسلام المسلح ، بناء على أن الضعف يغرى الأقوياء بالتعدى على الضعفاء)) (١٢) .

أن يعادى أحد من البشر الله ، فهذا حادث ، ويرجع ذلك إلى جهل الإنسان وظلمه نفسه ، فقد وضع الله حدودا لكى تصان ويحافظ عليها ، وأمر بأوامر تطاع ونهى عن أمور تجتنب ، فإذا لم يحافظ على تلك الحدود ، ويأتمر بتلك الأوامر وينتهى عما نهى عنه عزوجل ، فقد عادى الله .

وللظلم معنيان :

- وضع الشيء في غير موضعه .
- الجور ومجاوزة الحد .

والإنسان حينما يعص الله فقد ارتكب الأمرين ، وتجاوز وتعدى حدود الله وجار ومال عن القصد ، وتعامل مع الله بما ليس له أهل ، فكل ما يتعلق بذات الله ينبغى أن يصان ويحافظ عليه ، ومن يفعل غير ذلك فقد وضع الشئ في غير موضعه وأعظم ظلم يرتكبه الإنسان في حق خالقه هو الشرك ، ((**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم)) قال ابن عباس وجماعة أهل التفسير :**

لم يخلطوا إيمانهم بشرك وروى ذلك عن حذيفة وابن مسعود وسلمان وتأولوا فيه قول الله عز وجل ((إن الشرك لظلم عظيم)) يعنى أن الله تعالى هو المحيى والمميت الرزاق المنعم وحده لا شريك له فإذا أشرك به غيره فذلك أعظم الظلم ، لأنه جعل النعمة لغير ربها)) (١٣) .

وظاهر الأمر يقول إن الإنسان قد ظلم ربه ، فحينما يكون الخالق هو الله والرازق والمنعم والمحيى والمميت ... ثم لا يقوم الإنسان نحو ربه بما يوازى تلك النعم من شكر وعرفان ، لا شك أن الإنسان قد ظلم ربه . ولكن الظلم هنا مردود

على الإنسان ، لأن الله غني عما يقدمه الإنسان من طاعة وعبادة وشكر ، فنفع كل هذا عائد على الإنسان في حياته الدنيا والآخرة ، وصلاح أمره في الاثنين .

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (البقرة: ٥٧)

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت: ٤٦)

إذن من يعادي الله فقد عادى نفسه وأوردها موارد الهلاك والخسران المبين .

هل الله عدو لأحد من خلقه ؟

ما ينبغي لله أن يكون عدوا لأحد من خلقه ؛ فقد حرم الظلم على نفسه فكيف يجوز أن يكون عدوا وهو مجاوزة حد الظلم ؟

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٤٠)

ولكن الإنسان هو الذي اختار أن يكون عدوا لله ، من خلال كفره وفسوقه وعصيانه لخالقه وتجبره وتكبره على عباد الله . فهو يعلم كيف يجلب رضا الله عنه وكيف ينال حب الله وعفوه وغفرانه . وكذلك يعلم متى يستحق غضب الله ولعنته وعذابه وعقابه ، الأمران معروضان أمام الإنسان وواضحان وجليان ، لكل ذي بصر وله مطلق الحرية أن يتخذ الله عدوا ،أو يتخذه ربا ، ويتحمل المسئولية كاملة جراء هذا الاختيار .

أي فعل يفعله الإنسان قد يعود ضرره أو نفعه على الآخرين ، ولكن النتيجة والمحصلة النهائية عائدة عليه في نهاية الأمر ؛ ذلك لأن القصاص مبدأ وركيزة جعله الله من الركائز التي يرتكز عليها الوجود الإنساني.

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُولِي الْأَلْبَٰبِ .... ﴾ [البقرة:١٧٩]

حتى ولو لم يكن هناك من يقتص من الظالم ، فالظالم يقتص من نفسه لنفسه ، لأنه حينما ظلم وأفسد فقد أخرج نفسه من حالتها السوية وفطرتها النقية وأدخلها في حالة شيطانية ، وأفسد ودمر نفسه بهذا العمل ، فالظالم وإن كسب كثيرا من ظلمه ، وأرضى غروره وتكبره ، وأشبع شهواته وغرائزه ، وعاث في الأرض فسادا وكل هذا زاده صلفا وغرورا ، إلا أنه في النهاية خسر نفسه .

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (الإسراء: ٨٢)

والظالمون يؤيد بعضهم بعضا ، ويساند كل منهم الآخر ، لأن الظلم جمعهم وهم في حاجة إلى هذا التأييد ، وفى حاجة إلى تلك المساندة ، لأنهم يشعرون في قرارة أنفسهم – رغم كل ما يجمعون من قوة – أنهم ضعفاء ، لأن مأساتهم كامنة في أن الظلم يضعف بعضه بعضا ، يبدؤن من الظلم وينتهون إليه ، وكلما تجمعوا وتكتلوا كلما ازدادوا ضعفا ، وهم لا يعلمون ، لذلك فإن انتشار الظلم وتكبره وتجبره دليل وبشير على قرب زهوقه .

﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ الظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾(الجاثية: ١٩)

وهذا أجمل عزاء للمظلومين والضعفاء في هذه الدنيا، أن هناك إله ، إن لم يرد الظلم في نحر الظالم فهناك يوم آخر ، فيه قصاص وفيه عدل ولا وجود للظلم فيه .

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَٰزِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾(الأنبياء: ٤٧)

﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٤ ﴾

(يس: ٥٤)

ومع ذلك يبقى الباب مفتوحا لمن شاء أن ينتقل من عداوة الله إلى حبه ومن عصيانه إلى طاعته.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١١٠ ﴾

(النساء: ١١٠)

هل الإنسانية في حاجة إلى الله ؟

تاريخ الإنسانية الموغل في القدم يخبرنا أن الإنسانية لم تمض لحظة من حياتها إلا وهى وثيقة الصلة بفكرة الألوهية ، حتى قبل أن تهدى إلى عبادة الله الأحد ، كانت تخترع وتخلق آلهة ، وتقيم معها علاقات ، تلك العلاقات كانت أهم ما يربط الإنسان بالوجود ، وتشكلت حياته بمدى قوة ووضوح تلك العلاقة .

"وتكون من المعتقدات الدينية في كل وقت أهم عنصر في حياة الأمم ومن ثم في تاريخها ، وكان ظهور الآلهة وموتها أعظم الحوادث التاريخية ، وتولد مع كل مبدأ دينى جديد حضارة جديدة ، وما انفكت المسائل الدينية تكون من المسائل الأساسية في قديم الأجيال وحديثها ، ولو حدث أن أضاعت البشرية آلهتها لكان مثل هذا الحادث في نتائجه أهم الحوادث التى تمت على وجه الأرض منذ فجر الحضارات الأولى " [١٤] .

فإلى جانب أن وجود إله يحل ألغاز كثيرة في حياته ، فإنه لم يتخيل أن تخلو حياته من الإله ؛ لأنه غير محتملة بدونه ، **فوجود الإله يحقق له ما يلى :**

- مبعث للخير والقيم والمبادئ
- مبعث للمقدس وهذا ما يجعل لوجوده معنى ؛ لأنه يحمل نفسه الدفاع وحماية هذا المقدس
- مبعث للالتزام الأخلاقى ، فهناك أوامر ، وثمة نواه لابد أن تؤدى تحت أى ظرف من الظروف .
- مبعث للرقى والتحضر والسمو ؛ لأن الإيمان بذات كاملة يضفى على المؤمن نوعا من الكمال النسبى ، أو يدفعه إلى التشبه بالإله ما وسعه ذلك وعلى قدر ما تطيقه طبيعته البشرية .

- مبعث للراحة والاطمئنان النفسى لأن كل ما يحدث حتى وإن كان يعارض رغبة الإنسان ويصادم طموحاته فهو من تقدير وصنع الإله ، وله في ذلك حكمه ، فلا شئ في الكون يحدث عشوائى ، ولا شئ في حياته يخضع للصدفة .
- منح الإنسان مساحة طاهرة نقية حرة لا يطلع عليها سوى الله ، وهذا يحقق قمة الرشد والمسئولية .
- يرى في الله قوة يعتصم بها ويحتمى ، فهو كثيرا ما يشعر بضآلته وضعفه وسط هذا الكون الواسع وبين تلك الطبيعة الشرسة ، أو أى شكل من أشكال القوة تريد سحقه ، فهو يدرك إدراكاً فطريًا أن الله كفيل بإعادة هذا التوازن المفقود بينه وبين ما حوله ، وأى مشكلات عويصة تصادفه ، فوجود الله كفيل بحل تلك المشكلات ، بما وضعه من سنن الحق والعدل في الكون ، تلك السنن من القوة والتمكن بحيث تعتبر ركائز كونية لا أحد يستطيع مهما أوتى من قوة أن يستبدل بها سننا أخرى .
- يجعل الوجود الإنسانى محتملا ومتزنا ومستقرا ، فإذا كان في الحياة الدنيا ظلم وعجز الإنسان في التخلص منه ، فهناك في الآخرة عدل ، وإذا كان هنا جبروت وطغيان فهناك رأفة ، فالإله لابد أن يكون عادلا ، وهو لا يرضى لأحد من عباده أن يظلم ؛ لأن اتصافه بالكمال يمنع ذلك ، وإن حدث فهناك القصاص في الآخرة .

على هذا فإن الحياة الإنسانية وهى بعيدة عن فكرة الألوهية غير محتملة وغير منطقية ، بل هى غير إنسانية بالمرة ؛ لأنها لم تستمد صفاتها وقوامها وخصائصها إلا من خلال تلك الفكرة .

القوة بديل عن الله

ولكن في عصرنا – وفى عصور أخرى – تتملك الإنسان نزعة الغرور والعجب والكبر ، فيحاول أن يحجم من وجود تلك الفكرة ويحاصرها كى لا تبسط سلطانها الطبيعى في الوجود ؛ لأن طموحاته وتطلعاته وأطماعه جعلته يقف على النقيض من تلك الفكرة ، فليس أمامه إلا خياران إما أن يضحى بفكرة الألوهية أو أن يضحى بطموحاته وأطماعه .

ولم يطل به الأمر كي يحزم أمره ويضحى بفكرة الألوهية ، ولم يقف به الأمر عند ذلك بل يتجاوز ويعلن الحرب على الفكرة في حد ذاتها ؛ لأنه رآها من القوة والتأصل والتجذر ما يستحيل معها أن ينفذ مشاريعه ومخططاته ، والفكرة باقية تنقض وتقوض كل تلك المشاريع والمخططات من الأساس .

" والعقيدة القوية تبلغ من المنعة ما لا تستطيع أن تكافحها معه كفاح المنتصر غير عقيدة مماثلة ، وليس للإيمان عدو يخشاه سوى الإيمان ، والإيمان لابد من انتصاره عندما تكون القوة المادية التى تصوب إليه مؤيدة لمشاعر ضعيفة ومعتقدات متداعية " (١٥) .

هذا الصراع يشتد أواره ولا يحتدم إلا حينما تكون هناك قوة أحادية ، هذا التفرد في القوة يفتح أمامها مشاريع الهيمنة والسيطرة ، وهما يفتحان شهية المهيمن والمسيطر إلى محاولة إعادة صياغة وتشكيل العالم والبشر وفق ما يهوى ، وقد يتفق – نادرا – هذا الهوى مع مصلحته ولا يعارض مصلحة الآخرين ، وهذا يحدث

حينما تكون لديه قناعة بما يريد أن يحققه ، وفى نفس الوقت لديه وازع أخلاقي يردعه أن يحقق مصلحته على حساب الآخرين ، ويمنعه أن يضر الآخرين لينفع نفسه .

ولكن قد لا يكون لديه قناعة ولا وازع أخلاقى ، حينئذ فلا شئ يوقفه عن الاندفاع الأهوج غير المحسوب وغير المقدر النتائج على من حوله .

والبعض – في العالم – قد يعارضونه ، ولكنهم لا يقفون في وجهه ، فهو يرضى أن يكون هناك معارضون صامتون ساكنون ولكنه لا يرضى من أحد أن يحول بينه وبين مخططاته والمعارضة بدون مقاومة نوع من المساومة ، أو نوع من المقايضة أو نوع من الاتفاق الضمنى ليتنازل لهم عن بعض المنافع والمكاسب . وهؤلاء لديهم عقيدة أن القوى طالما استجمع أسباب الهيمنة والسيطرة فمن حقه أن يفعل ما يشاء ؛ لأنهم عبدة القوة الطاغية ، وأن الواقع الماثل أمامهم في الوقت الراهن من القوة بحيث لا يقاوم ، غاضين البصر عن مدى مشروعية تلك القوة ، و تناقضها مع القيم والمبادئ الإنسانية .. فما جدوى قيم ومبادئ لا سند لها من القوة ؟!

وتاريخ الإنسانية حافل بالصدام والصراع بين القوى التى لا سند لها من الشرعية وبين المبادئ الأخلاقية التى لا سند لها من القوة المادية .

والقوة الطاغية أو من يمثلها يحاول في بداية الأمر أن يجند الشرعية أو يلبس أهدافه ثوب الحق مستخدما أساليبه من ترغيب وترهيب ودعاية وإعلام وإن عجز – وهو عاجز – فليس أمامه إلا الحرب للقضاء على العدو بالنسبة له .

وتلك القوة لاقت نجاحا في مراحل مختلفة من التاريخ الإنسانى ، ولكنها عجزت عجزا تاما حينما اصطدمت مع الخصم ، متمثلا في دين من الأديان أو أتباع

عقيدة من العقائد ، وفى حرب العقائد تضل القوة ضلالا بعيدا ، لأنها خاسرة حتما لأن الضربات الموجهة للعقائد الحقة لا تضعفها ، وإنما تزيدها إصرارا وعنادا وصلابة ، لأن تلك الضربات دليل دامغ أنها على الحق وبرهان قاطع أن مستخدمى القوة على ضلال وخطأ .

هزيمة العقائد

ولكن قد تتغلب القوة على العقيدة ، وتهزم العقيدة ، وهذا راجع لأمور منها :

- أن القوى آمن بقوته إيمانا مطلقا ، وأصبحت القوة بمثابة دينه وعقيدته ؛ لأنها تحقق له كل ما يريده وأكثر فلم لا يعبدها ؟ وتمسكه بها يزيده قوة على مر الأيام .
- قد يتطرق إلى أصحاب العقيدة آفة قاتلة وهى قاضية عليهم إن هى استحكمت فيهم .. أنهم يتواكلون على الله ، دخلوا بإيمانهم منطقة حرجة ومنطقة خطرة ، أصبح لديهم قناعة أنهم منتصرون في كل معركة يدخلونها وكأنهم أخذوا تفويضا من الله أنهم منتصرون بغض النظر عن اتخاذ الأسباب والعوامل المؤدية إلى ذلك ، فهم قد يقررون دخول معركة مع علمهم بتفوق عدوهم ، واضعين في حسابهم عون ومساعدة ومؤازرة الله ... هذا في حد ذاته فكر عظيم ورأى صائب ، ولكن في بعض الأحيان يعتمدون في معاركهم على الجانب الغيبى ، أكثر مما يجب ، أى أنهم دخلوا المعركة بدون الاستعداد الكافى ، عون الله ومساعدته وتوفيقه يأتي بعد أن يستفرغ الإنسان كل ما في استطاعته ، ويصل إلى منطقه يعجز أن يضيف شيئا من عنده ، **والآية الكريمة :-**

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (الأنفال: ٦٠)

تتحدث عن الاستطاعة ، القدرة ، الإرادة ، التصميم ، التخطيط ، التفكير أى جمع كل الأسباب التى تهيئ النصر ، ومع كل هذا قد لا يأتى النصر وتأتى الهزيمة ... الاتجاه هنا إلى الله هو الرجاء أن يكلل كل هذا بالنصر ، ألا يخذلنا بعد ما بذلنا كل ما في طاقتنا ، وكل ما في وسعنا .

- وإلا بماذا يفعل الله بعاجزين وفى إمكانهم أن يكونوا قادرين ؟
- ماذا يفعل الله بمتأخرين ومتخلفين وفى إمكانهم أن يكونوا متقدمين ومتفوقين ؟
- ماذا يفعل الله بكسالى و خاملين وفى إمكانهم أن يكونوا مستطعين وظاهرين ؟

الحرب هنا بين مؤمنين بالله وبين مؤمنين بقوتهم ، الحرب هنا بين عقيدتين ، لأنه – كما قلنا – الطرف الآخر أصبح متمسكا بفكره تمسكا قويا وتغلغل هذا الفكر في كيانه إلى أن أصبح عقيدة . والنصر هنا لن يحكمه إلا التنظيم والمكر والدهاء والخديعة ، وما سوى ذلك فالكفتان متساويتان أو قريبا من ذلك .

" **بيد أن هذا الإيمان إذا ما قابله إيمان قوى مثله اشتد الصراع وصار الفوز رهين أحوال ثانوية أدبية في الغالب كروح النظام والتفوق في التنظيم** " (١٦) .

وكأنى بأصحاب العقيدة الحقة يسألون أنفسهم عقب كل هزيمة يتعرضون لها مندهشين متعجبين – وأحيانا – ناقمين ، كيف نهزم ونحن مؤمنون وموحدون؟ وكيف ينتصرون وهم كفار ومشركون ؟

وغاب عن أذهانهم أمور منها : أن النصر والهزيمة سنن تجرى على الأمم والشعوب ولا أبالغ إذا قلت إنها سنن طبيعية ، فلا ثبات على أمر ولا استقرار على حالة وإن أى هزيمة هى مرحلة من المراحل التى تتعرض لها الأمم وفى استطاعة الأمم القوية أن تحول الهزيمة إلى نصر .

أن الصراع هنا ليس صراعا محدودا بزمان أو مكان ، الصراع هنا دائم ما دامت السماوات والأرض ، قد يكون هناك فترات سلام ، اتفاقات ، تعهدات كل هذه الأمور لاتغير من حقيقة هامة أن الصراع سمة من سمات الوجود الإنسانى بل هو ركيزة من الركائز الكونية ، فلا يطمع أحد أن يعيش في حالة استرخاء أو اطمئنان أو أن يسود العالم الود والمحبة ، كل أسباب الحرب موجودة في كل زمان ومكان معلنة أن الصراع دائم ومستمر .

جانبا العقيدة

في بعض الأحيان تصاب العقيدة بالتكلس أو الجمود ، وتتغلب القوة المحافظة في العقيدة على القوة المتطورة والمتجددة . فأى عقيدة من العقائد لها جانبان ، جانب محافظ متمسك بحرفية وظاهر نصوصها ، وجانب متجد ومتطور يطبق نصوصها بمرونة موائما بين متطلبات الواقع المتغير والحياة المتجددة وروح النص العقائدى .

والمفروض أن يكون هناك تعادل أو توازن ما بين الإتجاهين ، العجيب في الأمر أن الجانب الثابت أو المحافظ في العقيدة محدود ولكنه القوى والأغلب والجانب المتجدد هو الأرحب والأشمل ولكنه الأضعف ، **وهذا يرجع إلى** :

- قدسية الثابت والمحافظ يفرض سلطانه على الجانب الآخر ويصبغه بصبغته .
- الشعور بالحرج في وضع الثابت في إطاره المحدود ، فتلك المحاولة قد ينظر إليها بنوع من الشك أو الريبة وقد يتهم من يحاول ذلك .
- عدم توافر الجرأة والشجاعة – في كثير من الأحيان – لاعطاء المتغير مساحته الحقيقية .
- في أحيان كثيرة تم استخدام الجانب الثابت في العقيدة من قبل السلطة الزمانية لتحقيق أهدافها ، وتم توظيف هذا الجانب توظيفا تعسفيا للمحافظة على كيانها وبقائها ، وهي – السلطة – تستمد مبررا لبقائها واستمرارها حينما لا تجد مبررات عملية أو عقلية أو منطقية لاستمرار سيطرتها وهيمنتها على المجتمع أو البشر ، تلك السلطة بمرور الوقت كونت وشكلت وصاغت تراثا أو مفردات أو تعبيرات موازية لما في العقيدة من ثوابت ، وإن لم تكن من صلب العقيدة إلا أنها تتمتع بما في العقيدة من رهبة وقدسية .
- أصبح الثابت يمثل السلطة والسيطرة والتحكم وكل الأشكال الاستبدادية والمتغير يمثل التمرد والدعوة إلى الثورة والتغيير .

خطأ أنصار العقيدة

حينما يهزم أنصار العقيدة بأى صورة من صور الهزيمة فالأمر في حاجة إلى المصارحة إلى المراجعة إلى المكاشفة . هناك خطأ ما ، أو قصور أو عجز في العلاقة بين مؤيدى أو أصحاب العقيدة والعقيدة نفسها .

والعقائد لا تهزم ، فحينما تكون العقيدة مصدرها السماء ، وشهد الماضى وملايين من البشر لها ، واستطاعت أن تلامس أنصارها وتخلقهم خلقا آخر ، وتسمو وترتقى بهم إلى درجات عليا من التقدم والتطور ، ولديها من الخطط والمشاريع وسداد الحكم ما يجعلها تهدى الإنسانية إلى أصوب الطرق .... إذا كان هذا حادث فمن الخطأ أن نشكك في تلك العقيدة .

"وتقوم قوة المعتقدات التى لا تقاوم على أنها العامل الوحيد الذى يستطيع أن ينعم على الأمة بوحدة مطلقة من المنافع والمشاعر والأفكار حينا من الزمن وهكذا تقوم الروح الدينية دفعة واحدة مقام تلك المتراكمات البطيئة الموروثة الضرورية لتكوين روح الأمة ، أجل ، أن الأمة التى يهيمن عليها المعتقد لا تغير مزاجها النفسى ، غير أن جميع ملكاتها تتوجه بذلك إلى غرض واحد تتوجه إلى نصر معتقدها ، فتصبح قوتها هائلة لهذا السبب ، وفي أدوار الإيمان التى تتحول ذات حين تقوم الأمم بتلك الجهود العجيبة ، تقوم بشيد الدول التى تدهش التاريخ ، ومن ذلك أن بعض القبائل العربية التى اتحدت بفعل محمد قهرت في قليل سنوات أمما كانت لا تعرف منها حتى الأسماء ، فأقامت إمبراطورية واسعة " (١٧) .

إذن الخطأ في المؤيدين والأنصار ، ولكن من أين يأتى الخطأ ؟ أهو خطأ في التفسير أو التأويل أو الفهم ؟ أو هو نوع من العجز والقصور أن يرتفع الإنسان إلى مستوى العقيدة ؟ أم هما الاثنان معا ؟

ربما يكون الأمر الأول ونتج عنه الأمر الثانى، فكما قلنا إن العقيدة لها جانبان الثابت والمتغير، وحينما يأخذ الإنسان جانبا واحدا ويترك الآخر ويصوغ واقعه ووجوده طبقا لمعطيات الثابت في العقيدة – مثلا – فإن هذا في حد ذاته خطأ في التفسير والتأويل والفهم، فهو بهذا قد بطر أو شطر العقيدة شطرين، والعقائد ليست انتقائية تختار ما تشاء وتترك ما تشاء، فإما تأخذها ككل كما هى أو تتركها كما هى، والأمر ينطبق على الجانب المتغير.

- ولست أدرى لم يكون لكل جانب أنصار ومؤيدون ؟
- ولست أدرى لم يكون هناك حرب أو عداء بين مؤيدى كل جانب، ويصل العداء والحرب بأن يحكم أنصار كل جانب على الآخر بالجهل والمروق والتفريط، مع أن الاثنين يمثلان جانبين لعقيدة واحدة. ولا بقاء ولا قيام للعقيدة بدون هذين الجانبين.

وفى أوقات قليلة ونادرة يتغلب الجانب – أو يسود وينتشر – المتغير على الجانب الثابت ... ولكن في أغلب الأوقات وفى الأعم كانت الغلبة والسيادة للجانب المحافظ والثابت.

والفكر الإنسانى قد يجنح إلى الشطط والمبالغة، لذا فهو يشعر بالرضا والقناعة إذا قام بدوره في المحافظة والصيانة، لا سيما إذا كان هذا الشئ يتطلب منه ذلك؛ لأنه مقدس وبالأخص وإن تلك المهمة من اليسر والسهولة بمكان، فهي لا تكلف أصحابها سوى القيام بدور الحارس الأمين، فهو يعتبر أن ما بيده أمانة لا يجوز تبديلها أو تغييرها، أو حتى فتحها والاطلاع عليها ... كل مهمته تنحصر

في أمرين ، التسلم من الأجيال السابقة ، والتسليم للأجيال اللاحقة ، مع التأكد من وجود الأختام ، وأن الأقفال محكمة الغلق !!

الحارس ليس له حق

هذا الانتقال من كون الإنسان صاحب عقيدة أو نصير عقيدة إلى كونه حارس أمين يعد سقطة كبرى ؛ لأن صاحب الشئ يملك حق التصرف ، أو قل حرية التصرف ، أما الحارس فليس له حق ، وبالتالى يده مغلولة عن الحرية إزاء العقيدة .

مع أن كل العقائد كانت تهدف أول ما تهدف إلى حرية الإنسان وتخليصه من القيود وتحرره من أن يرتهن قلبه وعقله لغير خالقه ، وتخلصه من أن يخضع لأحد من البشر ، وأى نص من نصوص تلك العقائد دعوة صريحة أن يكون الإنسان متجاوبا مع عصره ومع عقيدته بدون إفراط أو تفريط ، ويتحقق هذا بأن يستخدم (القياس) الفقهى فيما يخص العقيدة ، والقياس العقلى فيما يخص شؤونه الدنيوية وهذا يجنبه الزلل أو الشطط في المجالين .

" إن كل نوع من القياسين – العقلى والفقهى – يعد مطلب حياة مطلب وجود إنه يعنى أن نكون أو لا نكون ، إن وقوفنا جامدين إزاء النص ، فإن ذلك يعنى الموت والفناء والخراب ، أما إذا استخدمنا عقولنا في تأويل النص الدينى واستخدمنا القياس العقلى فإن ذلك يعنى الاستمرار والحياة ، إننا إذا كنا نقول إن الدين مطلب حياة ، مطلب وجود ، فإن ذلك يعنى بالضرورة اللجوء إلى القياس ، القياس الفقهى في المسائل الدينية ، والقياس العقلى في المسائل البشرية " (١٨) .

وفي حقيقة الأمر – وكثيرا ما يغيب عن البعض – أن العقائد ليست في حاجة إلى من يحرسها ، أو يبالغ في صيانتها ، العقائد كالنور والهواء ، كالأريج في حاجة إلى أن تنتشر وتذاع بين الناس ، تتخلل أفعالهم وتصرفاتهم ، تلامس بكل رفق ورحمة حياتهم ، وتصافح وجوههم . العقائد أنزلت للبشر ليتعاطوا معها

لتقوم المعوج ، وتصلح الفاسد وتحيى الموتى ، إذن جل عملها مع المعوج والفاسد والميت . ولكى تنفذ تلك المهمة وتصل إلى هؤلاء وتتعامل معهم لن تطالبهم بالكثير على الأقل في تلك المرحلة ، مرحلة العرض أو الإعلام ، شئ واحد قد تنبه إليه هو حقارة وتفاهة ووضاعة ما هم عليه ، التنفير لما هم فيه ، وتبصيرهم ومكاشفتهم أن هناك بديلا آخر ، حياة آخرى ، وجود مختلف عما هم عليه ... العقيدة هنا تقف على حد الصفر ، لا طلبات ولا تكليفات ولا أوامر ، ولا نواهى . وإذا تم لها ذلك تدخل في مرحلة أخرى من الفروض اليسيرة ، وإذا تم لها ذلك تدخل في مرحلة أخرى وهكذا .

سوء فهم للمقدس

مهمة حراسة المقدس ستمنع العقيدة من أن تؤدى دورها ، هى فصل بين الناس والعقيدة ، إغلاق الأبواب والنوافذ على العقيدة من أن تطل على الناس أو يطلوا عليها ، فهذا المقدس شئ حى ، بل هو باعث الحياة ، وأى فصل بينه وبين الواقع ، هو تعطيل لمهمته الأساسية وإبطال لدوره الرئيس ، فهذا التلامس بين العقيدة والناس ، هذا التعايش بين العقيدة والوجود الإنسانى في كل مستوياته هو القادر على أن يخرج أعظم وأبدع وأجمل ما في الوجود ، وهو أكبر دليل وأقوى برهان على قيومية تلك العقيدة .

ومهمة الحراسة والحفظ والصيانة لا غبار عليها في عالم ساكن ثابت وإن كانت كل العقائد ترفض هذا السكون وهذا الثبات ؛ لأنه خارج سنن الطبيعة ولكن مع ذلك قد يكون هناك مبررات لمن يقوم بهذه المهمة ، وهناك حاجة ملحة لتلك الحراسة والحفظ ، وقد تشفع المبررات والحاجة لذلك في عصر من العصور وقد لا يكون هناك ضرر كبير في ذلك .

ولكن حينما يكون هناك تحديات جسام تواجه تلك العقيدة ، والعصر يحفل بمتغيرات كثيرة ، وثمة تطور في الحياة الإنسانية والفكر بسرعة غير مسبوقة وكل شئ يتحرك إلى الأمام بخطوات سريعة ، فالاكتفاء بمهمة الحراسة والحفظ لابد أن يخلق أزمة ومأزق خطيرين .

والموقف من العقيدة ينسحب من الموقف من التراث ؛ لأن هناك ارتباط وثيق بين العقيدة والتراث ، لأنها تعتبر إحدى المكونات الأساسية للتراث – أو بعضه – تسجيل للمواقف أو التعاطى مع العقيدة ، وهذان تراكما على مر العصور ليكونا جزءا من التراث .

ولاأحد يستطيع أن يجزم أن موقف الناس أو تعاطيهم مع العقيدة في كل العصور كان سديدا أو راشدا ، فقد مرت عصور ساد فيها الجهل والظلام والتخلف العقلى والثقافى ، وانعكس ذلك على موقفهم من العقيدة وفهمهم لها ، فكل ما أفرزته تلك العصور ورد إلينا ، ولا ينبغى أن نترك له الفرصة ليشكل الوجود أو يسهم في تكوين الفكر في العصر الحاضر ، وإلا نكون مشتركين أو مساهمين – بقدر ما – في الجهل والتخلف .

" إما إذا وقفنا عند التراث لمجرد أنه تراث وحافظنا على كل ما فيه ، على الرغم مما قد نجده من بعض الخرافات في هذا الكم التراثى ، فإننا سنعود إلى الوراء ، سنصعد إلى الهاوية ، سيكون حالنا كمن يبكى على الأطلال في الوقت الذى يجب فيه أن نركز على حاضرنا ، ونتطلق فيه إلى مستقبل مشرق وضاء)) (١٩) .

والخروج من أى أزمة أو مأزق يلزمه تضحيات كبيرة ، قد لا تقدر عليها المجتمعات ، أو قد لا يكون هناك استعداد لتقديم تلك التضحيات ، فتتضاعف الأزمة ، ويشتد المأزق ، وينعكس هذا على المجتمعات بأن تضعف وتتأخر وتتخلف

وتعجز عن ملاحقة التغيرات أو مواكبة عصرها ، ولا يقف الأمر عند هذا ، فنحن في عالم لا يترك الضعيف لشأنه ، فهو نهب للأطماع ، فحالما تمتد الأيدى لتلتف حوله تستنزفه حتى آخر رمق ، عالم لا مكان فيه للضعيف ولا للذى لا يملك مصيره بيده .

ومع ذلك فإن الأمر ليس بتلك القتامة ، ولا يدعو إلى الإحباط أو الاستسلام ، فالمجتمعات والأمم قادرة على صنع المعجزات ، إذا توافرت لها عقيدة شاملة ومستوعبة للوجود الإنسانى بشقيه الثابت والمتغير .

والإنسانية تستطيع أن تسلك سبل الرشاد ، وأن تحقق السلم على الأرض وتجعل كوكب الأرض يعم فيه المودة والحب والسلام ، إذا هى اختارت أن تكون مع الله ، تستمد منه الحق والعدل والسلم .

والإنسانية - اليوم - في حاجة إلى الله عن ذى قبل ؛ لأن الأمور وصلت إلى طريق مسدود ، وتعقدت أمور كثيرة في العالم ، وسيتفاقم الوضع ، وسينحدر إلى الأسوأ ؛ لأن الإنسانية تصورت أنها تستطيع أن تدبر أمورها بعيدا عن الله وبدون تدخل من الله ، وهذا وهم مضلل ، وخطأ قاتل ، لآن التاريخ الإنسانى يخبرنا أن اللحظات التى ابتعدت فيها الإنسانية عن الله كانت لها أسوأ العواقب وأفدح النتائج ، وعانت الإنسانية معاناة مريرة وطويلة من جراء هذا البعد ، ولكن قدر الإنسانية أن الأقوى هو من يظن أنه ليس في حاجة إلى الله ، فالقوة بالنسبة بديل عن الله ، وأن الضعيف هو الذى يشعر أنه في حاجة ماسة إلى الله ، فالله بالنسبة له بديل عن القوة ، وستظل الحرب ليس بين الأقوى والأضعف ولكن بين من استغنى عن الله ، ومن استمسك بالله .

الشهادة

أشهد ألا إله إلا الله

أول شئ طلبه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من الناس حوله ، لم ؟

✓ لأن تلك الشهادة بمثابة إعادة صياغة جديدة للوجود الإنسانى بأكمله .

✓ لأن تلك الشهادة بمثابة تصور حق وصدق لما يجب أن يكون عليه الكون .

كأن الذى يحدد أو يشكل الوجود الإنسانى نوعية العلاقة المبهمة والمقدسة في نفس الوقت التى تربط بين الإنسان وما يتصوره أنه الخالق ، ... وكان يعتقد أن الذى شكل الوجود هوالخالق ، فلا حيلة للإنسان في كل ما يحدث له أو – في أحسن الفروض والظروف – أن الإنسان هو الذى يشكل وجوده وفق مقتضيات الأوامر الإلهية التى يطيعها طاعة مطلقة ، وهو يفعل كل ما يراه يتفق مع إرادة الخالق ومشيئته ، ويعرض عن كل ما يخالف إرادة خالقه .

وفى كلا الأمرين الذى يشكل الوجود ويحدد تحركات وأفعال الإنسان في الحياة وعلاقته مع كل من حوله هو الخالق .

وعلى قدر وضوح تلك العلاقة واستقرارها الحق في ضميره ومدى سيطرتها الكاملة على نوازعه ، على قدر تأثيرها في تشكيل حياته ووجوده . وهى – الشهادة أشهد ألا إله إلا الله تستدعي من الإنسان أمورا يبنى عليها حياته .

- الإرادة .. فهو الذى سيقولها بصفة فردية ، بصفة ذاتية ، لا يتولى أحد عنه قولها .
- الحرية .. لا إجبار ؛ لأنها لابد تنبع من داخل الإنسان ، عن اقتناع قلبى وعقلى كاملين

- المسئولية ... وتستتبع نوعا من الالتزام نحو من شهدت له ، سأفعل كل ما يأمر به ، وسأنتهى عن كل ما ينهى عنه ، لذلك كانوا يقفون عندها مليا مفكرين متأملين واعين مدركين ماذا تعنى الشهادة .

بمثابة شرط ملزم .

بمثابة عهد مقدس .

اتفاق ربانى لا تنفصم عراة بين طرفين .

اللّه ..... والمسلم .

ولا يتسمى الإنسان بهذا الاسم إلا بعد النطق بالشهادة ، وتعنى التسليم الكامل من الطرف الثانى للطرف الأول أن ينفذ كل ما يأمر به تنفيذا كاملا بدون تردد أو استثناء ، والأمر لا يقتصر على أوامر تطاع على أى صورة من الصور ، ولكنها أوامر من شأنها أن تعيد تكوين أو تغيير أو تصحيح أو تقويم وجود الإنسان من الأساس .

والمادة اللغوية لـ (سلم) توضح ذلك :

- سلم من الآفات ونحوها سلاما وسلامة : برئ ، وأهم آفة المسلم برئ منها هى آفة الشرك .
- و (أسلم) انقاد ، والمسلم منقاد انقيادا كاملا لمشيئة اللّه .
- و (الإسلام) إظهار الخضوع والقبول .
- و (السلام) الأمان والصلح .
- و (والسلم) ما يصعد عليه إلى الأمكنة العالية . وكأن الإسلام نوع من الترقى والسمو ؛ ليصل إلى هدف الأهداف وغاية الغايات وهو الشهادة بوحدانية اللّه .

" تأمل شهادة لا إله إلا الله التى هى الشرط الأول في إسلام من يسلم تأملها جيدا تجدها منطوية على أكثر من مفتاح يؤدى بقائها عن إيمان بصير إلى ذلك الاتساق الذى شخصه في رؤية تخلو من صراع دوافعه الباطنية بعضها مع بعض فمن ناحية تتضمن الشهادة إثباتا من الفرد لوجود ذاته حقيقية قائمة برأسها وذلك بقوله : ((أشهد)) وتتضمن إلى جانب ذلك إقرارا من تلك الذات بوجود ذوات أخرى سواها فليست هى واحدة وحيدة بل فرد من جماعة وإنما هى تلك الجماعة التى يشهد لها أمامها ثم تتضمن إيمان الذات الناطقة بالشهادة إيمانا بألا إله إلا الله تلك ناحية وناحية أخرى بما يريد منا أن نتأمل الشهادة في عمق أنما بدأت بالنفى لتعقب عليه بالإثبات فأولا لابد لمن آمن بالله أن يمحو من نفسه كل من عداه ؛ فالشاهد يبدأ شهادته بألا آلهة أخرى هناك حتى إذا ما أيقن بذلك أعلن إيمانه بالله ولهذا الترتيب الذى ينفى الباطل أولا ثم يؤكد الحق قوة منطقية تعين الإنسان على التخلص مما قد يعرقل سيره الثابت المطمئن ومن هنا رأينا مناهج البحث العلمى تجعل الخطوة الأولى في طريق البحث إزالة الأراء أو النظريات الخاطئة وذلك بتفنيدها وبيان أوجه الخطأ فيه ثم تعقب على ذلك بإقامة ما هو صحيح وذلك يشبه تحطيم الأصنام أولا ثم الدعوة إلى الحق الأحد ثانيا "[٢٠].

أهمية الشهادة

ولأهمية الشهادة بالوحدانية ، تولى الله إعلامها والملائكة بعد ذلك والصفوة من البشر وهم أولو العلم .

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ  ﴾ (آل عمران: ١٨)

فكل ما خلق الله يدل دلالة لا غموض فيها ولا لبس على أنه الواحد الأحد وأن هذا الملك لا شريك له فيه ، فالسماء وما يسبح فيها والأرض وما يوجد فيها يدل على عظمة وبديع وقدرة ووحدانية الله ، وقد أيدت الملائكة تلك الدلائل حينما عاينتها ، وشهد أولو العلم بتلك الوحدانية . لأن ما حصلوه من علم يصل بهم إلى درجة اليقين بوحدانية الله :

" قال أبو عبيدة : معنى شهد الله قضى الله أنه لا إله إلا هو ، وحقيقته علم الله وبين الله لأن الشاهد هو العالم الذى يبين ما علمه فالله قد دل على توحيده بجميع ما خلق ، فبين أنه لا يقدر أحد أن ينشئ شيئا واحدا مما أنشأ ، وشهدت الملائكة لما عاينت من عظيم قدرته وشهد أولو العلم بما ثبت عندهم ، وتبين من خلقه الذى لا يقدر عليه غيره وقال أبو العباس شهد الله بين الله وأظهر " (٢١) .

والشهادة تتضمن نفى قاطع وشامل لكل ما يتصور أنه إله وإثبات حازم وحاسم لوجود الله الحق . والشهادة إعلان صريح على قيام وبداية وبزوغ عالم جديد يتسق ويتفق في أسسه وركائزه مع الكون الواسع هذا العالم قائم على الحرية والعدل والإيمان الذى يجعل للوجود الإنسانى عمق ومعنى ومغزى .

فتح طريق بيننا وبين الله .

إقامة علاقة قوية دعائمها الثقة في رعاية وحفظ وحب الله .

فإذا قررنا أن نعيش في هذا العالم فنحن لنا شخصيتنا وهويتنا وفكرنا الذى يميزنا ويخلق لنا خصوصية مفتوحة على العالم حولنا .

" .. ولكن العبرة في أن يتحول لفظ (الشهادة) إلى عالم من المعانى الحية نعيشها بعقول مدركة ، فلو أننا جعلنا من كلمات الشهادة أبوابا نفتحها لندخل في الرحاب الفسيحة التى وراءها لألفينا أنفسنا في تيار دافق من معان تتضافر ويتسق حتى ينشأ من دعائمها بناء فكرى كامل متفرد بخصائصه وعندئذ يتاح لنا أن نقول : هذا بيتنا الذى ينبغى أن نعيش في كنفه فإذا نحن بين أهل الأرض أصحاب بيت أصيل " (٢٢).

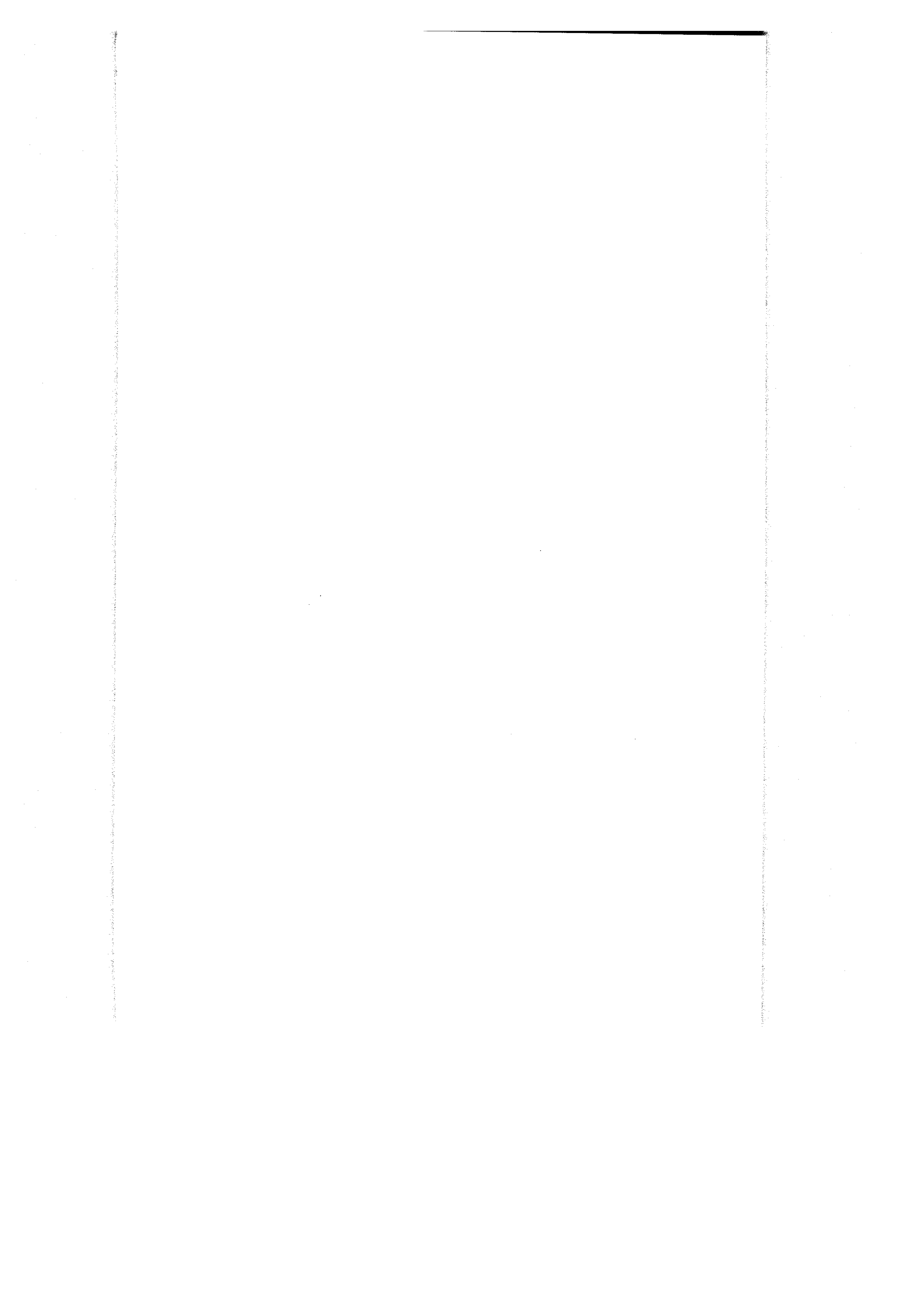
تلك الشهادة لا رجعة فيها ولا نقض لها أبدا ؛ لأن لا رجوع إلا عن باطل ولا نقض إلا لفاسد ، وكأنها صبغة لا تزول ، وختم لا يتبدد . وكيف الرجوع وقد

اعترفت اعترافا حرا وبكامل إرادتك وباقتناع صادق ، وأنت مسئول مسئولية كاملة وفى تمام عقلك ووعيك .

إنه قرار من أخطر القرارات وأهمها التى يتخذها الإنسان في حياته كلها لا يقرر بعقله فحسب أو بقلبه ، إنه يقرر بكل كيانه أن ينسلخ من وجود ليدخل وجودا آخر .

((**لا إله**)) نفى قاطع ألا عالم ، وألا وجود وألا خالق ، ((**إلا الله**)) إثبات مطلق للعالم الذى أبدعه الله ، والوجود الذى أوجده الله ، والخلق الذى خلقه الله .

كل شئ في هذا الكون يستند استنادا صريحا وصادقا إلى الله وليس لأحد غيره ، وحينما كان المسلم في العهد الأول يقولها ، فإنه كان يودع عالما ويلج عالما جديدا ، أساسه الإيمان بالله الواحد الأحد .



المراجع

(١) الله - عباس محمود العقاد- صفحة (٢٣٤ ، ٢٣٥) .

(٢) الفلسفة القرآنية - عباس محمود العقاد - (٢٧) .

(٣) أفكار ومواقف - د/ زكى نجيب محمود - (٢٥٩) .

(٤) تفسير الكشاف - المجلد الأول - صفحة (٣٩١) .

(٥) تفسير المنار - الجزء الثالث - صفحة (٤٦) .

(٦) تفسير الكشاف - الصفحات (١١٢، ١٢٣ ، ١١٤، ١١٦) .

(٧) تفسير المنار - الجزء التاسع - صفحة (١١١) .

(٨) المذهبية الإسلامية والتغيير الحضارى . د/ محسن عبد الحميد (٨٨- ٨٩) .

(٩) عقائد المفكرين - عباس محمود العقاد - صفحة (١٨) .

(١٠) تفسير الكشاف - المجلد الرابع - صفحة (٢١) .

(١١) التفسير الوسيط - صفحة (١٦٤١) .

(١٢) تفسير المنار - الجزء العاشر - صفحة (٥٧) .

(١٣) لسان العرب - صفحة (٢٧٥٦ و٢٧٥٧) .

(١٤) السنن النفسية لتطور الأمم - جوستاف لوبون - صفحة (١٥٧) .

(١٥) السنن النفسية لتطور الأمم - صفحة (١٤٨) .

(١٦) المرجع السابق - (١٤٨) .

(١٧) المرجع السابق - (١٦١) .

(١٨) مقال (ابن رشد فيلسوف العقل والاستنارة) د/ عاطف العراقى - مجلة العربى الكويتية - العدد (٥٧٥) صفحة (١٤٥) .

(١٩) المصدر السابق – صفحة (١٤٦) .

(٢٠) قيم من التراث – د. زكى **نجيب محمود** – صفحة (١٠٢-١٠٣) .

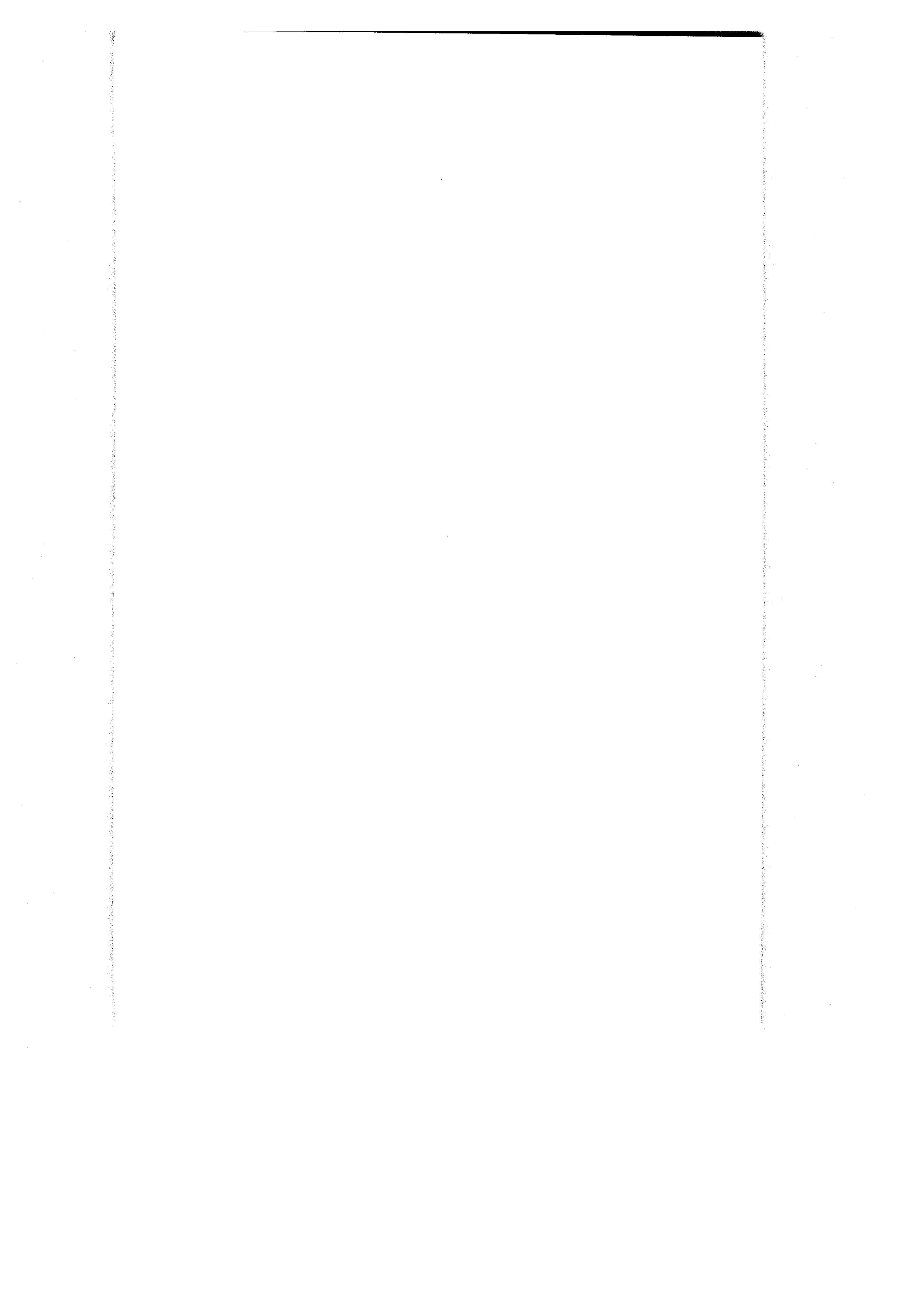
(٢١) لسان العرب – صفحة (٢٣٤٨) .

(٢٢) أفكار ومواقف – د. زكى **نجيب محمود** – صفحة (٢٥٧).

الباب الثانى

العـــقــل

والظروف والأحوال التى نعيشها في عصرنا هذا تحتم على المسلم أن يكون العقل هاديا ومرشدا له في كل مجالات حياته المختلفة حتى في مجال العقيدة ، ولن يتأتى له ذلك إلا إذا وثق ثقة كاملة في العقل ومنحه الحرية الكاملة ليبنى ويؤسس ما يبنيه ، ويعلى ويقوى ما يعليه . فالعالم من حولنا يعلى من شأن العقل ، ويصل الأمر إلى تقديسه ، وإن كانوا قد حجروا عليه الدخول في منطقة الإيمان ، وطمسوا جانبا عظيما من جوانب هذا العقل ، وهو الجانب الإيمانى ، وقصروا مهمته على ما يريدون ويشتهون ، و لكن تبقى الحقيقة ساطعة .... ألا خلاف بين العقل والإيمان .



مفهوم العقل ......وظائفه

نستخدم كلمة (عقل) كثيرا في كتابتنا وأحاديثنا ، والأهم أننا نبنى على تلك الكلمة كثيرا من الأبنية الفكرية والتصورات العقلية ، إذن نحن نعتبرها أساسا أو قاعدة أو بداية ، لذلك فمن الأهمية أن نوضح معنى هذه الكلمة ، ونكشف بعض الغموض ، أو نزيل بعض الالتباس عن هذا الأساس الهام .

ففى (المعجم الوجيز) :

- (**عقل**) : أدرك الأشياء على حقيقتها .
- (**العاقل**) : المدرك .
- (**العقل**) ما يكون به التفكير والاستدلال وتركيب التصورات والتصديقات ويتميز به الحسن من القبيح والخير من الشر والحق من الباطل .

وفي (لسان العرب) :

- (**العقل**) الحجر والنهى ضد الحمق .
- **رجل عاقل** : وهو الجامع لأمره ورأيه . مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه ، وقيل العاقل : الذى يحبس نفسه ويردها عن هواها .
- والمعقول ما تعقله بقلبك .
- **والعقل** : التثبت في الأمور.

والعقل : القلب ، والقلب : العقل .

وسمى العقل عقلا لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك أى يحبسه .

وقيل : العقل هو التمييز الذى يتميز الإنسان من سائر الحيوان .

ويقال لفلان قلب عقول ولسان سئول ، وقلب عقول فهم .

نلاحظ أن التعريفات قد خلطت أو لم تفرق بين مفهوم العقل ووظائفه أو أنها اعتبرت أن مفهوم العقل لا يكتمل ولا يتضح إلا من خلال تلك الوظائف أو المهام التى يؤديها العقل .

على أية حال فإن التعريفات تقودنا إلى ما يلى :

- أن العقل خاصية أو ملكة ، من خلالها يدرك الإنسان حقيقة الأشياء .
- أداة أو آلة تمكن الإنسان أن يفكر ، وبعض صور التفكير : الاستدلال التركيب ، التفكيك ، التمييز
- تلك الخاصية أو الملكة ينفرد بها الإنسان دونا عن بقية المخلوقات .
- قد يطلق على القلب العقل ، وعلى العقل القلب وكأنهما مترادفان .
- كل التعريفات تعريفات عملية ، لا يوجد تعريف للعقل وهو ساكن جامد ... فالعقل فعل وحركة ... انتقال .. استدلال ... استنتاج ... تقدم ... استرجاع ... وكأن السكون والجمود هو موت محقق للعقل ، أو هو نفى قاطع لوجوده .

" فهو الحركة التى انتقل بها من شاهد إلى مشهود عليه ، ومن دليل إلى مدلول عليه ، ومن مقدمة إلى نتيجة تترتب عليها ، من وسيلة إلى غاية تؤدى إليها تلك الوسيلة ، وأهم كلمة في هذا التحديد هى كلمة (حركة) فإذا لم يكن انتقال من خطوة إلى خطوة تتبعها فلا عقل ، إذا أدركت شيئا دون أن تنتقل من هذه الحالة الإدراكية إلى حالة تليها وتتوقف عليها فلا عقل . واختصارا ، فإن حدود ((العقل)) هو أن ينتقل الإنسان من معلوم إلى مجهول ، من مشاهد إلى غائب من ظاهر إلى خفى من حاضر إلى مستقبل لم يحضر بعد أمام البصر ، أو إلى ماضى ذهب وانقضى ، ولم يعد مرئيا مشهودا ، ومن ثم كان العقل هو الذى يتعقب الحدث إلى أسبابه أو إلى نتائجه ، في الحالة الأولى يكر راجعا من الحدث الظاهر إلى علة حدوثه وقد اختفت وفي الحالة الثانية يتشوف المستقبل قبل حدوثه مرتكزا في ذلك على الحادث الماثل في لحظته الراهنة " (١) .

وظائف العقل

إذن العقل له وظيفة ، أو له مهمة ، ووجوده أو عدم وجوده متوقف على أداء تلك المهمة ، وتنحصر تلك المهام في :

- الإدراك : إقامة علاقة من نوع ما بين العقل والشئ المدرك ، علاقة إحاطة من خلال تسجيل دقيق لأوصاف هذا الشئ ، بحيث يخلق له ذاتية تميزه وتخصصه عن ملايين الأشياء التى تم إدراكها أو يدركها أو سيدركها في المستقبل ، وأرشفة المدرك ، أى وضعه في أرشيف العقل بحيث يتم استدعاؤه في الوقت الملائم والمناسب إذا دعت الضرورة لذلك .
- الإدراك ليس ترفا عقليا ، ولكنه بداية طريق يترتب عليه تحصيل علم ، فهذا الشئ المدرك له مغزى أو دلالة أو نتيجة يتوصل إليها ، فإذا كان ما تم إدراكه أثراً فهناك مؤثر ، وإذا كان هناك مخلوق فهناك خالق ، ويستطيع العقل أن يقيم علاقة تخيل أو تصور استنادا على الحاضر أمامه للغائب عنه ، ومن ظاهر إلى خفى ، وينساب ويكر راجعا إلى الماضى كما إنه يستطيع أن يقفز إلى المستقبل ، فهو يملك حرية الحركة في المكان والزمان .
- التغيير : العقل لا يعمل في خلاء ، يلزمه مادة خام ، كأى صانع يجسد من خلالها ذاته وتعكس تلك المادة عبقرية ذلك العقل ، وهذه المادة الكون ولا أقصد بالمادة المعنى الحرفى أو المعنى الواقعى ، وإنما أقصد المجال الذى يجد العقل فيه عمله ودوره ، ولكن إذا كنا نقصد الكون بمعناه الواسع فإن العقل جزء من هذا الكون ، فأنت لا تستطيع أن تفصل الكون عن العقل ولا العقل عن الكون ، ومع ذلك فهناك تميز أو فارق بين الكون والعقل

أن العقل يستوعب الكون ، والكون مستوعب ، العقل يعى الكون ، والكون هو موضوع هذا الوعى .

- **ومسألة الوعى تلك** (**وعى موضوع ما**) لن تتسنى للعقل إلا بعد أن يعقل ذاته ، ثم بعد ذلك ، أو في نفس الوقت الذى يعقل فيها ذاته يتم فيها وعى ما حوله ، وتلك المعرفة أو الوعى هى نوع من التغيير ، من المجهول إلى المعلوم .
- " العقل وهو في حالة فعل يستلزم فاعلا ومفعولا وبالتالى فإن العقل ينطوى على إحداث تغيير ، ومعنى ذلك أن العقل وهو في حالة فعل يستلزم طرفا آخر يحدث فيه تغييرا وهذا الطرف الآخر هو الكون ، ومعنى ذلك أن العقل موجود في - في الكون ، ومع ذلك وأن كان العقل في الكون إلا أنه مجاوز للكون بمعنى أن العقل قادر أن يعى ذاته إذن قدرة العقل على الوعى بذاته - في الوقت نفسه - قدرته على الوعى بالكون ، ووعى العقل ب الكون يعنى فيما يعنى أنه قادر على معرفة الكون " (٢).

العقل مبدع علاقات بين جزئيات أو عناصر الكون من ناحية ، ليجعل منها منظومة متناسقة فيما بينها ثم يقيم علاقة بينه وبين تلك المنظومة المتكاملة من ناحية أخرى .... فإذا كان الكون حوله عناصر مشتتة لا رابط بينها ، فإنه لا يستطيع أن يتعامل مع هذا الشتات إلا بعد أن يجمع بينه في علاقات ، هذه العلاقات تجعل الكون حوله كلا متكاملا له معنى وله غاية وهدف ، حينئذ يستطيع العقل أن يتعامل مع هذا الكون أو الواقع الذى أبدعه من خلال إيجاد العلاقات المنطقية التى تتفق ونظرته وتصوره ... لذلك فالعقل لا يقف موقفا سلبيا إزاء الواقع وإنما ينظمه بمنطقه ، ينسقه ، بمنهجه ... على هذا فإن العلاقة التى تربط العقل

بالواقع هى علاقة متغيره بصفة مستمرة ، نامية ، متطورة ، ونستطيع أن نصف هذا الواقع المبدع إنه عقلانى في أساسه إنسانى في طابعه .

" **إن العقل لا يدرك الوقائع من حيث هى وقائع وإنما يدركها من حيث هى في (علاقة) مع بعضها وفي (علاقة) مع العقل ، وحيث أن العلاقة لا وجود لها في العالم الخارجى فهى إذن من العقل ومعنى ذلك إن المعرفة العقلية ليست بجرد ((وصف)) للواقع ، وإنما هى ((تأويل))للواقع ، بيد أن هذا التأويل ليس بجرد تأمل نظرى وإنما هو مرتبط بالممارسة العملية حيث إن ما هية الإنسان تكمن في تغيير الواقع ومن ثم فإننا نعرف العقل بأنه((ملكة التأويل العملى المجاوز للواقع)) وهذا التعريف يعنى أن ثمة علاقة بين العقل والتأويل والتغيير))** (٣).

على هذا فإن أى واقع يتسم بالجمود والثبات فإنه واقع غير عقلانى ويرجع هذا إلى حدوث فصل بين الواقع والعقل عن عمد أو إهمال أو كسل أو استخفاف بدور العقل وأهميته في تنظيم والارتقاء بالواقع . أو تخدير وتقييد وتعجيز العقل من خلال إقحامه في (**وهم**) على أنه واقع بغية إكساب هذا الواقع نوع من الواقعية ، أو درجة من المصداقية ، من خلال موافقة العقل له ، حينئذ يدرك العقل أنه قد ضلل به فيعلن انسحابه ، لأن المعروض أمامه نوع من الزيف أو صورة من صور الباطل ، والعقل لا يستطيع أن يتعامل إلا مع الصدق والحقيقة .

تنوع وظائف العقل

نخطئ إذا اعتبرنا أن للعقل وظيفة واحدة ، ونخطئ كذلك إذا حسبنا أنه يؤدى وظائفه على مستوى واحد أو على وتيرة واحدة .... فهو يدرك ، ثم يتأمل فيما أدركه ، وهذا التأمل يقوده إلى جامع يجمع ما وصل إليه من خلال الإدراك وهو الحكم ، وإذا وصل إلى مجموعة من الأحكام التى تربط الكون في منظومة متسقة مع كل عناصر هذا الكون بما فيه هو ، فقد وصل إلى مرحلة الرشد

وهذه المرحلة أو الوظيفة هى محصلة الوظائف السابقة عليه أو هى الغاية الكبرى أو المرحلة النهائية في صورة من صور تكامل العقل أو تمامه .

" ومن خصائص العقل أنه يتأمل فيما أدركه ويقلبه على وجوهه ويستخرج منه بواطنه وأسراره ويبنى عليها نتائجه وأحكامه وهذه الخصائص في جملتها تجمعها ملكة « الحكم » وتتصل بها ملكة الحكمة ، وتتصل كذلك بالعقل الوازع إذا انتهت حكمة الحكيم به إلى العلم بما يحسن وما يقبح وما ينبغى له أن يأباه ، ومن أعلى خصائص العقل الإنسانى « الرشد » وهو مقابل لتمام التكوين في العقل الرشيد ووظيفة الرشيد فوق وظيفة العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم لأنها استيفاء لجميع هذه الوظائف وعليها مزيد من النضج والتمام والتمييز بميزة الرشاد حيث لا نقص في الإدراك وقد يؤتى العقل الوازع من نقص في الحكمة ولكن العقل الرشيد ينجو به الرشاد من هذا وذاك " (٤) .

الوعى يتحدى

ما نقوله على وظائف العقل هو نوع من التبسيط في أدنى صوره ؛ لأن العقل يؤدى وظائفه على صورة أعقد مما نتصور ، وأى محاولة للاقتراب أكثر لاستكشاف كيفية عمله مقضى عليها بالإخفاق ... فكما قلت إن العقل لا يتجسد وجوده إلا من خلال تأدية وظائفه ، إذن يجب دراسة العقل أثناء تأدية تلك الوظائف ، فهو في حركة مستمرة ، لذلك يصعب إخضاعه للبحث والدراسة ؛ لأن دراسة أى شئ تستدعي ثباته واستقراره ، وأيسر شئ في وظائف العقل - وكل وظائفه معقدة- الوعى ... فياترى أى فرع من فروع العلوم يستعان بها لدراسة الوعى ؟

وكيف سنحقق « الموضوعية » ؟ وكيف سنجرى التجارب ؟ لاحظ أن الوعى إنسانى من ناحية ، وذاتى من ناحية أخرى .

على هذا فأن الفلسفة والعلوم التطبيقية منها والنظرية عجزت عن دراسة الوعى ، والخروج بأى توصيف قاطع ونهائى للآن ... وهذا جانب بسيط من وظائف العقل ، فكيف بنا ودراسة العقل نفسه ؟

" أحد أشباح الفلسفة الحديثة للعقل هو الوعى ، فإذا فقط نحن البشر غير واعين ، فإن الأشياء في فلسفة العقل كانت ستغدو أكثر سهولة وسلاسة إن ((خطة اللعبة)) الفلسفة الشائعة ل ((تطبيع)) العقل ب ((اختزاله)) إلى الشروط التى يمكن أن تتحقق والتى يمكننا أن نفسرها بحيادية وطيب خاطر بلغة البيولوجيا أو الفيزياء سوف تصبح ظاهرة جديرة بالتصديق ، لكن كل فلاسفة العقل وكذلك المنخرطين في علوم المخ كان عليهم أن يقرروا أننا جميعا نرتبك بالكامل عن طريق الوعى فلا يوجد أى عالم بدأ حتى الآن في فهم كيف قد تطور الوعى مثلا ، أو كيف ينبثق هذا الوعى أو يبزغ وكيف يحتفظ به في أنواع معينة من العمليات المخية دون بقية العمليات .

وإذا نظرنا من زاوية أخرى ، فإن الوعى يفسد أو يثير زوبعة في بحر الهدوء والسكينة الذى نطلق عليه اسم ((الموضوعية)) لكن الموضوعية مقصود بها هذا الأجراء أو الخطوة من أجل الحصول على المعرفة وهذه الحالة من اكتساب المعرفة التى تربطها بالخطوات أو الإجراءات والبيانات الخاصة بـ(العلوم الصلبة) مثل الفيزياء والكيمياء فخطواتها أو إجراءاتها وبياناتها (موضوعية) لأن الخطوات تتضمن تجارب أو ملاحظات تجريبية وعامة وقابلة للقياس من الناحية الرياضية وقابلة للاختبار عن طريق المزيد من التجربة أو الملاحظة ومن ناحية أخرى فإن الوعى يوجد فقط على أنه تيار خاص من الوعى بشخص معين وأن محتوياته الظاهراتية ((الخاصة بالظاهرة)) قابلة للمعرفة المباشرة فقط من هذا الشخص أى أن الوعى ذاتى أو شخصى في كل شكل الوجود والطريقة التى يمكن أن يعرف بها ، فالوعى يربك تساؤلاتنا الموضوعية بذاتيته الحقيقية والفعلية)) (٥) .

نحن نعي .. وعلى ثقة كاملة بمقدار عظمة هذه الميزة التى تميزنا .. ولكن كيف حدث هذا ؟ وكيف يحدث ؟ وما يمكن أن يقودنا إليه الوعى ؟

وهل في إمكانية العقل أن يؤدى هذه الوظيفة بصورة أرقى وأشمل وأعمق ؟

ومن أين ينشأ الوعى ؟ هل من المخ أم من الأعصاب أو من كليهما ؟

وإذا كان هذا صحيحا فكيف يتأتى لخلايا أن تنتج هذا الشئ المبهر المعجز الذى يسمى الوعى ؟

" فعند عالم وظائف الأعضاء أنتونيو داماسيو، على سبيل المثال ينشأ الوعى من التفاعل المتجدد باستمرار من إدراك الدماغ لحالة الجسد (المعلومات التى يجرى إيصالها كهربيا وكيميائيا) مع وجود ذاكرة ووظائف إدراكية عليا أخرى .. الفكرة المركزية هنا هى إن الدماغ باستمرار يحدث صورته عن حالة ككل وإن هذه العملية المعقدة هى التى تستخدم في انتاج الوعى .

وبالنسبة إلى جيرالد أيدلمان Gerald edlman الحائز جائزة نوبل . الوعى هو وظيفة للدماغ أكثر من أى شئ آخر إنه يقترح أن الوعى ينشأ من انسياب متبادل للمعلومات بين مجموعة من الخلايا العصبية يدعوها (خرائط maps) ويركز إيدلمان كثيرا على نمو الدماغ وتكوين المشتبكات العصبية . وباستخدام لغة يجب أن تذكرك بعملية التطور العضوى نفسها يقترح أن مجموعات من الخلايا العصبية تنتخب مع نضج الدماغ . ويجادل إيدلمان بأن الخلايا العصبية التى لا يجرى اختيارها لهذه الوظيفة تموت أو تختفى تماما مثل الخلايا العصبية التى تقوم بارتباط خاطئ وتقدم على الانتحار الخلوى .

أما فرانسيس كريك وزملاؤه فيضعون منشأ الوعى في الموجات عالية التردد للإشارات التى تحدث في الدماغ وبالنسبة إليهم فإن منشأ الوعى يوجد في التفاعلات المستمرة والمعقدة بين خلايا عصبية معينة وهى تفاعلات يمكننا أن نرصدها في تلك الترددات " (٦) .

كلها نظريات لم ترق إلى الحقيقة العلمية التى لا خلاف عليها ، فالموضوع يمثل صعوبة بل تحد للعلم ، ولكى يتخلص العلم من تلك الصعوبة علمن الموضوع بأن طبق عليه منهجه العلمى في البحث ، على افتراض أن الوعى شئ مادى

أو ينبعث من مادة لذلك تم الربط بين الوعى والمخ أو الدماغ ؛ لاعتقادهم أن العلاقة وثيقة بين العقل والمخ ، ولأن هذا الربط قد لا يحقق إنجازا علميا ، أو لا يصل إلى درجة كبيرة من التحقق العلمى ، فقد استبعدوا تعريف حالة الوعى في إطار العمليات المخية .

" إن حياتنا العقلية تتكون من تيار من الوعى له حالاته السائلة التى لها علاقة مباشرة بعمليات المخ ، وهذه الحالات السائلة وإن كانت متغيرة (كيمانيا وفيزيانيا وبيولوجيا لا ينبغى مع ذلك تعريفها في إطار هذه العمليات المخية " (٧) .

إذن هناك علاقة بين الوعى والمخ على اعتبار أن الوعى وظيفة من ضمن وظائف الدماغ ، وهو ينشأ من خلال انسياب متبادل للمعلومات بين مجموعة من الخلايا العصبية ، وإن هذه الخلايا العصبية أو المشبكات العصبية تستخدم لغة تذكرنا بعملية التطور العضوى . هذا رأى عالم من العلماء ، وآخر يقول إن الوعى ينشأ من خلال الموجات عالية التردد للإشارات التى تحدث في الدماغ وهى تفاعلات يمكننا أن نرصدها في تلك الترددات .

وعدد كبير من العلماء يحاولون إرجاع الوعى إلى المادة ليتمكنوا من دراسته ولكنهم لا يسمون ولا يرتفعون بالمادة إلى الوعى ، لأنهم لو فعلوا هذا لوجدوا أنفسهم مرغمين أن يعترفوا أن هناك إرادة عليا جعلت الوعى ينشأ من المادة ، لأن في اعتقادهم – لا ينشأ عن المادة إلا مادة ، أو طاقة على أى صورة من صور الطاقة وإن قالوا بمسألة الإرادة العليا فقد أخرجوا الموضوع عن نطاق البحث العلمى وإلا فليس أمامهم إلا الاعتراف بتلك الإرادة العليا ، وكما هو معلوم أن البحث العلمى لا يعترف إلا بالمادة ، أو ما يمكن أن يحقق البحث العلمى إنجازات مادية

من خلال دراسته ، وخرجوا من هذا المأزق بأن قالوا إن تلك الإرادة العليا أو القوة

نوع من التطور العضوى للخلايا العصبية وموقفهم هذا يذكر بموقف العلم من ا ـروح

وإن البشر أحاديون وليس ثمة روح أو عقل .

" أننا نحن البشر أحاديون أو مصنوعون من مجرد مادة واحدة بطريقة فيزيائية نقية وخالصة فنحن مركبون بالكامل من وحدات فيزيائية دقيقة وأجزاء مشكلة على هيئة وحدة بيولوجية معقدة . ولا توجد عقول أو أرواح هائمة " (٨) .

فهم قد رفضوا تلك الثنائية ، فالروح عندهم أو العقل صورتان راقيتان

أو متطورتان من المادة ، وعلى هذا فالوعى مادة أو صورة من صور التطور للعالم

المادى .

" لأن هذه المسألة في السيكولوجى وفسيولوجيا الأعصاب ترى الوعى كأحد منتجات أو نواتج التطور للعالم المادى الصافي أو المحض وقد يمضى معظم هؤلاء إلى مدى أبعد ويدعمون وجهة النظر التى تقول بأنه من المحتمل أن يكون الوعى نفسه ماديا صرفا وهذه هى النقطة التى عندها أتوقع أن أرى في المستقبل فلاسفة العقل يطلبون المساعدة من فلسفة العلم ، ذلك لأنه من أجل أن تجعل الزعم بأن الوعى شئ مادى زعما مقبولا ، وإن كان ماديا مثلا بالطريقة التى تكون عليها حالات المخ وعملياته فإن الفلاسفة في سبيلهم إلى أن يلجأوا إلى البحث في كيف وما إذا كان من الممكن التوسع في مفهوم المادية إلى ما وراء مجالها الحالى إن فلاسفة العلوم قد يحتاجون إلى إيجاد الأسس لوجهة نظر أكثر عمومية من تلك المطروحة حاليا لما يمكن أن يصنف تحت مصطلح ((مادى)) " (٩) .

سمة الفكر الغربى

سمة من سمات الفكر الغربى ، أنه يريد أن يعلمن كل شئ حوله أن يخضع ويفسر كل ظواهر الكون بما فيها الظاهرة الإنسانية للعلم ، ولكى يتأتى له ذلك لابد أن يكون كل شئ مادى ، أو يرجع إلى المادة ، حتى الظواهر الإنسانية من ضمير وحب وعواطف أرجعها إلى الأعصاب والتفاعل ... الحياة معمل كبير كل شئ فيه قابل للتجربة والقياس والاحصاء ، كل شئ قابل أن يعبأ في قوارير وأنابيب وقنانى ... وقد أفاد هذا النهج الفكر الغربى في ناحية ومكنه أن يحقق إنجازات لا مثيل لها في التاريخ العلمى ، **ولكنه مع ذلك سبب له ضررا من عدة نواح :**

الأولى : هذا التقدم منحه إحساسا بالغرور ، وأنه يسيطر على كل ما حوله سيطرة كاملة من التفسير والتأويل والتوظيف والاستثمار ، واصبح خاضعا لوهم أن الوجود الإنسانى هى تلك المساحة التى يصول ويجول فيها .

الثانية : سيطرة الملل والسأم ؛ لأنه بقيت مساحات كبيرة في الوجود بالنسبة له مجهولة مظلمة ... مساحات شاسعة من الوجود الثرى لم تطأها قدماه لا لشئ إلا لأن أدواته وتقنياته التى برع فيها لا تصلح للاستخدام في تلك المساحات .

الثالثة : تملكته الحيرة والقلق والإحساس بالضياع إزاء عجزه في تفسير الظاهرة الإنسانية تفسيرا شاملا مقنعا ، فليس الوجود الإنسانى هو كل ما يدرك بالحواس ، هناك الروح والعقل والضمير .. الخ ، وطالما تلك الأشياء موجودة ولا نستطيع أن ننكرها ، إذن هناك عالم آخر غير هذا العالم تنتمى إليه الروح والعقل ، ولكن الفكر الغربى شديد الفقر فيما يخص معرفته بهذا

العالم ، أو قل النهج أو الطريق الذى ارتضاه منذ البداية أبعده عن هذا العالم ومفرداته ، وقد لا ينكر وجود هذا العالم ، ولكنه في نفس الوقت لا يقر به إقرارا يتمثل في تحديد سلوكياته وأفعاله بما يتفق والإيمان المطلق بوجود العالم .

نفس موقفه من ((الله)) فإنسان هذا الفكر قد لا ينكر وجود الله ، ولكن لا أفعاله ولا أفكاره ولا سلوكياته تنبئ أن هناك إيماناً جازماً بوجود الله . فليس في يده من الدلائل والبراهين التى تعينه في إنكار وجود الله ؛ لذلك لم يغامر لينكر بدون دلائل وبراهين ، وفى نفس الوقت لم يسع ولم يخلص النية ، أو لم يشق على نفسه في تجميع دلائل تدل على وجود الله ، وكأنه يقول لنفسه يكفى ألا أنكر وجود الله فعدم الإنكار لن يغير من خططى كثيرا ، ويجعل العالم حولى مستقرا وثابتا إلى حد ما ، أما الإقرار والاعتراف الصريح بوجود الله هذا ما سيعصف بكل خططى يزيزل العالم من حولى .

حتى وإن قادهم تفكيرهم المنطقى وبحثهم العلمى الصادق – ولابد أن يقودهم – إلى اسناد الوعى إلى الله ، وهذا هو التفسير الأوحد ، وهو وحده القادر على أن يخلق من المادة الوعى والحياة ... قالوا إن هذا الوعى شئ مبهم ، أو إن الإنسان يصاب بالانغلاق الإدراكى حينما يعجز عن تفسير الوعى أو إرجاعه إلى مصدره .

" إن العقول الإنسانية ينبغى التفكير فيها على اعتبار أنها (خارج التطور) أو إنها ((من خلق الله خصوصا)) أو ((منبثقة بصورة غامضة)) حتى أن شخصا ما مثل ((سيرلى)) الذى ربما يكون راغبا في توصيف الوعى على أنه ((منبثق)) سوف لا يريد أن ينكر أنه سوف يأتى وقت ما سنستطيع فيه أن نفسر انبثاقه أو نشأته بوسائل مستقبلية تخص فسيولوجيا الأعصاب أو البيولوجيا

أو الفيزياء وقد يكون الفيلسوف الذى يقترب على الأقل من وصف بعض جوانب حياتنا العقلية كشئ مبهم غامض هو « كولين ماكجين » حينما يقول لإن القدرات المفهومية والإدراكية للبشر ربما تكون قوية إلى حد أنها سوف تعانى إلى الأبد شكلا من « الانغلاق الإدراكى » فيما يتعلق بكيفية نشأة الوعى من أنواع معينة من عمليات المخ » (١٠) .

وبدون تجرأ على العلوم وعلى الفلسفة نستطيع أن نقول إن الوعى وظيفة من وظائف العقل ، وإنه من العسير بل من المستحيل دراسة العقل ووظائفه دراسة علمية بحتة مثلما ندرس أى مادة أخرى أو تطبيق المنهج العلمى هنا ، ولا نريد أن نحجر على الفلسفة ولا على العلم ، فلتدرس الفلسفة وليدرس العلم ما يشاءان فيما يخص العقل ، ولكن ينبغى أن يوضع في الحسبان أنه يجب أن تعامل الظاهرة الإنسانية بنوع من التفرد وبنوع من التواضع ... فما نجح العلم في دراسته من خلال اتباع منهج فيه الكثير من الدقة والتغلغل والإحاطة بالمادة المدروسة ، وتوظيف تلك الدراسة في الحصول على أكبر نفع ومنفعة ، قد لا يحقق نفس درجة النجاح إذا طبقت تلك المناهج على الظاهرة الإنسانية . هنا لابد أن تحدث نقلة نوعية في المناهج والتقنيات ، لا أن نحاول بنوع من التعسف أن نجعل الظواهر الإنسانية تتوافق مع الأسلوب والتقنيات العلمية التى تعود العلماء استخدامها في كل أبحاثهم .

بنوع من التواضع

الغرور والجرأة والثقة المتزايدة بالنفس غير المبررة ، أصبحت صفات يتصف بها بعض العلماء ، أو لنقل إنها صفات يتصف بها العلم في الآونة الأخيرة ربما الذى جعلهم يتصفون بهذا – ولهم حق إلى حد ما – تلك الإنجازات والنجاحات

التى حققها العلم . ولكن مع ذلك تبقى هناك حقائق تجبر هؤلاء على التواضع وترغم هؤلاء أن يلزموا حدودهم العلمية وتحضهم على الاعتراف بأن هناك ما لا يقبل التفسير العلمى ، هناك ما هو ليس بخاضع لأدوات وتقنيات العلم ، منطقة أصل إليها فأعلن بكل صراحة ووضوح – على الأقل الآن – أن هذا الأمر فوق وخارج وأبعد وأدق من قدرة الإنسان ، وإنه – كما علمنا القرآن – من أمر الله .

المراجع

(١) نافذة على فلسفة العصر - د. زكى نجيب محمود . صفحة (١٥٨ - ١٥٩).

(٢) ملاك الحقيقة المطلقة - د. مجدى وهبة . (١٥٧) .

(٣) ملاك الحقيقة المطلقة - د. مجدى وهبة . (١٧٨).

(٤) التفكير فريضة إسلامية - عباس محمود العقاد . صفحة (٧) .

(٥) مستقبل الفلسفة في القرن الواحد والعشرين - تحرير . أوليفر ليمان . صفحة (٢٥٦) .

(٦) هل نحن بلا نظير - تأليف : جيمس تريفل ترجمة.ليلى الموسوى صفحة (١٩٧) .

(٧) مستقبل الفلسفة في القرن الواحد والعشرين (٢٤٥) .

(٨) المصدر السابق (٢٤٦) .

(٩) المصدر السابق (٢٥٨) .

(١٠) المصدر السابق (٢٦٣) .



العقل..... إيمان

هناك فهم قاصر وإدراك سطحى (للعقل) ، وهو الفهم القائم على أن العقل مجاله ما تدركه الحواس ، وبالتالى كل ما ليس بمادة فهو في حكم العدم لا لشئ إلا لأنه ليس مدرك بالحواس ولا يخضع للتجربة والقياس .

نعم إن العالم المادى مجال العقل ... ولكن من قال إن للعقل مجالا واحدا .. فالعقل يقر ويعترف بهذا المجال المادى ، ولكن في نفس الوقت يؤمن ويعتقد بأى درجة من درجات الوجود ، أو بأى عالم لا يدرك بالحواس ، ولا يخضع للتجربة والقياس ، بشرط أن يكون هناك دليل وبرهان على وجود هذا العالم .

" إن الإيمان لا يعرف الهوادة ولا يقبل الاستثناء ، ولكن الاعتقاد BELIEF هوادة وتسوية عملية يتطلع صاحبها إلى ما يغنمه الداعى إليها والمستجيب لها . إنه وسيلة في الديانات للاشتراك بين الناس في معيشة واحدة وشغل واحد باسم الله . وهذا الاعتقاد الدينى يتبع الخلاف بينه وبين العقل لأن العقل لا يساوم ولا يذعن ومن دأبه أن يتغلغل في بواطن كل شئ يعرض عليه باسم الحقيقة ، وإن الذين يضعون الاعتقاد موضع المناقضة للعقل ليفعلون ذلك عن خطأ منهم في فهم الاعتقاد والديانة والعقل يبطل الخطأ .

أن منطقهم يجرى على هذا القياس : ما نريد تصديقه مخالف للعقل ، ولكن الأمر الذى نصدقه لا يجوز أن يكون باطلا ، ولهذا ينبغى أن يصبح اعتقادا ولا يتقيد بموافقة العقل .

وعلى هذا النحو يصبح الاعتقاد مسوغا لكل هاجسة أو استمالة تحيك في نفس المعتقد .

أما الذين يرون أن الأصول الدينية تجرى مع العقل ولكنها أرفع منه وأسمى فهؤلاء يتكلمون عن الصواب أو التصويب RATIONALIZOTION ولا يتكلمون عن العقل . فإن الفكر إنما يعمل ليكون شيئا من شيئين فإما أن يعمل للامتحان وإما أن يعمل للتسويغ ، فإذا عمل للامتحان فهو العقل . وإذا عمل للتسويغ فهو الصواب والحكمة " (١) .

فالعقل يدرك ويعي حدوده ، لذلك فهو يعرف أن ما يقع في مجال إدراكه جزءا من الوجود الذى تسنى له إدراكه ، وتبقى مساحة كبيرة من الوجود لا يدركها وعدم إدراكه لشئ لا ينفى وجود هذا الشئ ، فليس من مهام العقل إدراك كل ما في الوجود ، وهنا تظهر القدرة العظيمة للعقل الإنسانى ، إنه يعى ذاته ومحدودية تلك الذات بالنسبة للوجود ، لذلك فهو يؤمن بوجود عالم بل عوالم خارج نطاق تلك الذات ، وهو بكل تواضع يطلب برهانا ودليلاً لكى يكون متسقا مع ذاته ونسيج كيانه ، وتلك نقلة أخرى للعقل أو هى ارتقاءة من ارتقاءاته العظيمة ، أو مستوى آخر من مستويات العقل أو درجة من درجاته التى يصل من خلالها إلى قمة الوعى ومن ثم ينتقل إلى الإيمان .

وهو بخس وغبن لمكانة العقل أن نحجر عليه ونمنعه بنوع من التعسف أن يدخل منطقة الإيمان ، وكأن الإيمان قائم على تعطيل العقل أو تسليم العقل بشئ تسليما لا برهان ولا دليل عليه ، والإيمان الذى لا يستند – ضمن ما يستند – على العقل هو إيمان سطحي ، هو غيمان فقير ، إيمان حائر أمام قضايا ومشكلات الوجود والواقع المتغير.

" إنما تساورنا الحيرة في مسائل الإيمان عامة من خطأ شائع يوهم إناسا من المتدينين والمنكرين أن الإيمان على الدوام تسليم بما يأباه العقل وبما يتقبله إذا تقبله – وهو مغمض العين مكتوف اليد ، يتساوى فيه النظر وترك النظر بلا اجتهاد ولا محاولة ولا موازنة بين ما يجوز وما يمتنع كل الامتناع هذا إيمان يلغى العقل ويلقى به بعيدا إلى طرف التصديق بغير سؤال ولا انتظار جواب ، فإما عقل ولا تصديق وإما تصديق ولا عقل ضدين لا يجتمعان " (٢) .

ظروف العصر والثقة بالعقل :

والمؤمن الحق هو الإنسان الذى يستفرغ أقصى جهد وطاقة لعقله ؛ لأنه يعلم أن أى جهد عقلى هو استثمار جيد لصالح الإيمان وتقوية وتعضيد له ، واثقا أن العقل سيتطابق مع الحق ويقر بالعقيدة ، ويقتنع تمام الاقتناع بالدين .

والظروف والأحوال التى نعيشها في عصرنا هذا تحتم على المسلم أن يكون العقل هاديا ومرشدا له في كل مجالات حياته المختلفة حتى في مجال العقيدة ، ولن يتأتى له ذلك إلا إذا وثق ثقة كاملة في العقل ومنحه الحرية الكاملة ليبنى ويؤسس ما يبنيه ، ويعلى ويقوى ما يعليه .

فالعالم من حولنا يعلى من شأن العقل ويصل الأمر إلى تقديسه ، وإن كانوا قد حجروا عليه الدخول فى منطقة الإيمان ، وطمسوا جانبا عظيما من جوانب هذا العقل ، وهو الجانب الإيمانى وقصروا مهمته على ما يريدون لتشكيل الوجود الإنسانى وفق ما يهوون ويشتهون ، ولكن تبقى الحقيقة ساطعة ألا خلاف بين العقل والإيمان .

" والفرق بعيد بين الإيمان الذى يلغى العقل والإيمان الذى يعمل فيه العقل غاية عمله ، ثم يعلم من ثم أين ينتهى وأين يبدئ الإيمان . . إن الإيمان هنا نتيجة لعمل العقل غاية جهده ، وليس نتيجة لإهماله وإبطال وجوده والعقل يستطيع أن يصل إلى هذه النتيجة ، فتلزمه حجة الدعوة إلى التصديق بالغيب المجهول .

والعقل يستطيع أن يعلم بضرورة الإيمان لأن إنكار هذه الضرورة نقيضة عقلية وليس بنقيضة للدين والعقيدة فحسب ولا سبيل للعقل إلى الإيمان بوجود كامل مطلق الكمال يصح أن يؤمن به غير الاعتراف بضرورة هذا الإيمان ولزومه- مطلقا - قبل لزومه لهداية الضمير فالموجود الذى يصح أن نؤمن به هو وجود كامل أبدى ليست له حدود ، والموجود الذى ليست له حدود لا يحيط به إدراك العقل المحدود .

فما النتيجة اللازمة لهذه الحقيقة التى لا شك فيها ؟
هى إحدى اثنتين ... إما إنكار جزاف وأما تسليم بحقيقة تفوق إدراك العقول .
الإنكار معناه أن سبب الإيمان الوحيد ، يكون هو السبب الوحيد لكل تعطيل " (٢)

إذا أنكر العقل الإيمان فهو يلغى أهم مساحة في الوجود الإنساني ، ويعطل إمكانيات هائلة في ذاته المفكرة .

وإذا أقر واعترف بالإيمان فهو يثرى الوجود الإنسانى بمعان وأهداف سامية ، ويعطى الفرصة لنفسه أن يصل إلى درجات عليا من الإدراك والعلم .

- ❖ ومع الإنكار خسارة وأى خسارة .
- ❖ ومع الاعتراف مكسب وأى مكسب .

درجات الوعى :

ونستطيع أن نقول إن العقل كيان وهب الوعى الذاتى ، فهو يعي ذاته وبالتالى يعى كل ما ينعكس أو ينطبع أو يؤثر فى ذلك الكيان ، يعي ذاته ويعى العالم حوله ، ويستطيع أن يرتقى فى هذا الوعى ليعى ما حوله وعيا موضوعيا غير متلبس بذاته ، والوعى درجات :

الدرجة الأولى (وعى بسيط) يعى المدركات وعيا ساذجا ، هنا المدركات تفرض وجودها على الوعى ، والعقل عبارة عن صفحة صافية تعكس ما أمامها فقط .

الدرجة الثانية (وعى معقد) ومن خلاله يستخلص معانى أو حقائق أو ماهيات المدركات .. وهنا يوجد تعادل ما بين المدركات ووجود العقل .

الدرجة الثالثة (وعي مجرد) يستطيع العقل هنا أن يتحرر من سطوة المدركات ، ويستطيع أن يتجرد من ذاته المفكرة ؛ لأنه يدرك محدودية أفقه وتواضع إمكانياته ، ليس لما يمكن أن يحققه - فقد حقق إنجازات باهرة ولكن لما هو معروض عليه من حقائق خاصة بالكون وخالق الكون . ولكن معنى أن يتجرد من ذاته المفكرة فهذا في حد ذاته نوع من التعطيل أو هو إلغاء لأهم وظيفة للعقل . أرقى صور الاستقلالية أن يستقل العقل عن ذاته ، ألا يقع في أسر تلك الذات ، وألا تشكل أحكامه ومنطقه ووجوده نوعا من السيادة المطلقة على الذات المفكرة .

ولكن كيف تتحقق السيادة على الذات الواعية التي في نفس الوقت واللحظة تنفي تلك الذات نفسها ؟؟

إنها قدرة نادرة ... دليل على قمة التجرد الواعي .. فالتفكير في حد ذاته دليل على وجود الذات الواعية ، والقدرة على إيقاف هذا التفكير أو الخروج عن نطاق عالم هذا الفكري لهو دليل على وعي تلك الذات بنفسها ، وإنها تمارس أعلى درجات الحرية في الاثبات الذاتي ، كما إنها قادرة على النفي الذاتي كذلك .

موقف العقل من قضية الألوهية

- ✓ لا نستطيع أن نصل إلى معرفة الله بدون الاعتماد على العقل .
- ✓ ولن نستطيع أن نصل إلى معرفة الله إذا اعتمدنا على العقل وحده .
- ✓ فنحن لا نستطيع أن نستغني عن العقل .
- ✓ كما أنه لن يغنينا في هذه المعرفة .
- ✓ فنحن في حاجة إلى أكثر من العقل في معرفتنا بالله .

وهنا النقطة الحرجة التى يقفها العقل فى تلك القضية . أنه ركن أساسى ولا غنى عنه ، ولكن الأمر يتجاوزه ويخرج عن نطاقه ؛ **لأن الأمر هنا يستلزم ثلاثة أمور :-**

- الإيمان .. والعقل مبنى على الاقتناع.
- الغيب .. والعق مهيأ على المشهود والمحسوس .
- المطلق .. والعقل معد للنسبى والمحدود .

إذن هل يستبعد ويغيب العقل من مسألة الألوهية ؟

لا ... الأمر ليس فى حاجة إلى استبعاد طرف وإنما الأمر فى حاجة إلى إضافة عناصر أو اعتبارات مثل :

- أن يتجرد العقل عن معاييره ومقاييسه ؛ لأن الموضوع الذى يبحثه ليس ككل الموضوعات ... المغايرة وعدم المثلية هنا تقطع على العقل سبله وطرقه المألوفة وكما قلت إن هذا فى إمكانية العقل .
- النفى والشك أسلوبان معتمدان عند العقل ، وقد كسب الإنسان من خلال تطبيق هذين الأسلوبين الكثير ، ولكن من قال إن تطبيق هذين الأسلوبين سيجلبان النفع للإنسان على طول الخط ، بل قد يجلبان الخسران إذا طبقا فى أمور ، ويحققان النفع الكبير إذا لم يطبقا ... فكما قلت إن الوجود الإنسانى أشمل وأرحب أن يحصره العقل داخل نطاقه وأن يخضعه لأساليبه وأدواته .
- البديهة ... بدونها لا يستطيع العقل أن يصل إلى مناطق تستعصى على أساليبه وطرقه المعتادة ، وبدونها لا يستطيع أن يبدأ البدايات

الصحيحة أو أن ينطلق إلى عوالم كان من الممكن أن تحجب عن العقل لو لم يول البديهة اهتماما وثقة .

" الكائن المطلق هو الكائن الذى لا يدخل في حدود العقول ولا يخضع لتجارب العلماء .

فما الذى يقضى به العقل في المناقضة ؟

إنه لا يقضى بأن يكون سبب الإيمان هو مبطل الإيمان لأنه كلام لا يسيغه عقل ولا علم ، ولكنه يقضى بما قضى به الواقع أيضا ، واتفق عليه المفهوم والمحسوس وهو ألا نكتفى بالعقل وحده ولا بالعلم وحده في الإيمان بالكائن الذى يستحق الإيمان ، وأن نعلم أن ثقة البديهة متمم لا غنى عنه لوظيفة العقل والعلم في معرفة الله ، ولا عجب في ذلك وهى مسألة أكبر من المسائل العقلية والمسائل العلمية ... لأنها مسألة الوجود كله في جوهره وعرضه وفي ظاهره وخافيه ومسألة العلم والمعلوم والعقل والمعقول " (٤) .

المطلوب من العقل الإيمان بالله ، ولكن كيف يؤمن وهو لم يدرك الإدراك الكامل ، ولم يحط الإحاطة التامة ؟

هل عدم الإدراك وعدم الإحاطة أن ينفض العقل يديه من مسالة الإيمان ؟ أو أن يؤمن إيمانا بدون اقتناع ؟

إن نفض يديه من مسألة الإيمان فهو قد قرر تهميش أهم قضية فى الوجود الإنسانى ، أو إنه أعلن عجزه وقصوره فى مواجهة أخطر قضية تواجهه والتى تحدد مصيره ومصير الوجود الإنسانى كله ، وإن آمن إيمانا بدون اقتناع فهو قد تخلى عن أهم حق من حقوقه ، أو أنه قام بأكبر عملية تزييف فى تاريخه المشرف .

- ❖ إذن لا مفر أن يواجه مسألة الإيمان .
- ❖ ولا مفر من أن يؤمن عن اقتناع كامل .

❖ وإن كان مواجهة مسألة الإيمان تتطلب منه الارتقاء والتجرد والخروج عن مألوف عادته .

❖ والإيمان عن اقتناع كامل يتطلب منه التواضع والقناعة .

"ومن قال إنه يرفض الإيمان بغير المحدود فكأنما يقول إنه يرفض الإيمان بما يستحق الإيمان ، إذ لا إيمان على الهدى بمعبود ناقص دون مرتبة الكمال الذى لا تحصره حدود . إلا إن الفارق عظيم بين ما هو ضد العقل وما هو فوقه وفوق ما يدرك بالعقول المحدودة ، فما هوضد العقل يلغيه ويعطله ويمنعه أن يفكر فيه وفي سواه ، وما هو فوق العقل يطلق له المدى إلى غاية ذرعه ، ثم يقف حيث ينبغى له الوقوف وهو يفكر ويتدبر إذ كان من العقل أن يفهم ما يدركه وما ليس يدركه إلا بالإيمان وحيثما بلغ الإنسان هذا المبلغ فقد انتهى إليه بالعقل والإيمان على وفاق مع الوجود " (٥) .

العقل نافذة

نحن لا نعيش بعقولنا فقط ، وإنما نعيش ونلامس الوجود بكياننا نعم العقل نافذة من النوافذ التى نطل من خلالها على الوجود ، وربما تكون من أصدق واشمل وأرحب النوافذ التى نكتشف الوجود من خلالها ، ولكنها ليست النافذة الوحيدة ومهما كان لها الأفضلية عن بقية النوافذ الأخرى إلا أنها لها حدودها ، لذلك من الخطأ أن نعتمد على العقل وحده فى الإطلال على الوجود أو أن تكون علاقتنا مع الوجود قائمة على العقل دون غيره ، مع كل تقديرنا للعقل إلا إن الوجود سيكون شديد الفقر إذا اقتصرنا على العقل .

" إن الإنسان جزء من هذا الوجود غير المحدود لابد له من صلة عميقة تربطه به أبعد غورا من هذه الصلات الحسية التى تحصرها العلوم المتغيرة مع العصور والسنين فكيف تكون هذه الصلة ؟ إن فكر الإنسان محدود يتقطع دون النهاية من هذا الوجود الذى ليست له حدود ، فهل تنقطع صلته بالوجود كله عند انقطاع فكره ؟ أو يعلم حدود نهايته ويعلم علما يقينا أن الصلة وراء ذلك لن تكون إلا بإيمان لابد أن يؤمن لأنه ذهب بالفكر إلى نهايته ولم يبلغ النهاية ولابد – بعد طريق الفكر – من طريق يهتدى إليه الفكر ولكنه لا يستعصيه " (٦) .

العقل منقذ للإنسان من صور التسلط

حيث يغيب العقل تظهر في الوجود جميع صور وانواع التسلط والاستبداد والهيمنة من الإنسان للإنسان ، والضامن الوحيد لبقاء صور التسلط والاستبداد هو تغييب أو تخدير أو وأد العقل ... بدون العقل يحدث خلط فى عناصر الكون يحدث اضطراب فى الوجود الإنسانى ، يوضع ما ليس بإله مكان الإله الحق ، ويعبد من دون الله . ويحصل إنسان ما على صلاحيات وتفويضات يمنحها لنفسه بدون وجه حق ؛ وبذلك يأخذ أكثر من حقه ، ويعطى أكثر من حجمه .

لا شئ يمنع أن تختلط الأمور ببعضها أو تلتبس المسميات سوى العقل فهو يعطى لكل شئ اسمه وحجمه وموضعه بدون إفراط أو تفريط . وهو لا يؤدى تلك المهمة الشريفة إلا إذا كان حرا بدون أن يكون عليه قيد أو حجر ، وحينما يتحرر العقل من كل قيد يعصف بكل الوسائط التى بين الإنسان وخالق الكون يطهر تلك المساحة ويغمرها بالإيمان القائم على التوحيد ،ولا يوجد سوى الدين الإسلامى الذى أكد وأقر مكانة وأمامة العقل ، مانحا له كل حرية ليقود الإنسان إلى الحق والنور المبين .

" فالدين الإسلامى دين لا يعرف الكهانة ولا يتوسط فيه السدنة والأحبار بين المخلوق والخالق ولا يفرض على الإنسان قربانا يسعى به إلى المحراب بشفاعة من ولى متسلط أو صاحب قداسة مطاعة فلا ترجمان فيه بين الله وعباده يملك التحريم والتحليل ويقضى بالحرمان أو بالنجاة ، فليس في هذا الدين إذن من أمر يتجه إلى الإنسان من طريق الكهان ، ولن يتجه الخطاب إذن إلا إلى عقل الإنسان حرا طليقا من سلطان الهياكل والمحاريب أو سلطان كهانا المحكمين منها بأمر الإله المعبود فيما يدين به أصحاب العبادات الأخرى ، لا هيكل في الإسلام.

﴿........فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ....﴾ [البقرة:١١٥]



ولا كهانة حيث لا هيكل فكل أرض مسجد وكل من في المسجد واقف بين يدى الله .

ودين بلا هيكل ولا كهانة لن يتجه فيه الخطاب - بداهة - إلى غير الإنسان العاقل حرا طليقا من كل سلطان يحول بينه وبين الفهم القويم والتفكير السليم " (٧) .

الإيمان ضرورة كونية

- ما سبب الإلحاح على مسالة الإيمان ؟ والإيمان العقلى بصفة خاصة ؟
- ألا يمكن للإنسان أن يعيش بدون إيمان ؟
- هل من الضرورى اللازم للإنسانية أن يتخلل الإيمان أفئدتها والضمير ؟
- هل يملك أحد فى زمان ما أو فى مكان ما أن يحول بين الناس والإيمان ؟
- وهل ينقص الوجود كثيرا إذا خلى من الإيمان ؟

هناك عناصر مشتركة بين الإنسان والكون ، أو قل إن هناك مبادئ عليا لها من القوة والعمق بحيث تشمل الإنسان والكون ، هذه المبادئ تمثل أقوى الوشائج بين الإنسان والكون ، وهى التى جعلت الكون يناسب الإنسان ، وأوجدت ما يشبه التناغم بين الاثنين ، وأهم مبدأ من تلك المبادئ أو أساس أو ركيزة من تلك الركائز هو الإيمان .

أما إن الإنسان مجبول على الإيمان ، وأن تلك الصفة تجرى فى عروقه مجرى الدم فهذا مما لا شك فيه ، ولا ينكره أحد ، فقبل أن تستيقظ فى الإنسان حواس كثيرة ، وقبل أن يستشعر أحاسيس أو مشاعر تحركت ببطء وتأن ورسوخ غريزة الإيمان ... نعم الإيمان غريزة ، بل من أقوى الغرائز وأرقاها على الإطلاق لأن كل الغرائز قد ترضى وتشبع بالحد الأدنى ، وقد ترضى بالبدائل ، وقد تؤجل

إلى حين من الزمن وقد تعطل لظروف خارجة عن إرادة الإنسان إلا غريزة الإيمان فليس لها أن ترضى إلا بما قدر لها وليس هناك من بديل إلا الالتقاء بالحق وهى لا تؤجل فهى شديدة الإلحاح على الإنسان توجهه وتدفعه حتى يصل إلى المنتهى ، وهى لا تعطل ؛ لأن معنى تعطيلها هو تعطيل لأهم أساس من أسس وجود الإنسان الذى لا يقام إلا به .

وكما أن الله قد زود الخلايا الحية بشفرة ترشدها إلى كيفية عملها وتحدد لها كافة الوظائف لاستبقاء الكائن الحى ، كذلك زود الإنسان ببوصلة تهديه إلى الإيمان والتوحيد ، فالله لم يخلق الخلق ويتركهم هكذا للأهواء والغرائز والشياطين وقوى الشر تتقاذفهم وتعبث بهم وتعصف بهم فى كل واد ، ولم يترك الخلق ضالين حائرين لا يملكون من أمرهم شيئا ولكن من ضمن ما اودع فى جبلتهم كافة الغرائز ، أودع كذلك غريزة الإيمان والتوحيد ، فليس من المعقول أن الله تبارك وتعالى وضع فى هذا الجسم أسباب وعوامل استبقاءه فى الحياة الدنيا ، وتلك الغرائز والميول تكون من القوة والحدة بحيث لا يستطيع الكائن الحى نفسه أن يقاومها أو يحد من سعارها ، ويصل ببعض تلك الغرائز أنها هى التى توجهه وتملى عليه تصرفاته وأفعاله ، ولا يملك حيالها إلا الانصياع والتسليم ، وهو أن لم ينصع ويعمل على إشباعها وإرضائها فهو فى حيرة من أمره ، قلق ، مضطرب ؛ ذلك لأنه حال أو وقف أمام سنة من سنن الطبع والخلقة ، وهو لا يشعر بالأمن والاستقرار والراحة إلا إذا عمل على إرضاء وإشباع تلك الغرائز والميول بما يتفق مع العقل والشرع والقانون .

فإذا كان هذا حادث مع الكيان المادي للإنسان ، الموقوته حياته بعشرات السنين ، فما بالك بالكيان الروحاني لإنسان ؟

لا شك أن الله تبارك وتعالى مثلما زود الخلايا والأعصاب واللحم والدم بخطة عمل تحدد وتخصص عمل كل من هؤلاء ، فأنه أيضا زود نفس الإنسان أو روحه أو عقله بأسباب الإيمان والتوحيد ، فالإنسان مدفوع إلى الإيمان حتى ولو لم يكن ثمة رسل أو أنبياء ،والإنسان نفسه لا يملك أن يحول بينه وبين اندفاع كيانه نحو الإيمان ، وهو إن عاند ووقف أمام تلك الغريزة فقد أفسد وجوده وحكم على كيانه بالمسخ والتشويه ، والآية الكريمة فى سورة الأعراف ، توضح أن الإيمان والتوحيد غريزة مركوزة فى جبلة وطبع الإنسان ، وأنه كان هناك إقرار من الإنسان واعتراف على وجود تلك الغريزة ..

يقول الله عز وجل في سورة الأعراف :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾ (الأعراف: ١٧٢ – ١٧٤)

يقول صاحب المنار فى تفسير الآيات ما نصه :

((هذه الآيات بدء سياق جديد في شؤون البشر العامة المتعلقة بهداية الله لهم ، بما أودع في فطرتهم وركب في عقولهم من الاستعداد للإيمان به وتوحيده و شكره ما أخذه الله من ميثاق الفطرة والعقل على البشر عامة فخلقهم على فطرة الإسلام ، وأودع في أنفسهم غريزة الإيمان، وجعل من مدارك عقولهم الضرورية أن كل فعل لابد له من فاعل ، وكل حادث لابد له من محدث وإن فوق العوالم الممكنة القائمة على شبه الأسباب والمسببات والعلل والمعلولات . سلطانا أعلى من جميع الكائنات . هو الأول والآخر هو المستحق للعبادة وحده .

- أى أشهد كل واحد من هذه الذرية المتسلسة على نفسه بما أودعه في غريزته واستعداد عقله قائلا قول إرادة وتكوين ، لا قول وحى وتلقين ﴿.......أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ.......﴾ [الأعراف:١٧٢])) ؟ فقالوا كذلك بلغة الاستعداد ولسان الحال لا بلسان المقال .
- أن الله تعالى لا يقبل نتهم الاعتذار بتقليد آبائهم وأجدادهم ، كما أنه لم يقبل منهم الاعتذار بالجهل بعد ما أقام عليهم حجة الفطرة والعقل .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٤]

أى ومثل هذا التفصيل البليغ نفصل لبنى آدم الآيات والدلائل ليستعملوا عقولهم ، ولعلهم يرجعون عما عن جهلهم وتقليدهم والآيات تدل على أن من لم تبلغه بعثة رسول الله لا يعذر يوم القيامة بالشرك بالله تعالى ولا يفعل الفواحش والمنكرات التى تنفر منها الفطرة السليمة ، وتدرك ضررها وفسادها العقول المستقلة ، وإنما يعذرون بمخالفة هداية الرسل فيما شأنه ألا يعرف إلا منهم وهو أكثر العبادات التفصيلية .

قال الإمام ابن كثير فى تفسير هذه الآية:-

((يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو ، كما أنه فطرهم على ذلك وجبلهم عليه .

قال قائلون من السلف : (أن المراد بهذا الاشهاد غنما فطرهم على التوحيد .

قال - الجرجانى - وحاصل الفائدة في هذا الفصل أنه سبحانه قد أثبت الحجة على كل منفوس ممن يبلغ وممن لم يبلغ بالميثاق الذى أخذه عليهم ، وزاد على من بلغ منهم الحجة بالآيات والدلائل التى نصبها في نفسه وفي العالم وبالرسل المنفذة إليهم مبشرين ومنذرين وبالمواعظ وبالمثلات المنقولة إليهم أخبارها غير أنه عز وجل لا يطالب أحدا منهم من الطاعة إلا بقدر ما لزمه من الحجة وركب فيهم من القدرة وآتاهم من الأدلة).

﴿........وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ....﴾ [الأعراف:١٧٢]

أى ويشهدهم بما ركبه فيهم من العقل الذى يكون به الفهم ، ويجب به الثواب والعقاب وكل من زبلغ الحنث ، وعقل الضرر والنفع وفهم الوعد والوعيد والثواب والعقاب صار كأن الله تعالى أخذ عليه الميثاق في التوحيد بما ركب فيه من العقل وأراه من الآيات والدلائل على حدوثه ، وأنه لا يجوز أن يكون قد خلق نفسه وإذا لم يجز ذلك فلابد له من خالق هو غيره ليس كمثله ، وليس من مخلوق يبلغ هذا المبلغ ولم يقدح فيه مانع من فهم إلا حزبه أمر يفزع إلى الله عز وجل حين يرفع رأسه إلى السماء ويشير إليها بأصبعه علما منه بأن خالقه تعالى فوق ، إذا كان العقل الذى منه الفهم والإفهام مؤديا إلى معرفة ما ذكرنا ودالا عليه من بلغ هذا المبلغ فقد أخذ عليه العهد والميثاق إذ جعل منه السبب والأدلة اللذين يؤخذ العهد والميثاق)) . انتهى كلام صاحب تفسير المنار .

(تفسير المنار – الجزء التاسع – الصفحات (٣٢٥إلى ٣٣٤)

ونخلص من ذلك إلى :

- إن الإيمان بالله الواحد الأحد غريزة مركوزة فى طبع الإنسان .
- إن تلك الغريزة من أقوى وأشرف الغرائز ،من ناحية قوتها يدار عليها الوجود الإنسانى كله ، ويتشكل ويتحدد بمقتضى تلك الغريزة ، ومن ناحية شرفها أن الله تبارك وتعالى أشهد عليها بنى آدم .
- إن تلك الغريزة تظهر بوضوح وجلاء فى الفطر السليمة التى لم يفسدها أصحابها بالكبر والعجب والغرور والطمع ، وتظهر كذلك فى العقول الصافية التى لم يخرجها أصحابها عن سياقها الطبيعى .
- إن هذا الإيمان مسئولية وتكليف يترتب عليه محاسبة ، فقد أقررت وشهدت أن الله موجود ، ولا شريك له ، على هذا فلابد أن يكون وجودك متسقا مع هذا ، ومع عملك وفكرك ، وإن لم يكن فقد حدث تفريط من جانبك أو إخلال بتلك المسئولية .

- ليس هناك من عذر لمن تخلى عن تلك المسئولية ، ولن يقبل من أحد أى عذر فكل إنسان مرهون بما عمل .

- هناك من سيحاول أن يبطل أو يعطل تلك الغريزة ، وهذا عن جهل وعناد وكبر ، لأن ما أودعه الله فى جبلة الخلق لا أحد يملك تبديله أو تغييره أو تحويله . .

وأما أن الكون مؤسس على الإيمان فكل الدلائل والشواهد تحكم بذلك فأقوى دليل وأسطع برهان على وجود الله وعظمته وقدرته هو الكون ... وشئ منطقى أن الكون لا يدل تلك الدلالة إلا إذا كان يحمل فى ثناياه درجة عليا من الإيمان ، فكيف يكون مرشدا إلى الإيمان وهو ليس بمؤمن ؟ !

إذن الكون مؤمن لا شك فى هذا ... وإيمان الكون هو نوع من الطاعة والطاعة تتمثل فى اتباع النظام الذى أراده الله ، وهو الصلاح الكونى ، وعدم تنفيذ إرادة الله فى الكون هو نوع من الفساد ، نوع من معصية الله ، وكما هو معلوم أن منذ أن خلقت السموات والأرض والكون يسير وفق نظام واحد لا اختلال فيه ولا نظن أنه سيحدث أى اختلال إلا إذا أذن الله خالق الكون بذلك ، فالكون عابد لله ، مطيع لله ، خاضع لله ، مسبح لله ، مؤمن بالله . جاء في سورة النور :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ﴾
(النور: ٤١ – ٤٢)

وفي سورة (الرعد) ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ (الرعد: ١٣)



وفي سورة (الجمعة):-

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ (الجمعة: ١)

وفي سورة (الأنبياء)

﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (الأنبياء: ٧٩)

وفي سورة (الإسراء) ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (الإسراء: ٤٤)

وفي سورة (الحشر)﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (الحشر: ١)

على هذا فالإيمان ضرورة كونية ، لا يستمد الكون كيانه وصورته إلا من خلال تلك الصفة ؛ لأنه لم يخلق إلا ليدل بصورة واضحة وقاطعة وكاملة على وجود الله .

" فإذا أجمع الناس على الاعتقاد كيفما كان اختلافهم فى الجنس والزمن والموطن ، المصلحة – فليس هذا عمل فرد ولا هو مما يقع بين الحين عرضا واتفاقا من فعل الحيلة والتدبير ولكنه باعث من صميم قوى الكون ولا يفلح الرسل والأنبياء فى نشر دعوته ما لم يكن فى تلك الدعوة مطابقة لحكمة الخلق وسر التكوين وكل اعتراض يعترض به المنكرون على حقائق الأديان لا يقام له وزن فى مواجهة هذه الظاهرة الواقعة التى لا شك فيها "(٨) .

إذن هناك حكمة سائرة فى الوجود ، متغلغلة إلى سر تكوينه ، والعقل يشهد بذلك ، أنه كلمة من قصيدة رائعة فى تسبيح وتوحيد الله ، وليس هذا راجعا إلى أن الوجود والكون فى حاجة إلى الله ، فحاجتى إلى شئ لا تفرض على عبادة

وتقـديس هـذا الشـئ ، ولكـن الكـون يعبـد الله لا لشـئ إلا لأن الله أهـل للعبـادة والتقديس والتوحيد لما يتصف به من صفات الكمال والجلال والجمال والعدل .

"وليس المراد من ذلك أن الإيمان بالله قائم على الإيمان بقدرته وكماله وعدله وسلطانه في الوجود واتصاله بهذا الوجود فإن لم يكن المعبود كذلك فما هو بأهل للإيمان به ، على الاستغناء عنه أو على الحاجة إليه " (٩) .

المراجع

(١) عقائد المفكرين فى القرن العشرين– عباس محمود العقاد – صفحة (١٨) .

(٢) الإنسان فى القرآن – عباس محمود العقاد – صفحة (٥٢) .

(٣) المصدر السابق – صفحة (٥٢) .

(٤) الله – عباس محمود العقاد – صفحة (٢٢٨) .

(٥) التفكير فريضة إسلامية – عباس محمودالعقاد – صفحة (١٢٧ و١٢٨) .

(٦) المصدر السابق – صفحة (٢٢٠) .

(٧) المصدر السابق – صفحة (٢٠) .

(٨) الفلسفة القرآنية – عباس محمود العقاد – صفحة (٩) .

(٩) المصدر السابق – صفحة (٩٢) .



الباب الثالث

العلم يبحث عن اللّه

ليس من مهام العلم البحث عن الله .
ولكن لن تقوم للعلم قائمة إلا إذا اعترف اعترافا صريح
بوجود الله ، وارتكاز هذا الكون من أكبر أجرامه
إلى
أصغر جسيماته على إرادة هذا الموجود الأعظم .

البحث عن الحقيقة

لقد قام الإنسان برحلات استكشافية على مدى تاريخه الطويل ، يدفعه إلى ذلك رغبة متأججة داخله إلى المعرفة ، وكشف اللثام عما هو مجهول لديه فالمجهول بالنسبة له منطقة محفوفة بالمخاطر ، تلك المنطقة تستفز فيه روح المغامرة ، هذه المغامرة قد تسفر على كنوز تثرى حياته وحياة الأجيال المتعاقبة وقد لا تسفر عن شئ ، ولكنها أيضا تثرى حياته وحياة الأجيال التالية ؛ لأن المغامرة فى حد ذاتها تجربة حافلة بالخبرات المتنوعة التى تضيف إلى الرصيد الفكرى للإنسان الكثير . فالفشل – فى الوصول إلى غاية – فى حد ذاته تجربة غنية بل هى من أغنى التجارب ؛ لأن التجارب الناجحة والغاية التى تحققت وانبهار الإنسان بها قد تشغله عن التأمل فى تلك الطرق والسبل التى سلكها لتصل به إلى الغاية .. ذلك لأن (**الفشل**) والإخفاق يدفع الإنسان إلى عملية تقييم ، ويحفزه على التأمل والتفكير ويحضه على التساؤل .

- أين كان القصور ؟
- وأين كان التقصير ؟

هذا الارتداد الفكرى ، أو التراجع التأملى لما حدث ، ومحاولة وضع إجابات على أسئلة أو تفسيرات لظواهر ما ، هو ما رفد التاريخ الفكرى للإنسان بمعين لا ينضب ولا يجف .

على هذا فكل الرحلات التى قام بها الإنسان ويقوم مقدر لها النجاح مهما كانت نتيجة تلك الرحلات .

وكانت رحلاته إلى الزمان ، كما كانت رحلاته إلى المكان ، تلك الرحلات كانت لها نقطة نهاية ، يلقى الإنسان عندها مرساة ، ويطوى شراعه معلنا نهاية الرحلة .

والرحلات نوعان ، نوع إلى العالم المشاهد المحسوس ، ونوع إلى عالم الغيب أو العالم غير المشاهد .

الأول يصل إليه بوسائل المواصلات التى تطورت بتطور التطبيق العملى لتفكير الإنسان .

والثانية يصل إليها بعقله أو بقلبه أو نفسه ، وقد تطور بتطور البحث النظرى لتفكير الإنسان .

وكل الرحلات العقلية التى قام بها ، آب منها بمحصول فكرى قل أو كثر أسمن أو لم يسمن ، ولكنه رجع بالغنيمة بعدما استنفد أغراضه ووسائله .

" إلا إن الرحلة لا تزال تتواصل ولا تبدو نهايتها بعد للبصر ، وحسب المثل القديم فإن السفر المفعم بالأمل أفضل من الوصول . والتماسنا التوصل إلى اكتشافات يوفر لنا وقودا لإبداعنا في كل المجالات ، وليس في العلم وحده ولو وصلنا إلى نهاية الخط ستذوى الروح الإنسانية ، وتموت على أنى اعتقد أنه لن يحدث قط أننا سنتوقف تماما . سوف نزداد تراكما إن لم تزددعمقا ، وسنكون دائما محورا لأفق من الامكانات يظل يتزايد اتساعا " (١) .

ما عدا رحلة واحدة ... سيظل العقل الإنسانى سائحا باحثا ما قدر له السياحة والبحث والتنقيب بدون رجوع ؛ لأنها رحلة ليست لها غاية إلا البحث فى حد ذاته .

البحث فى الحقيقة
والبحث بالحقيقة

وقد يضل الإنسان ضلالا بعيدًا- فى رحلة بحثه تلك – عن طريقه حينما يجد الطرق مسدودة ، وقد ينزلق إلى طرق وعرة تحطمة وتدمره ، وقد يجنح إلى مناطق بها دوامات وأنواء وعواصف وظلمات ، تجعل اليأس والقنوط يطبقان على صدره ، ذلك لأن ليس معه بوصله تهديه إلى الطريق القويم ، وليس فى طريقه إرشادات أو صوى تحدد معالم طريقه سوى فؤاده ، وما يطمئن إليه .

ضلال العلم

لقد قام العلم بأكبر عملية تزييف فى التاريخ الإنسانى ، خلال القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ، أو قل إنه خلال تلك العقود قد ضل وأضل أو إذا أردنا أن نبرأه من تهمة القصد والعمد فلنقل إنها طبيعة مرحلة من مراحل تطوره ، قد سيطر الغرور والعجب ، فأخذ ينكر وينفى مع إن من أولى مهامه الإثبات والإقرار، ذلك لأنه حينما يقوم بإثبات شئ والتأكيد عليه يكون بيده من الدلائل والبراهين ما يؤيد به رأيه .

أما في حالة النفى فأنت تصادر ما أمامك ، وتحكم عليه بالنفى ، وليس ثمة دليل يساعد العلم فى هذا الأمر.

" إن الإنكار نفى ، والنفى لا يزداد ولا ينتظر الزيادة ، وإنما تكون الزيادة في جانب الإثبات والتقرير ، فما كان محاولة غامضة في زمن من الأزمان يصبح محاولة واضحة في زمن آخر ، ثم يصبح محاولة ناجحة أو متقائلة في زمن يليه ثم ينتقل من المحاولة الضعيفة إلى محاولة قوية ، ومن المحاولة المتفرقة إلى المحاولة المجتمعة ، ومن المحاولة جملة إلى الثبوت والقرار على وجه من الوجوه . فقد انتهى إنكار المنكرين عند النفى الحاسم ووقف عنده فلا مزيد " (٢) .

فحينما ينكر العلم وجود الله ، هذا الإنكار فى حد ذاته يكشف عن انحراف وعن تضليل وعن تعسف .

انحراف :عن المنهج أو الطريق الذى ارتضاه العلم منذ البداية ، أن مجال عمله المادة ، ليصل من خلالها إلى غاية المنتهى من استكشاف قوانين وصياغة نظريات ، فمنطلقه وركيزته وقاعدته المادة وما يتبعها ، وأظن أنى مهما نبغت وتفوقت فى هذا المجال ، فلا يؤهلنى هذا ولا يعطينى الحق فى أن أتحدث فى أى شئ غيبى ، وبالأخص إذا كان يتعلق ليس بالغيب ولكن بعلام الغيوب .

تضليل : إن العلم اكتسب قاعدة عريضة من المؤمنين به وأحرز مصداقية عميقة من خلال تلك الإنجازات العظيمة ، لذلك كانت كلمته لها من الوقع والتأثير ما لايمكن التقليل من شأنها ، واستغل مكانته تلك ، وأيضا الأذان المفتوحة له والعقول المؤمنة به ليقول كلاما لا برهان ولا دليل عليه فالناس صدقوا دعوى بغير تمحيص ولا فحص لشدة إيمانهم بالقائل لا باقتناعهم بالمقولة ذاتها وبذلك حدثت عملية التضليل .

" إن ما يحظى به علم الفيزياء من قدرة عظيمة على تفسير الظواهر وما تكشف عنه من مبتكرات تكنولوجية هائلة قد أضل « الرجل العادى » بحيث جعله يزداد بعدا وفتورا عن المتقدات الدينية والقيم الروحية بعد أن تعرض مفهوما العقل والعمليات الذهنية للخطر بل للرفض " (٢) .

تعسف : كل القوانين والنظريات والأطروحات التى وصل إليها العلم والتى أسهمت من خلال تراكمها – فى بناء هذا الصرح الحضارى الإنسانى العظيم ، وتطبيقات تلك القوانين والنظريات والتى أحدثت نقلة نوعية

فى حياة البشر على الأرض ، وإن كانوا لا يقتنعون أنها دليل على وجود قوة مدبرة ومنظمة للكون – فى رأيهم – إلا أنها لا تنفى وجود تلك القوة بأى صورة من الصور ، فكلها دلائل إثبات ومع ذلك فقد استخدموها بنوع من التعسف والتعنت لتكون دليلهم لإنكار وجود الله .

" وعلى الرغم من أن رواد النظرة القديمة لم يكونا من الملاحدة فقد انتهت إليه من إنكار وجود الله والاستخفاف بالقيم الأخلاقية والدينية ، وبالمعانى الروحية والنفسية والسعى إلى تفسير السلوك البشرى كله والعقل والإرادة بلغة الدوافع والغرائز والفسيولوجيا " (٤).

ولكن ما الفرق بين عالم مؤمن يجرى التجارب فى معمله ويستخلص القوانين ويصوغ النظريات وبين عالم ملحد ؟

فمسألة الإيمان والكفر لن يكون لها دخل فى عملهما ، ولن تحدث أدنى تغيير ، فقضية الإيمان قضية مقحمة على العلم بغير مبرر ، نحن لا نقيم العالم بدرجة إيمانه ولكن بتمكنه من علمه ونبوغه فيه بغض النظر عن أخلاقيات هذا العالم .

ومع ذلك فلم يكن موقف الدين من العلم موقفا حاديا ، بل اتخذه عدوا يحاربه ويفرض سلطانه عليه وأراءه ، وتبلور هذا فى موقف الكنيسة الكاثوليكية .

" كانت الكنيسة الكاثوليكية في ذاك العصر تضطهد العلماء بحجة أن نظرياتهم العلمية لا تتفق مع نصوص الكتاب المقدس ، أو مع ما ارتضته من أراء أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان وعلمائهم . وما أكثر من أعدم من هؤلاء العلماء ومن حرق ولعل قصة غاليليو لا تخفى على القارئ المثقف . فقد نشر هذا كتابا أيد فيه نظرية عالم الفلك البولندى كوبرنيكوس القائلة إن الأرض وجميع الكواكب السيارة تدور حول الشمس وحول نفسها مخالفا بذلك نظرية بطليموس في المحورية الأرضية وهى نظرية حظيت بتأييد الكنيسة الكاثوليكية فحوكم واضطر رغم أنفه إلى التراجع عن رأية كتابة " (٥) .

المادة وحدها هى الحقيقة

إذن العلم – أنذاك – كان دينه وديدنه المادة ، فحينما يعترف العلم ويقرر حقيقة من الحقائق ، وتلك الحقيقة تكون من الأهمية بحيث تعتبر الأساس وأيضا هى التى تشكل المناخ العام أو الاتجاه العام للعلم . فتلك الحقيقة يكون لها من الهيمنة أو من القوة بحيث تفرض منطقها على جميع فروع العلم الأخرى ويكون لها قوة جذب عظيمة لا سيما بعد الإنجازات التى حققتها ، وهذا بالضبط ما فعله نظام نيوتن ، باعتبار أن المادة ركيزة النظام الكونى ، ونظر إلى المادة بكثير من التوقير ، إلى درجة اعتبار أن المادة ليست موضوع بحث فحسب بل باعتبارها جزءا من الأسلوب العلمى ، وهنا حدث تطابق بين موضوع البحث ومنهج البحث .

" وقد حقق نظام نيوتن نجاحا في العديد من المجالات ولا سيما في مجالى الفيزياء والكيمياء ، وأحرز النظام القديم تقدما بفضل جهود علماء من أمثال فاراداى faraday وكلفن kelvin وهيرشل herschel ، ومئات غيرهم ، وتمت له الغلبة بشرحه ظواهر الحركة والحرارة والضوء والكهرباء ، وطبيعى أن هذا النجاح ولد في النفوس رغبة في توسيع نطاق هذا الأسلوب في الشرح بحيث يشمل جميع حقول المعرفة بما فيها علوم الأحياء والنفس والتاريخ ، وقد أسفرت إمكانية الكشف عن أسرار جزء كبير من العالم الطبيعى بافتراض وجود المادة وحدها عن دفع بعض العلماء تدريجيا إلى اعتبار المادية جزءا من الأسلوب العلمى ذاته على نحو جعل الباحث العلمى يصرف النظر عن معتقداته الشخصية يمضى في حججه العلمية على أساس افتراض كون المادة وحدها هى الحقيقة أو أنما على الأقل كل ما يمكن معرفته بطريقة علمية ولعل في وسعنا أن نطلق على هذا اسم ((المادية المنهجية)) " (٦) .

وكان لابد وأن يأتى وقت تستقيم فيه الأمور وتعتدل فيه الموازين ، ؛ لأن العلم إن لم يتفق مع الحقيقة العلمية والسنن الطبيعية ، يقم بنقد وفحص الحقائق

التى سلم بها من قبل ، فهو يسير فى طريق مسدود ، وأخشى ما يخشاه العلم الطرق المسدودة .

فهو يصحح ذاته ويتطور ويلائم كل شئ ولديه قاعدتان

- **الأولى** : هى أنه لا توجد حقائق مقدسة ، ويجب أن تخضع جميع الافتراضات إلى فحص نقدى .

- **والثانية** : هى أن كل شئ لا يتلاءم مع الحقائق يجب أن يهمل أو يعاد النظر فيه " (٧) .

فليس من الصواب ولا من الحق أن كل شئ خاضع للمادة ، وليس هناك شئ مطلق هناك حدود لكل شئ ، وهناك الإنسان ، محور العلم ، الذى يرى ويراقب ويشاهد ويسجل ، وهو يفعل كل هذا من منطلق كونه إنسان ، عقل و جسد .

وكانت بداية التصحيح فى مسيرة العلم ، البداية التى افتتحها (**أينشتين**) من خلال نظرية النسبية .

" فنظرية النسبية الخاصة قادت علم الفيزياء إلى التخلى إلى الأبد عن فكرتى المكان المطلق والزمان المطلق ن ذلك أن أينشتاين أثبت أن علاقات المكان والزمان وقوانين الحركة لا يمكن تعريفها إلا بوصفها الموقف الشخصى للمراقب ولظروفه المادية . أما السمات الأخرى لنظرية النسبية الخاصة كتكافؤ المادة والطاقة فهى في الواقع نتائج مترتبة على محورية المراقب وبفضل النسبية الخاصة أضحى المراقب فجأة جزءا أساسيا من عالم الفيزياء . ولم يعد في مقدور الباحث العلمى أن يعتبر نفسه متفرجا حياديا كما في نظام نيوتن " (٨) .

ها هو العلم يتخلى عن عتامته وكثافته وتقديسه للمادة شيئا فشيئا ويعترف اعترافا صريحا بمكان وتأثير الإنسان فى التجربة العلمية البحتة ، ذلك أن نظام ((**نيوتن**)) قد فشل فشلا ذريعا .

" وأخيرا أدى هذا الفشل إلى التخلي كليا عن نظام نيوتن على المستوى الذرى وإلى التعجيل بتطوير ميكانيكا الكم في العشرينات على أيدى علماء من أمثال (نيلزبور) ،و (فيزيرهايزنبيرغ) وبمجى ميكانيكا الكم تضاعفت أهمية دور المراقب في النظرية الفيزيائية . يقول ماكسب بورن ((maxborn)) :

((لا يمكن وصف أى ظاهرة طبيعية في مجال الذرات إلا بالرجوع إلى المراقب رجوعا لا إلى سرعته فحسب كما في حالة النسبية ، بل إلى جميع أنشطته لدى قيامه بالمراقبة وبتركيب الآلات وما إلى ذلك)) " (٩) .

إذن في وقت ما وصل العلم إلى طريق مسدود ، وأعلن فشله ، وميزة يتميز بها العلم إنه فى اللحظة التى يحس بها بالفشل يقوم على الفور بعملية مراجعة حقيقية وصادقة ، ويعرض البدائل ، ويختار منها ما يخرجه من تلك الدائرة المغلقة التى يدور بها بغير جدوى ؛ لأن السكون والجمود قاتلان للعلم ، الاندفاع إلى الأمام والقدرة على التفسير والتغيير وتحقيق إنجازات فى جميع المجالات هو ما يعطى العلم كيانه وقوامه .

" تتجدد العلوم الإنسانية مع الزمن على سنة التقدم فلا تزال بين ناقص يتم ، وغامض يتضح ، وموزع يتجمع وخطأ يقترب من الصواب ، وتخمين يترقى إلى اليقين ولا يندر في القواعد العلمية أن يتقوض بعد رسوخ أو تتزعزع بعد ثبوت ويستأنف الباحثون تجاربهم فيها بعد أن حسبوها من الحقائق المفروغ منها عدة قرون " (١٠) .

التراث العلمى مهما كان عظيما لا يمثل قيدا على مسيرة العلم ، ولا يشعر أنه عبء يمنعه من الحركة ، فهو إن لم يكن مثريا له ودافعا له ، فحالما يتخلص منه كالثعبان الذى يغير جلده ويلقيه وراء ظهره ؛ لأنه لم يعد مناسبا له ، فليس شئ بعزيز على العلم سوى الحقيقة .

فبعد أن كانت التجارب لا مكان فيها للإنسان اعترف العلم بالإنسان ويجهده وبعمله وبتأثيره فى التجارب ، وطالما اعترف به فقد اعترف بالعقل والوعى والروح ، وأصبح هناك جانب آخر غيرالجانب المادى يراعى ويؤخذ فى حسابه وتأثيره فيما يحدث ... لأن محال أن يحدث شئ أو يتم اقتراح أو اتخاذ أى خطوة بمعزل عن الجانب الإنسانى .. وربما الذى أحدث النقلة أو التغيير أو الثورة أو التصحيح هو وضع الإنسان فى مكانه الصحيح مما يحدث وليس الاكتفاء بأن يكون مشاهدا أو مراقبا ، بل أصبح مشاركا ، بل أن يكون العنصر الأساسى والأهم فيما يحدث .

" ويشرح الفيزيائى جون ويلر ((jonn wheeler)) هذا فيقول : وكان من الطبيعى على مدى فترة طويلة من الزمن أن يعتبر المراقب وهو ينظر إلى الكائنات ، محميا من ملامستها بلوح زجاج ثخين يبلغ سمكه عشرة سنتيمترات . أما ميكانيكا الكم فهى خلافا لذلك ، تعلمنا أن العكس هو الصحيح . فمن المستحيل مراقبة أى جسم مهما بلغ من الصغر ، كالالكترون ، من دون كسر ذلك اللوح والولوج إلى داخل هذا الجسم بالآت القياس المناسبة زد على ذلك أن تركيب الأجهزة لقياس أى من إحداثيات الالكترون يحول آليا دون وضع المعدات المطلوبة لقياس سرعته أو زخمه فى المكان نفسه وفى الوقت نفسه والعكس صحيح ، فعملية القياس ذاتها تحدث فى وضع الالكترون تغييرا لا سبيل إلى التنبؤ به وهذا التغيير يختلف بحسب قياسنا للموقع أو للزخم والخيار المتعلق بما يراقبه المرء يحدث اختلافا لا سبيل إلى استرجاعه فيما ينتهى إليه من نتائج . وهكذا تمت ترقية ((المراقب)) ليصبح ((مشاركا)) . وما أوحت به الفلسفة فى غابر

الأزمنه تبينه لنا اليوم ميكانيكا الكم بقوة مثيرة للإعجاب . فعالمنا اليوم بطريقة غريبة عالم قائم على المشاركة .

وهكذا أصبحت أصغر جسيمات المادة غير قابلة للتعريف بمعزل عن خيارات وأفعال المراقب الذى هو ضرورى لا كشاهد فحسب ، بل كمشارك . ويبين الفيزيائى يوجين فيغنر((Eugene wegner)) ما يترتب على ذلك من نتائج فيقول :

((عندما تم توسيع نطاق النظرية الفيزيائية ليشمل الظواهر الميكروسكوبية ، من خلال استحاث ميكانيكا الكم ، عاد مفهوم الوعى مرة أخرى إلى المقدمة ، إذ لم يعد ممكنا صياغة قوانين ميكانيكا الكم بشكل متسق كليا دون الرجوع إلى الوعى)) . ولما كانت المادة فى أدنى مستوياتها لا تفهم إلا باستخدام العقل فقد انتهى فيغنر من ذلك إلى أن العقل هو إحدى حقائق الوجود المطلقة قائلا : ((هناك نوعان من الحقيقة أو الوجود : وجود وعى وحقيقة أو وجود كل شئ آخر. وما يدعو للحيرة الشديدة أن وجود النوع الأول من الحقيقة يمكن أن ينسى " (١١) .

وإنه لأمر عجيب حقا أن تعترف الفيزياء دونا عن بقية فروع العلم ، وهى التى جل عملها ومحور اهتمامها المادة فى كل صورها وعلى جميع مستوياتها .. أن تعترف بوجود العقل ، ليس هذا فحسب ، بل بأنه عنصر ليس محايدا ، بل عنصر فعال من عناصر التجربة ، بل أن بعض المفاهيم والتعريفات لا تكتمل إلا بوجود عنصر العقل ... وبهذا الاعتراف وضع حد بين نظام قديم ونظام جديد ، أو كان بمثابة بداية لثورة حقيقية وتصحيح لمفهوم العلم .



" إن الحقائق الجديدة التى كشفتها نظرية النسبية وميكانيكا الكم لا يمكن أن تتواءم مع النظرية القديمة فلا هيكل المكان - الزمان ولا خواص الجسيمات الأولية يمكن أن يوصفا دون الرجوع إلى مراقب مشارك أى إلى عقل . ولقد كانت النظرة القديمة لا تتضمن إلا المادة والقوانين الطبيعية . أما النظرة العلمية الجديدة فمن المحتم عليها أن تتضمن المادة والقوانين الطبيعية والعقل " (١٢) .

مكسب العلم

ولكن ما المكسب الذى كسبه العلم من اعترافه واقراره بوجود العقل والوعى ؟

ليس وراء الحق مكسب ، فيكفى أن نصل إلى الحقيقة لنشعر أننا فزنا فوزا عظيما ، ومع ذلك فإن العلم باعترافه بالعقل فقد كسب كثيرا ، وأهم المكاسب هو الإنسان نفسه .

فباعتراف العلم بالعقل والوعى ، استتبع الأمر الاعتراف بالروح ، والاعتراف بالروح ترتب عليه الاعتراف بالخلود ، وأن هناك حياة أخرى ، وهذا كله لا يتسق إلا بوجود إله .

وبدون اعتراف العلم بالعقل يكون العلم قد بطر الوجود الإنسانى أو طمسه أو شوهه ، وبالتالى أفسده ، وكل نتائجه وإنجازاته قائمة على مغالطة أساسية أو ناهضة على باطل .

وإن كان الأمر استلزم جرأة وشجاعة من العلم أن يعترف صراحة ، حتى باعترافه وإقراره بوجود العقل ، فهو لا يستطيع دراسته أو إخضاعه لأساليبه وتقنياته ، لا سيما وإذا كان الدارس والباحث هما الفيزياء والكيمياء .

" هكذا ظهر فرق جذرى بين الحياة والعقل ، فالحياة مسألة كيمياء وفيزياء أما العقل فهو يستعصى على الكيمياء والفيزياء " (١٣) .

نعم .. العلم من أفضل الأساليب وأشملها وأدقها وأصحها لفهم الإنسان فهما حقيقيا ، وتفسير كثيرا من الظواهر الإنسانية . أما الأمر مع العقل فمختلف جدا ، فهو خارج حدود وإمكانية العلوم ، والعلم يقف عاجزا أمام تفسير كثير من ظواهره .

" والعقل في مجال العلوم يسمو على قيود الخيال ، وهو حاسة داخلية فالعقل البشرى إذا ليس متميزا من الخيال فحسب ، بل هو قوة إدراكية تفوقه بكثير والعقل لا الحواس هو الذى يصنع العلم لأنه وحده يستطيع أن يستكشف ماهية الأشياء وعللها " (١٤) .

اعتراف صريح بالإنسان وبالعقل وبالإرادة ، وبكل ما كان العلم ينكره قديما ، والإنسان الذى اعترف به العلم له مواصفات ، كأن يكون عاقلا ، ذا إرادة متمتعا بالحرية ؛ لأن الحرية اعتبروها شرطا من الشروط الضرورية لإجراء البحث العلمى .

" الحرية شرط من شروط التجربة ، فأنا لا أستطيع أن أجرى التجارب إلا حين لا يكون فيها فعلى وتفكيرى محكومين بالظروف والحوافز والعادات بل بحرية اختيارى " (١٥) .

وكأن العلم أدرك أن أهم ما يميز الإنسان هو العقل ، أو أن أهم نصير له هو العقل ، وهو من الخاسرين خسرانا مبينا إن تجاهله ، وأهم مكسب يحققه العلم وسيحققه هو إذا اتخذ العقل نصيرا ومؤيدا .

" إن ما تعلمنا أن نسميه العقل هو الذى يركز الإنتباه فيما يبدو . والعقل يعى ما يدور حوله . وهو الذى يستنبط ويتخذ قرارات جديدة ، وهو الذى يفهم ويتصرف كما لو كانت له طاقة خاصة به ، وهو يستطيع أن يتخذ القرارات وينفذها ، مستعينا بمختلف آليات الدماغ ، وهكذا فإن توقع العثور على العقل

في أحد أجزاء الدماغ أو في الدماغ كله ، أشبه بتوقع كون المبرمج جزءا من الحاسبة الإلكترونية " (١٦) .

وبكل تواضع وصدق وصراحة يعترف العلماء بأن هناك عمليات فكرية ونفسية وروحية ، ومع هذا فإن العلم – سواء الفيزياء أو الكيمياء – يقف عاجزا عن دراسة تلك الظواهر أو بحثها ، فيقول عالم الأحياء أدولف بورتمان ((adolf portman)) :

" ما من كمية من البحث عن النسق الفيزيائى أو الكيميائى يمكنها أبدا أن تقدم صورة كاملة للعمليات النفسية والروحية والفكرية "ويقول : " يبدو من المؤكد أن تفسير العقل على أساس النشاط الطبيعى داخل الدماغ سيظل أمرا مستحيلا كل الاستحالة "ويقول : " أقرب إلى المنطق أن نقول إن العقل ربما كان جوهرا متميزا ومختلفا عن الجسم " .

الإنسان والعلم

لم يكتسب الإنسان الثقة بقدراته العقلية إلا من خلال العلم ، الإنسان قبل العلم كان مجرد عنصر من عناصر الطبيعة ، مخلوق تعبث به الأقدار والمقدرات وسط تقلبات الطبيعة وتغيراتها ، بل لا نبالغ إذا قلنا إنه كان أضعفها وسط المخلوقات الأخرى وأسرعها للتلف والدمار ، فليس معه ظفر ولا ناب ولا قوة عضلية ، وليس معه أى قوة تمكنه من الهجوم أو الهروب وقت الخطر ،ولكن عدم وجود أسلحة طبيعية يدافع بها عن نفسه كبقية المخلوقات الأخرى ، أو يحقق له مكانة كغيره ، وهذا الضعف والهوان الذي شعر به ، هو الذي ألجأه للبحث عن شئ مختلف عما حوله ، شيئا زود به ، يستخدمه – بصورة غامضة – فى التقليد والمحاكاة، وصنع من عناصر البيئة ما يشبه الناب والظفر ، وأخذ يجرى ويقفز ويختبئ

وينساب واستطاع أن يقتل ويصطاد ويستأنس ، واستعان بالشعر والريش فى توفير الحماية له .. وقاده التقليد والمحاكاة أن يتفوق على النموذج الأصلى .

وأدرك أن سبب قوته وسر تفوقه ليس خارج كيانه الضئيل ، ولكن سبب قوته وسر تفوقه داخله .. فى تفكيره ، فى تأمله ، فى ربطه أشياء بأشياء وتفكيك أشياء من أشياء ، وبتراكم الخبرات على مر آلاف السنين توصل إلى ابتكار واكتشاف أشياء عن طريق التفكير والتأمل ، وأخرى عن طريق الصدفة المخطط لها والصدفة غير المخطط لها .... برز إلى الوجود شيئا فشيئا ما يسمى العلم .

العلم يحل محل الإله

ولأن العلم حقق للإنسان نوعا من السيطرة والهيمنة والتحكم فى الطبيعة وجعله السيد الذي يملك بصورة أو بأخرى مقاليد الطبيعة ، فقد ضحى فى سبيله بالكثير والكثير ، وأحبه إلى درجة التقديس ؛ لأنه أغناه عن كل شئ ، حتى عن الإله الذي كان يتقرب إليه ويعبده ، فكل ما كان يطلبه من الإله من قوة وحماية وانتصار تحقق على يد العلم .

إذن فى فترة من الفترات حل العلم محل الإله ، وكانت مهمة العلم فى تلك الفترة – سهلة إلى حد ما ، لأنه كان يبحث فى جزئيات الكون ، أو تلك العلاقات بين مكونات هذا الكون .

وحينما ارتقى العلم وبدأ يلجأ إلى تفسيرات كلية تتسم بالشمول والعموم . وصل إلى طريق مسدود ، وسائله وأساليبه وتقنياته لم تجده نفعا فى هذا الأمر فهو قد تسامى مع العلل ، وعلة أوصلته لأخرى وهكذا ، **ثم وقف في النهاية متسائلا ومن معلل العلل ؟ ماهى العلة الأولى ؟**

لابد من وجود شئ مغاير لهذا الكون المادى خارج الكون ، والعلم إن لم يعترف بهذا فهناك فجوة كفيلة بأن تقوض كل بنيانه وبنائه ، إذن فهو مضطر ومجبر أن يضع تلك الإرادة العليا فى حسبانه ، تلك القوة التى تشكل وتنسق وتنظم وتهندس الكون .

" لقد كان نيوتن يؤمن بذلك ، فحاول أن يحتفظ بمكان للألوهية في نظامه الميكانيكى الخاص بالسموات ، ففى رسالة وجهها إلى الدكتور ريتشارد بنتلى ((richard pently)) في عام ١٦٩٢ أكد نيوتن على أن الله ضرورى لإحداث حركة الكواكب وإرساء البنية الأصلية للمجموعة الشمسية قائلا : ((إن حركة الكواكب الراهنة لا يمكن أن تكون قد انبثقت من أى علة طبيعية فحسب ، بل كانت مفروضة بفعل قوة عاقلة)) (١٧).

الغريب هنا أن فكرة الألوهية لا يفرضها العالم على النظام الكونى أو على ما استطاع أن يصل إليه من نظريات أو قوانين ، ولكن النظام والنظريات والقوانين هى التى تفرض عليه أن يقبل تلك الفكرة ، فتلك الفكرة لم تكن فى ذهنه ولم يكن يسعى إليها أو يبحث عنها ، ولكنه وجد أن كل ما أمامه من قوانين ونظريات وقضايا لا يتسق ولا يقبله منطق ولا يوافق عليه عقل إلا بإعطاء حيز أو مكان لفكرة الألوهية ، بل ارتكاز هذا النظام واعتماده عليها .

ومع ذلك فقد لاقت الفكرة معارضين ، وانقسموا إلى قسمين :

قسم وقف موقفا سلبيا .. لم يعترف ولم ينكر صراحة ، وقال إن قضية الإلوهية خارج ميدان العلم . **" هنالك مشاكل أعلق على حلها أهمية تفوق بما لا حد له تلك التى أوليها للمسائل الرياضية ، كتلك المتعلقة بالأخلاق أو بعلاقتنا بالله ، أو بقدرتنا ومستقبلنا ولكن حلها خارج كليا عن متناولنا ، وهو يقع كليا خارج ميدان العلم "** (١٨) .

قسم أبطل الفكرة من أساسها ، وقال صراحة إن الكون ليس فى حاجة إلى الله

فهو – الكون – آلة تدير نفسها بنفسها ، تحكمها الضرورة والصدفة فى أحسن تقدير ، وأن المادة أزلية وهى التى أوجدت نفسها ، ولم توجد بواسطة خالق . " الكون آلة تدير نفسها بنفسها وبالتالى لا تحتاج البتة إلى سبب فوق الطبيعة .. وإذا كانت المادة أزلية ، فلا يبدو إن هناك حاجة إلى خالق وهكذا اعتبر الكثيرون أن الإلحاد أدنى إلى الصدق وأكثر اتساقا مع النظرة العلمية القديمة " (١٩) .

ووصل الأمر بالبعض أن يعتبر فكرة الألوهية أو الدين بأنه وهم من الأوهام وأن الإنسانية هى التى اخترعت وخلقت الإله ، وليس العكس ، وذلك لإرضاء بعض الحاجات أو الغرائز المركوزة فى الطبيعة البشرية ، وإذا كان هناك من يتمسك بتلك الفكرة ويؤيدها ويعطيها من تفكيره واهتمامه الكثير فلأنه يمر بمرحلة طفولة فكرية أو وجدانية ، وسوف يتطور وينمو ويصل إلى مرحلة الفطام .

فالأمر فى حاجة إلى شجاعة وجرأة وصراحة منه أن يعترف بأنه ليس ثمة إله ، وأن يتصرف ويعيش على هذا الأساس .

" وفرويد هو أحد ممثلى هذا الموقف من الدين في النظرة القديمة فهو يعلن أن : « أديان البشر يجب أن تصف باعتبارها وهما من أوهام الجماهير » فالإنسان في الأديان إنما يبحث عن مهرب من الواقع ، ويتابع فرويد حديثه قائلا :

« إن الأفكار الدينية نشأت من ضرورة حماية الإنسان لنفسه من قوة الطبيعة المتفوقة والساحقة » والناس في رأى فرويد يميلون إلى الاعتقاد بوجود أب وراء هذا الكون لأنهم بوصفهم أطفالا بحاجة إلى رعاية أب . وهكذا فإن الإنسان هو الذي يخلق الله لا العكس ويضيف فرويد أن البشر « لابد لهم من أن يعترفوا لأنفسهم بكامل عجزهم وتفاهة دورهم في آلية الكون ، فهم لا يستطيعون

بعد اليوم أن يكونوا محور الخليقة أو موضع عناية إلهية خيرة)) وفيما يتعلق بالدين يتنبأ فرويد بأن ((هذه الطفولة ((infontalism)) مقدر لها أن تتجاوز بالتأكيد)) ويتحتم على الإنسان أن يتحلى بالشجاعة الكاملة للاعتراف بأنه وحيد في هذا الكون الفسيح واللاشخصى " (٢٠).

هؤلاء معارضون لفكرة الألوهية ، وهم معارضون باسم العلم ، وربما يكون لهم العذر فى ذلك فالعلم لم يزودهم بالوسائل أو بالنظريات ما يصلوا به إلى الاقتناع بفكرة الألوهية، وأن الله هو الخالق وهو الموجد ، وأن هذا الكون كله كان له بداية وأنه خلق من العدم ، ولكن حينما زود العلم الإنسان بنظريات وقوانين واكتشافات من خلالها استطاع أن يكون فكره شاملة أو نظرية عامة للكون ، وأصل نشأته وتطوره ، تمكن من الوصول إلى حقيقة كان ينكرها فى البداية ، أو كان غافلا عنها متعمدا أو ناسيا .

البرهنة رياضيا على وجود الله .

((النسبية)) استطاعت أن تخلق نوعا من التكامل فى النظرة إلى الكون ووحدت الزمان والمكان والمادة ، من خلال هذا الجمع استطاعت النظرية أن تبرهن أن للكون بداية وأن هناك من حدد زمان ومكان ونوع وكيفية تلك البداية ، ليكون هناك شئ ما ،أن يستمر هذا الشئ لغاية محددة . ليس هناك ضرورة ، وليس هناك صدفة ، وليس هناك أزلية للمادة ، هناك لحظة صدر فيها قرار وأمر أن يوجد هذا الكون .

" ((لقد علمنا أينشتاين أن المكان عنصر مشارك في الفيزياء ، لا ميدان للفيزياء فحسب)) والشئ نفسه ينطبق على الزمان وعملية التوحيد هذه زودت الفيزيائيين للمرة الأولى بأدوات البحث المفصل في بنية الكون بأكمله وفي أصله ومآله ، فبعد نشر النسبية العامة رأينا الفلكى ويلم دى سيتر

« willem desitter » والرياضى ألكساندر فريدمان «alexander friedmn »
يستنتجان من النظرية الجديدة كل على حده أن الكون آخذ في التمدد وسرعان ما ثبت ذلك بالمشاهدة . وخلال العشرينات من هذا القرن اكتشف الفلكى أدوين هبل « edwin hupple »أثناء تحليلة للضوء المنبعث من المجرات البعيدة أن جميع المجرات الممكن رصدها يتباعد بعضها عن بعض ، وكان هذا أول مفتاح لأسرار تاريخ الكون . فإذا كانت المجرات تتباعد الآن بعضها عن بعض فلابد إذا من أنها كانت في الماضى السحيق متحدة ، مما يدل على أن للكون بداية " (٢١).

برهان الفيزياء النووية

الشمس باعثة الضوء والدفء والحرارة على مدى ملايين السنين ركيزة أساسية من ركائز الحياة على الأرض ، لابد وأن تلفت نظر العلماء ... ما سر تلك الطاقة الهائلة المتجددة والمستمرة على مدى الدهر ، لا تفتر ولا تنطفئ ، لا يمكن أن يكون الذي يشتعل داخلها وقود عادى ، وإلا لكانت أحرقت نفسها وتحولت إلى رماد منذ أمد بعيد ، وإذا عرف مكونات الوقود فى الشمس ، سيعرف مكونات الكون ؛ لأن الشمس جزء من الكون ، وإذا عرف هذا ، فهذا دليل آخر أن للكون بداية .

" وأخيرا تمكن الفيزيائيان هانز بيته « hans pethe ») وكارل فون فايتز ساكر(« carl von weizsacker » في عام ١٩٣٨من تقديم تفسير كامل لكيفية انتاج الشمس للطاقة من خلال تحول العناصر النووية ففى قلب الشمس يتحول الهيدروجين إلى هليوم منتجا الطاقة والضوء وعلى مدى ملايين السنين كانت العمليات التى تتم داخل كل نجم تكون شيئا فشيئا لا الهليوم فحسب بل جميع العناصر الأثقل : الكربون والأكسجين والسليكون والحديد وسائر العناصر . وكان معنى ذلك أنه إذا كانت كل العناصر الثقيلة في الكون قد تكونت من الهيدروجين في قلوب النجوم فلابد إذا من أن الكون كله تقريبا كان مركبا في البداية من الهيدروجين وهذا يدل مرة أخرى على أن للكون بداية » (٢٢).

الانفجار العظيم (كيفية نشأة الكون)

من شأن الأدلة إذا تجمعت أن تقود إلى حقيقة هامة ، وهذا ما تم مع الدليلين تباعد المجرات ودورة حياة النجوم ، فقد توصل العلماء إلى نظرية تفسر تفسيرا علميا كيفية نشأة الكون .

- لا نستطيع أن نقول إن الكون نشأ فى لحظة معينة ، فلم يكن هناك زمان .
- ولا نستطيع أن نقول فى مكان ما ، فلم يكن هناك مكان .
- ولا نستطيع أن نقول إن الكون تكون من مادة فلم تكن هناك مادة .

إنما كان هناك آمر وأمر ، الآمر هو الله ، والأمر ((كـن)) فكان الكون مشتملا ومتضمنا الزمان والمكان والمادة والأسباب والكيفيات .... الخ .

والعلم يهتم بأمور :

- الزمان .
- المكان .
- المادة .
- الكيفية .
- الوضع الذي صار عليه الكون منذ البداية
- التطورات التى طرأت علي الكون .

فاستطاع العلم بأساليبه وتقنياته أن يحدد أن الانفجار بدأ تقريبا منذ ما يتراوح ما بين ١٢ و ٢٠ مليار سنة وكل المادة الخام كانت مضغوطة بقوة هائلة وفى مساحة فى حيز فى منتهى الصغر ، حيز يكاد يشغله بروتون واحد – هذا ما يقوله العلم – وبصدور الأمر – هذا من عندنا وليس من عند العلم – برزغ الكون أو خلق الكون فى شكل انفجار عظيم .

" وفي جزء من السكستليون (sextllion) (٦٠٠٠٠٠٠) من الثانية بعد البداية كانت كل المادة الموجودة في الكون معبأة في مساحة أصغر كثيرا من الحيز الذي يشغله بروتون واحد ، وكانت الكثافة في تلك المرحلة تفوق الخيال ، تصور أن الكواكب والنجوم والمجرات بكاملها وكل المادة والطاقة في الكون كانت جميعها محتواة في حيز لا يكاد حجمه يعادل شيئا . وفي لحظة الصفر من بداية الزمن كانت الكثافة غير متناهية دون حدوث أى تمدد في المكان على الاطلاق ، وكانت تلك اللحظة بداية المكان والزمان ، وينبغى ألا نتصور أن الانفجار العظيم أحدث تمددا في المادة في مكان قائم بالفعل ... فالانفجار العظيم هو نفسه تمدد المكان ، وهذا يمكن أن يفهمه العقل ، ولكن لا يمكن أن يتصوره الخيال " (٢٣) .

مع أن التعبير بلفظ (انفجار) لم يكن موفقا إلى حد ما ؛ لأن الانفجار يحمل إيحاءات بالتدمير والعشوائية وعدم التحكم وعدم السيطرة على الشئ المتفجر الانفجار نهاية ، بينما ما يسمونه (انفجار) كان بداية ومخطط له ومنظم ومتحكم فيه ، والأفضل التعبير بـ (الخلق العظيم) ؛ لأن بعد ذلك سيظهر ، أو سيستنتج العلماء أنفسهم أن كل ما حدث كان وفق خطة دقيقة منظمة منضبطة متحكمة فى أكبر الأجرام وأصغر الجسيمات ، نظام مهيئ لظهور الحياة ، وسمى ذلك بـ (المبدأ الإنسانى) ، وقد أكتشف الدليل على تلك النظرية حينما سجل إشعاع صادر من الانفجار الذي حدث وحدد بداية الكون .

" اكتشف أرنوبنزياس ((arno penzios)) وربورتويلسون ((ropert wilson)) في عام ١٩٦٥ بمحض الصدفة ، وباستخدام جهاز ضخم لالتقاط الموجات الصغرى ، إشعاعا ضعيفا منبعثا من الفضاء ، وبعد أن قاس بنزياس وويلسون هذا الإشعاع بدقة لم يسبق لها مثيل وجد أنه يقرب من ٣,٥ درجة فوق الصفر المطلق

ولم يمـن الإشـعاع أشـد كثافـة في اتجـاه الشـمس أو في اتجـاه مجـرة درب اللبانـة ((milby way))ولذا لا يمكـن أن تكـون المجموعـة الشمسـية أو المجرة مصدر هـذا الإشعاع الأصلى الناتج من ((الانفجار العظيم)) وهذا الدليل القائم على المعاينة أكد على نظرية الانفجار العظيم " (٢٤) .

البداية والمبدئ (ما قبل)

نجح العلم أن يصل إلى لحظة بداية الكون ، على الأقل قدم تفسيرا ، هناك دلائل وشواهد كثيرة ترجحه ، وطالما وصلنا إلى نقطة بداية الكون ، وتنظير تلك البداية ، يأتى السؤال : وماذا قبل البداية ؟

وطالما كان هناك بداية فهناك المبدئ ، وهو الذي حدد وقرر ونظم ونسق تلك البداية ، وإذا كانت البداية للمادة ، فالذى أوجدها غير مادى ، كان موجودا على الدوام .

" ولكن لابد من أن شيئا ما كان موجودا على الدوام ، لأنه إذا لم يوجد الآن فالعدم لا ينتج عنه إلا عدم . والكون المادى لا يمكن أن يكون ذلك الشئ الذي كان موجودا على الدوام ، لأنه كان للمادة بداية وتاريخ هذه البداية يرجع إلى ما قبل ١٢ إلى ٢٠ مليار سنة ، ومعنى ذلك أن أى شئ وجد دائما هو شئ غير مادى . ويبدو أن الحقيقة غير المادية الوحيدة هى العقل ، فإذا كان العقل هو الشئ الذي وجد دائما فلابد من أن تكون المادة من خلق عقل أزلى وهذا يشير إلى وجود كائن عاقل وأزلى خلق كل الأشياء ، وهذا الكائن هو الذي نعنيه بعبارة الله " (٢٥) .

الأعظم من عملية الخلق

هو استمرار الكون كله مليارات السنين ، واستمرار مقومات بقائه ، وتوافر المواصفات التي تساعد على وجود الحياة وازدهارها . وكأن الكون آلة عملاقة مضبوطة ضبطا دقيقا لنسج الحياة ، كل شئ بمقدار ، كل شئ بميزان بدون إفراط أو تفريط ، وأي تبديل أو تغيير – ولو طفيف – كفيل أن يقضي على الحياة . هذا النظام وتلك الإرادة تشمل أكبر الأجرام حتى أصغر الجسيمات .

" فالفيزيائي فريمان دايس ((freeman dyson)) يبين كيف أن القوى التي تربط بين النيوترونات والبروتونات في نواة الذرة لابد من أن تكون – حتى هي – على ماهي عليه كيما تصبح الحياة ممكنة . يقول : ((لو أن القوى النووية كانت أقوى بقدر طفيف مما هي عليه لوجد الدبروتون ، ولاتحد كل الهيدروجين الموجود في الكون تقريبا متحولا إلى دبروتونات أو نوى أثقل ، ولكان الهيدروجين عنصرا نادرا وتعذر وجود نجوم كالشمس تعيش طويلا باحتراق الهيدروجين في قلوبها احتراقا بطيئا . ومن وجهة أخرى ، لو كانت القوى النووية أضعف بقدر ملحوظ مما هي عليه الآن لما أمكن احتراق الهيدروجين مطلقا ولما كانت هناك عناصر ثقيلة وبالتالي لما وجدت الحياة . فإذا كان تطور الحياة كما يبدو مرجحا يتطلب نجما كالشمس يزود طاقة بمعدل ثابت طوال مليارات السنين فمعنى ذلك أن شدة القوى النووية كان لابد لها من أن تنحصر في نطاق ضيق نوعا ما لجعل الحياة ممكنة " (٢٦) .

كل شئ في الكون بحساب وبمقدار وبميزان ، لا شئ خاضع للصدفة ولا شئ خاضع للحتمية المادية ، فهناك الأسباب ، وهناك مسبب الأسباب إن شاء سارت الأسباب إلى غايتها ، وإن شاء أبطلها .

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا  ﴾ (الفرقان: ٢)

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾ (الرعد: ٨ – ٩)

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الحجر: ١٩ – ٢٠)

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾ (الرحمن: ٧)

موقف العلم من قضية الألوهية

مع أن ليس من مهام العلم البحث فى قضية الألوهية – كما قلنا سابقا إلا أنه مع ذلك قدم أدلة وبراهين تثبت تلك القضية ، وكان العلم حسن الحظ وكان موفقا توفيقا كبيرا فى هذا الأمر ، وأتيح له ما لم يتح لغيره ، فمجال عمله المادة فى كافة صورها وعلى جميع مستوياتها ، لذلك كانت تلك الأدلة والبراهين من القوة والإقناع بحيث لا يختلف عليها الكثيرون ؛ ذلك لأنها مستقاة من السنن الكونية والقوانين الطبيعية من ناحية ومن ناحية أخرى أنها نتيجة تراكم جهد عقلى إنسانى . ويلاحظ على تلك الأدلة والبراهين أنها لم يتوافر فيها عنصر القصد والجزء الأكبر من دوافع البحث ولاستكشاف كان دافعًا فطريًا عند العلماء ، لذلك أكبر الاكتشافات التى غيرت وجه العالم جاء عن طريق الصدفة ، أو لنقل الصدفة المخطط لها والمترصد بها .

" لم يكن الدافع إلى البحث في تركيب الذرة في بادئ الأمر هو الرغبة في استخدام الطاقة الكامنة فيها ، وإنما نشأ البحث في الذرة وتركيبها بدافع الرغبة في المعرفة باعتبارها حاجة فطرية وعقلية يميل العقل البشرى بطبعه إلى تحصيلها من أجل التعرف على أسرار الكون " (٢٧) .

وإنما وجد العلماء أنفسهم مدفوعين إلى قول كلمة فى هذه المسألة أو الاعتراف بتلك القضية للخروج من الطريق المسدود الذي وجدوا أنفسهم محصورين فيه ، أو أن ما بأيديهم من قوانين ونظريات لن يتسق أو لن يكتسب الطابع العقلانى إلا بإعطاء مكانٍ لتلك القضية على أقصى تقدير.

العلم واليقين

نسرف على العلم إسرافا شديدا ، ونكلفه من أمره شططا إذا طلبنا منه أن يصل بنا إلى درجة اليقين الإيمانى ، **والمفروض أن نسأل قبل ذلك هل يستطيع أن يصل العلماء إلى درجة اليقين العلمى ؟**

العلم نفسه لا يستطيع أن يصل إلى درجة اليقين العلمى ، طريق العلم بين أمرين الخطأ أو الصواب ، فكل تجاربه وقوانينه ونظرياته كان الأمران واردين بل كان احتمال الخطأ والفشل أكثر رجحانا ، وأكبر أمنياته وأكثر طموحاته أن يصل إلى درجة ما . أو درجة عالية من احتمال الصدق . وأمر اليقين لا يكون إلا مع العلوم الرياضية وهى تصل إليه لأنها لا تقدم جديدا .

" فإذا قلت : لكن العلم الطبيعى بهذا الاستناد إلى المشاهدة الحسية قد لا يبلغ درجة اليقين الرياضى ، أجابوك : ومن الذي يريد لقوانين العلوم الطبيعية يقينا رياضيا ؟ إننا لنكتفى فيها بدرجة عالية من احتمال الصدق إذ اليقين لا يكون إلا إذا كانت الجملة تحصيل لحاصل ، ولا تضيف إلينا علما جديدا فإذا كانت معادلات الرياضة يقينا ، فلأنها تكرر الشئ نفسه مرتين ، مرة على يمين علامة التساوى ومرة على يسارها وكل الذي يختلف فيه جناحا المعادلة هو الرموز التى صيغ بها كل منهما " (٢٨) .

إذن هو خط أحمر لا يستطيع العلم تجاوزه أو منطقة حرجة يجد العلم نفسه محصورا فيها إذا ما طولب بأن يصل إلى درجة اليقين العلمى لا سيما فى القوانين الفيزيائية . وأظن أن العلم بهذا قد وصل إلى درجة ما من اليقين بمعرفته بأنه عاجز أو قاصر فى الوقت الراهن – على الأقل – أن يصل إلى اليقين ، وأقصد أنه اطمأن أو استقر بأن كل إمكانياته وأساليبه وأدواته ، كل هذا له حد يقف عنده ، كل الاحتمالات قائمة ، الخطأ وارد كما أن الصواب وارد أيضا ، حتى فى القوانين الفيزيائية والتى تتعامل مع المادة بكل صورها ، فكرة التحكم الكامل والسيطرة المطلقة قد تداعت وتقوضت بما تم اكتشافه من قوانين والوصول إليه من نظريات ليس هناك حتمية علمية ، ليس هناك مطلق ، ليس هناك نظام آلى صارم مطرد . وبوصول العلم إلى هذا أحدث نقلة نوعية فى مسيرة العلم .

" ولكن بحلول عام ١٩٠٠م وبعد أن ظن العلماء أن كل القوانين الفيزيائية قد اكتشفت على ما يبدو وظهر ما لم يكن في الحسبان واضطر العلماء إلى اقتحام عوالم جديدة على مستوى الذرة ونواتها وعلى مستوى الأجرام السماوية وحشودها ، وانبثقت فيزياء جديدة تتعامل مع عالم المتناهيات في الصغر وعالم المتناهيات في الكبر وواجه العلماء نتائج عملية جديدة بحاجة إلى تفسير جديد غير مألوف عندهم سابقا ، واكتشف بلانك وهيزنبرغ وغيرهما نظرية الكم quantumt theory .

كما استحدث أينشتين نظرية النسبية relativity الخاصة والعامة وقد أدت هذه الفيزياء الجديدة التى ظهرت مع أوائل القرن العشرين وعرفت باسم ((الفيزياء الحديثة)) modern physics إلى زعزعة ما كان يسمى بـ ((الحتمية العلمية)) scientific determinism وبدأ الحديث عن الاحتمالية والنسبية وعدم اليقين والفوضى وغير ذلك من المصطلحات والمفاهيم التى تميزت بها فيزياء القرن العشرين ، وتوالت النظريات الفيزيائية الكبرى التى دفعت بمسيرة هذا العلم قدما

وانعكست آثارها المباشرة على حياة الناس وفهمهم لطبيعة العصر الذي يعيشون فيه " [٢٩] .

وكلما اكتشف العلم سرا أو أزال اللثام عن خفى أو جلى غامضا فتح الباب عن عوالم من الأسرار فى حاجة أن تكتشف . وإذا كان العلم فى القرن الحادى والعشرين قد انجز مشاريع لم يقدر له أن ينجز مثلها فى القرون السابقة ، فإن مساحة المجهول أمامه تتسع كلما تقدم للأمام ، وأدرك أن ما توصل إليه يعد قطرة فى محيط هذا العالم الذي لم يتم اكتشافه . حتى ما وصل إليه العلم الآن هناك أمور غامضة وأسئلة لا يجد لها إجابة ، وأغلب تلك الأسئلة خاصة بنا نحن كبشر ، نحن لا نعرف ما يدور داخلنا ... فى خلايانا ، فى أنسجتنا فى أعصابنا .

" وواقع الأمر أن جهلنا مطبق . فأغلب الأسئلة التى يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب لأن هناك مناطق غير محدودة فى دنيانا الباطنية ما زالت غير معروفة .. فنحن لا نعرف حتى الآن الإجابة على أسئلة كثيرة مثل :

- كيف تتحد جزئيات المواد الكيماوية لكى تكون المركب والأعضاء المؤقته للخلية ؟
- كيف تقررالجينس الموجودة فى نواة البويضة الملقحة صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة ؟
- كيف تنتظم الخلايا فى جماعات من تلقاء أنفسها مثل الأنسجة والأعضاء ؟ فهى كالنمل والنحل تعرف مقدما الدور الذي قدر لها أن تلعبه فى حياة المجموع ، وتساعدها العمليات الميكانيكية الخفية على بناء جسم

بسيط ومعقد فى الوقت ذاته ... ما هى طبيعة تكويننا النفسانى والفسيولوجى ؟

- أننا نعرف أننا مركب من الأنسجة والأعضاء والسوائل والشعور، ولكن العلاقات بين الشعور والمخ ما زالت لغزا ... إننا ما زلنا بحاجة إلى معلومات كاملة تقريبا عن فسيولوجية الخلايا العصبية ... إلى أى مدى تؤثر الإرادة فى الجسم ؟
- كيف يتأثر العقل بحالة الأعضاء ؟

على أى وجه تستطيع الخصائص العضوية والعقلية التى يرثها كل فرد أن تتغير بواسطة طريقة الحياة والمواد الكيماوية الموجودة فى الطعام والمناخ والنظم النفسية والأدبية ؟

أننا مازلنا بعيدين جدًا من معرفة ماهية العلاقات الموجودة بين الهيكل العظمى والعضلات والأعضاء ووجوه النشاط العقلى والروحى ... ما زلنا نجهل العوامل التى تحدث التوازن العصبى ومقاومة التعب والكفاح ضد الأمراض .

أننا لا نعرف كيف يمكن أن يزداد الإحساس الأدبى وقوة الحكم والجرأة .. ولا ماهية النسبية للنشاط العقلى والأدبى ، كذا النشاط الدينى ؟

أى شكل من أشكال النشاط مسئول عن تبادل الشعور أو الخواطر ؟ **لا** شك مطلقا فى أن عوامل فسيولوجية وعقلية هى التى تقرر السعادة أو التعاسة النجاح أو الفشل ، ولكننا لا نعرف ما هى هذه العوامل .

أننا لا نستطيع أن نهب أى فرد ذلك الاستعداد لقبول السعادة بطريقة صناعية ، وحتى الآن لا نعرف أى البيئات أكثر صلاحية لإنشاء الرجل المتمدن

وتقدمه ... هل فى الإمكان كبت روح الكفاح والمجهود ، وما قد تحس به من عناء بسبب تكويننا الفسيولوجى والروحى ؟ كيف نستطيع أن نحول دون تدهور الإنسان وانحطاطه فى المدينة العصرية ؟

وهناك أسئلة أخرى لا عداد لها يمكن أن تلقى فى موضوعات تعتبر على غاية الأهمية بالنسبة لنا ولكنها ستظل جميعا بلا جواب ... فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان ما زال غير كاف وأن معرفتنا بأنفسنا مازالت بدائية فى الغالب " (٣٠) .

فنحن كالأطفال نسعد سعادة لا حد لها إذا عرفنا شيئا كنا نجهله ، ونقيم الدنيا ولا نقعدها إذا فسرنا شيئا كان يلفه الغموض ، ونوزع الأوسمة على هؤلاء الذين تم على أيديهم الاكتشافات وتوصلوا إلى استنباط القوانين وصياغة النظريات ... وكل هذا شئ محمود فى حد ذاته . ولكن سيظل السؤال ما الذى مازلنا نجهله ، وليس ما الذي تم معرفته ؟

نعم وصل العلم إلى ما دون الذرة بمراحل ، وتم التحكم والتدخل فى تشكيل المادة تشكيلا عظيما ، استخدم هذا العلم فى أحيان فى التدمير والإفناء مما روع البشرية وجعل الذعر يسيطر عليها ، كذلك استخدم فى أحيان فى البناء والتعمير مما أدهش من قدرته للوصول لتلك الدرجة من الابتكار والاختراع .

وكذلك وصل إلى ما دون الخلية بمراحل ، وعرف كيف تخلق الخلية نفسها وقام العلماء أنفسهم بنسخ مثل تلك الخلية حينما تم معرفة أسرار الـ ((د. ن . أ)) و ((ر. ن . أ)) وما تبع ذلك ، وتقدم الأمر إلى أن تم نسخ حيوان وسمعنا بعض المزاعم والدعوات هنا وهناك ، انهم طالما نجحوا فى هذا الأمر ، فهم

بسبيلهم إلى نسخ الإنسان نفسه على أى نوع يريدونه من خلال تنحية بعض الصفات الوراثية والقضاء عليها ، أو تنمية صفات أخرى وتشجيعها لولا أنه هناك بعض المحاذير الخلقية ، والخوف من أن يستغل ذلك استغلالا سيئا ويستثمر استثمارا مدمرا هم ما منع ذلك .

ومع كل ذلك فهناك جوانب خفية نعلم بوجودها ولكن لا نتمكن من دراستها أو معرفة كيفية عملها ، وهناك عقبات تمنع من دراستها لأنها لو تنولت بالدراسة ستتلف وينالها العطب " **إن دراسة الظواهر الفسيولوجية الحقة – أى تلك الظواهر التى تنتج من تنظيم الكائن الحى – تواجه عقبات أكثر أهمية إذ إن شدة ضآلة الأشياء التى يجب تحليلها تجعل من المستحيل استخدام الفنون العادية لعلمى الطبيعة والكيمياء فأى طريقة يمكن أن تكشف القناع عن التركيب الكيميائى لنواة الخلايا الجنسية والكروموسومات والجنيس (ناقلات الوراثة) التى تؤلف الكروموسومات ؟**

مهما يكن ، إن المجموع الكلى للمواد الكيميائية شديدة الضآلة على أعظم جانب من الأهمية لأنها تحتوى على مستقبل الفرد والجنس ... كما إن قابلية أنسجة معينة لسرعة العطب ، مثل المادة العصبية ، عظيمة إلى درجة أن دراستها في حالة الحياة مستحيلة تقريبا ... ونحن لا نملك أى فن يمكننا من النفوذ إلى أعماق المخ وغوامضه ، وإلى الاتحاد المتناسق بين خلاياه ، وعقلنا الذي يحب ذلك الجمال البسيط للتراكيب الحسابية ، ينتابه الفزع حينما يفكر في تلك الأكداس الهائلة من الخلايا والأخلاط والإحساسات التى يتكون منها الفرد " (٣١) .

العلم بين مسألة الجبر والاختيار

هناك مسائل يظن أنها بعيدة عن العلم ، أو أن العلم لا دخل ولا كلمة له فيها ، مع أنها فى حقيقة الأمر من صميم اختصاص العلم ، ورأى العلم فى غاية

الأهمية ، بل يعتبر من المراجع المهمة والمعتمدة فى هذا الأمر . مثل رأيه فى مسألة الجبر والاختيار .

فالكثيرون يقصرونها على علماء الدين ، وأنهم – وحدهم – لهم حق الكلمة الأولى والأخيرة ، مع أن أهمية المسألة وتعلقها بالوجود الإنسانى ، وتحديد شكل ونوعية هذا الوجود، يجعل هناك متسعا أن يقول العلم كلمته وتقول الفلسفة كلمتها ويقول التصوف كلمته ، وليس هناك من حجر على أحد . فحينما يتعلق الأمر بالوجود وبالحياة لا أحد من البشر يملك أن يصادر رأى الآخرين . وكلمة العلم فى أى أمر من الأمور لا يستهان بها ؛ لأنها تستند على التجربة ، وأنه لاتبدأ من فراغ وإنما تتواصل مع ما قبلها وتضع نفسها فى سياق ممتد ومطرد لحركة العقل الإنسانى ، وأنها تضع نفسها لنيران النقد والتمحيص والاختبار حتى تستطيع أن تصمد أمام كل الاعتراضات ، ومع ذلك فأحيانا كثيرة لا يتوافر لكلمة العلم مثل تلك المواصفات .

ورأى العلم فى تلك المسألة يختلف باختلاف مبدأ أو نظرة العلماء فالماديون يعتبرون أن الإنسان جهاز معقد ، وفى الإمكان معرفة خريطة عمل هذا الجهاز حينما نعرف وظائف الأعضاء ، وكذلك الغدد وإفرازاتها ... الخ وهنا لا فرق بين سلوك إنسان وسلوك حيوان وفى الإمكان التنبؤ بما سيفعله الإنسان بنفس السهولة التى نتنبأ بها بما سيفعله الحيوان ، الإنسان تبعا لتلك النظرة خاضع لطبيعته المادية أو إن شئت لطبيعته الحيوانية ، هنا لا مكان للإرادة الإنسانية أو الضمير أو المشاعر والأحاسيس السامية .

أمـا الـذين أعلـوا مـن شـأن العقـل واعترفـوا بحريـة الإرادة الإنسـانية فيعتقدون أن الذى يشكل الوجود هى القوانين التى تحكم الطبيعة بما فيها الإنسان وما يحدث فى الكون يسير وفق قانون الحتمية أو مبدأ الحتمية . وهنا لا مكان للإله الذى يحكم ويتصرف ويخضع الكون لمشيئته ، وإنما الكون خاضع لإرادة ومشيئة القوانين .

" فالقائلون بالمادة وحدها قالوا : إن أعمال الإنسان كلها آلية يستطاع تفسيرها بالتفاعل بين وظائف البدن وأخلاطه ولا فرق في أساس هذا التفسير بين تصرف الإنسان والحيوان .

والقائلون بالعقل أنكروا إمكان تفسير الظواهر العقلية كلها بالحركات الآلية التى تعمل في الأجسام ، وقالوا بحرية الإرادة الإنسانية في كثير من الأعمال ، وحلت الحتمية الحديثة determinism محل الجبرية القديمة fotolism في اصطلاح العلماء . فالقائلون بالحتمية يقولون بها لأنهم يؤمنون بالنظم الآلية وحدها ولا يؤمنون بإرادة إلهية مناقضا للقول الجبرية في كلام علماء الأديان ، لأن الجبرية تحصر الإرادة كلها في الإله المعبود ، أما الحتمية فهى على الأقل لا تستلزم وجود إله إلى جانب القوانين التى يفسرون بها حركات الوجود " (٣٢) .

- واطرد تقدم العلم الطبيعى ، وكثرت القوانين والنظريات ، وكلها تهدف إلى تفسير ظواهر الطبيعة ، رائدهم فى ذلك الحتمية التى تساوى بين العضوى وغير العضوى ، بين الجماد والحى ، غير واضعين فى الحسبان الإرادة الإنسانية أو مشيئة الله فى الكون .

سقوط مذهب الحتمية

الحرية والاختيار مبدأ سارى فى الوجود ، ويتفق مع سنن الخلق والطبيعة وهذا يثبت الإرادة الإنسانية الحرة ، وهذا بدوره يبرهن على وجود الخالق الذى منح

الإنسان تلك الإرادة ، ووضع أمامه البدائل لتكون محكا لتلك الإرادة ، وليشعر من خلالها الإنسان بمدى مسئوليته الخلقية والعقلية .

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾(الشمس: ٧ - ١٠)

وأى مذهب يتعارض مع هذا المبدأ لابد أن ينهار ، ولا يبقى منه شئ ، وهذا ما حدث لمذهب الحتمية ، فقد تمت كشوف فى أوائل القرن العشرين فى مجال الذرة ، وعلى يد علمائها .

" وذلك هو الكشف الذى جاء به العالم الدنمركى نيلز بوهر صاحب جائزة نوبل للعلوم في سنة ١٩٢٤ فمن المعلوم أن الذرة قد وصفت في أقوال العلماء الطبيعيين بأنها منظومة كالمنظومة الشمسية تشتمل على نواة كالشمس وكهارب تدور في فلك النواة كما تدور السيارات على وجه التمثيل والتقريب ،وأن الإشعاع يحدث من انتقال كهرب من فلك عامل إلى فلك آخر أقل منه عملا أو أقل منه في الطاقة على حسب تعبير الطبعيين ، فجاء بوهر وقرر أن الكهرب ينتقل من فلك إلى فلك بغير قانون معلوم ، وأن ألوف التنقلات لا يشبه بعضها بعضا ولا يمكن التنبؤ عن وقوعها ولا عن سبب وقوعها على أى أساس يمكن أن يسمى باسم القانون المطرد .

وجاء بعده أوجست هيزنبرج العالم الجرمانى صاحب جائزة نوبل سنة ١٩٣٢فذهب في إنكار الحتمية مذهبا أبعد من هذا وأفعل في إثارة الشكوك القوية من حولها . فقرر أن التجارب الطبيعية لا تتشابه على الإطلاق ولا تأتى تجربة منها وفاقا للتجربة الأخرى تمام الموافقة ولو اتحدت الآلات والظروف وسمى مذهبه هذا ((باللاحتمية)) indeteminacy لأنه ناقض به قول الحتميين كل المناقضة في صميم تركيب المادة ، وهو تركيب الذرة وحركة الإشعاع .

وبلغ من وثوق بعض العلماء بصحة هذه التجارب أن عالما كبيرا كالسير أرثر أدنجتون أعلن أن الأمر فيها قلما يحتمل الخلاف ، فقال :

((لا أعتقد أن هناك انقساما ذا بال في رأى القائلين بهبوط مذهب الحتمية . فإن كان هناك انقسام ذو بال في رأى القائلين بهبوط مذهب الحتمية ، فإن كان هناك انقسام في هذا الصدد بين المشتغلين بالعلوم ، فإنما هو انقسام الراضين والآسفين ، فأما الآسفون فهم بطبيعة الحال يرجون أن تعود الحتمية إلى مثل مكانها الذى كانت تشغله في العلوم الطبيعية ولعلهم لا يرجون المستحيل ولكنى لا أرى سببا لتوقع رجعتها في أى شكل وعلى أى صورة)) .

ويضاف إلى هذا جميعه أن المادة قد انتهت إلى شعاع وان الشعاع أوشك أن يدخل في حساب الحركة المجردة التى يرصد جانب منها بالحساب ويدق جانبها الأكبر عن الحساب والتخمين " (٣٣) .

إذن مع أصغر الجسيمات التى توصل إليها العلم حتى الآن لا تخضع لحتمية أو لجبر من أى نوع ما ، وكأن عنصرى الحرية والاختيار متأصلان فى الخليقة فلا يستطيع العالم أن يرصد الإلكترون فى لحظة ما وفى مكان ما ، ويكون على يقين من هذا الرصد ، لأن مجرد هذا الرصد أو المراقبة تؤدى إلى تغيير موضوع الرصد والمراقبة

" بمعنى أنه لا يمكن لأى ملاحظ أو مراقب أن يحدد بدقة مطلقة كلا من موقع الجسيم وكمية تحركه في اللحظة نفسها ، فكلما زادت دقة تحديد موقع الجسيم نقصت دقة تحديد كمية تحركه ، وقد كان الفيزيائى الألمانى فيرنز هيزنبرغ أول من لفت الأنظار على اللايقين أو عدم التعيين uncertainty باعتباره مظهرا أساسيا من المظاهر الطبيعية للالكترون أو لأى جسيم آخر ، وأفاد الدنماركى نيلزبور من هذا في تطوير تفسيره لبنية الذرة باعتبار أن مجرد مراقبة الشئ تؤدى إلى تغييره " (٣٤) .

ولا يستطيع العالم أن يتخلص من مبدأ اللاتعيين أو عدم اليقين بأن يزيد من دقة الأجهزة التى تقوم بالرصد أو المراقبة أو القياس . أو أن يزيد من نسبة دقته وحرصه فى المراقبة والقياس ، لأن الأمر لا يتعلق بذاتية العالم أو بدقة أو عدم دقة

أجهزة ، أو كفاءة جهاز عن جهاز الأمر يتعلق بطبيعة الجسيمات ، فهو لا يراقب شيئا ثابتا أو جامدا ولكنه يراقب شيئا متحركا ، وليس هناك نظام ثابت أو محدد لتلك الحركة ، ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بحركته القادمة .

" وطبقا لمبدأ الارتياب أو عدم اليقين ، فإنه لا يمكن تخفيض حدود اللادقة أى لا يمكن زيادة دقة تعيين الموقع أو كمية الحركة بزيادة دقة جهاز القياس أو طريقته ، ولا يمكن التخلص نهائيا من الاضطرابات أو التشويشات noises التى قد تحدث أثناء القياس ، فعدم اليقين هذا ليس أمرا ذاتيا ، ولكنه موضوعى يتعلق بطبيعة الجسيمات الأولية وبنيتها المعقدة " (٣٥) .

النظام أهم أساس من أسس الحرية

- ✓ لا حتمية ولا جبرية ولا تعيين ولا يقين .
- ✓ إذن البديل عن ذلك الفوضى والتشتت .
- ✓ وهذا الذى يجعل النظام قرين الجبر والقسر .
- ✓ والحرية قرين الفوضى والارتجال .

مع أنك لا تستطيع أن تمارس حريتك إلا من خلال النظام ؛ لأن الحرية فى أسمى معانيها نوع من الالتزام والمسئولية ، وتحديد المسئولية لا يتأتى إلا من خلال النظام ، والذى يخلق النظام أو يهيئه فى هذا الكون ، تلك الثوابت التى تحفظ للشئ كيانه ، فلا بقاء للكون ولا استمرار للحياة بدون ثوابت تدعم البقاء والاستمرار ، وهنا قد يحدث خلط بين الثوابت والحتمية والجبرية ، فالثوابت هى التى تخلق نظامية الكون ، بينما الحتمية والجبرية هى التى تجمد كل حركة وتسلب الحياة من كل شئ تصل إليه .

" إن الثوابت الفيزيائية للكون تقع ضمن مجال ضيق جدا ، وإذا انحرفت هذه الثوابت (مثل كتل الجسيمات تحت الذرية المختلفة وعمليات اقترانها) قليلا فستدب الفوضى وستكون الحياة مستحيلة ، سيتفكك البروتون وستصبح النواة غير مستقرة ولن تتمكن الـ ((ال. د. ن)) من التشكل ، وأن تحدث حياة مبنية على عنصر الكربون على ظهر الأرض .

ولا يعد هذا لغوا تافها ، فلقد وجد حتى الآن ان كل ثابت فيزيائى مهم اختبر يقع ضمن هذه المنطقة الضيقة التى تلائم وجود الحياة ، ويدعى هذا بالمبدأ الإنسانى الذى يتلخص في أن الثوابت الفيزيائية تجعل الحياة ممكنة ، لقد رد بعض العلماء بان هذا الأمر مجرد مصادفة . ولكن من الصعب تصديق ذلك ، كما ناقش آخرون أن هذا يوحى بوجود عناية كونية اختارت هذا الكون لكى تكون له تلك الثوابت الفيزيائية ، بحيث تتيح نشوء الحياة والوعى " (٣٦) .

إذن الحرية تستدعى مسئولية ، والمسئولية تستوجب نظام والنظام يستند على ثوابت ، والثوابت هى التى تساعد على بقاء الكون ونشوء الحياة واستمرارها وكل هذا محال أن يتم وفق مبدأ الصدفة . كل هذا التسلسل والنظام من تقدير حكيم مبدع ، هو الذى خلق وقدر ونظم وأبدع .

ولأنه مريد فقد منح الإرادة للإنسان والحرية فى الإختيار وفق النظام الذى يحفظ للإنسان إرادته وحريته ويبقى عليه حياته ، وبهذا المنطق نستطيع أن نضع مسألة الجبر والاختيار فى مكانها الصحيح من الزاوية العلمية ، وكذلك نضع الحتمية العلمية فى وضعها الصحيح .

" فالحتمية العلمية لا تثبت لقوانين المادة أنها تنفرد بتفسير كل سر من أسرار الطبيعة وكل حركة من حركات الأجسام ، ولا تزال تعمل حيث تعمل ومعها متسع للاختيار فى أصغر الذرات فضلا عن أعظم الأجرام . وهى لا تمنع المؤمن أن يقول مع العلم كما يقول مع الدين:



﴿.........عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾ [سبأ:٣]

وليس معنى ذلك أن الكون يجرى على غير نظام وإنما معناه أن النظام لا يمنع الاختيار ولا يغلق الباب على الإيمان "(٣٧) .

إن كل اكتشاف يكتشفه العلم يعتبر بابا جديدا أو طريقا يصل من خلاله إلى الله ، فإن شاء فتح هذا الباب وسار فى هذا الطريق ليصل إلى حقيقة الحقائق أو الحقيقة الكبرى فى هذا الكون وهو الله .

المراجع

(١) الكون في قشرة جوز – تأليف : ستيفن هوكنج ترجمة : مصطفى إبراهيم فهمى –صفحة – (١٢).

(٢) عقائد المفكرين في القرن العشرين – عباس محمود العقاد – صفحة (٤) .

(٣) العلم في منظوره الجديد – روبرت م . أغروس ، وجورج ن . ستانسيو ترجمة د. كمال خلايلى (١١).

(٤) المصدر السابق – (٧و٨) .

(٥) المصدر السابق – (٨) .

(٦) المصدر السابق – (٢٠) .

(٧) الكون – د. كارل ساغان – ترجمة نافع أيوب لبس (٢٩١) .

(٨) العلم في منظوره الجديد – (٢١) .

(٩) المصدر السابق – (٢١) .

(١٠) الفلسفة القرآنية – (١٠) .

(١١) المصدر السابق – (٢١- ٢٢) .

(١٢) المصدر السابق – (٢٣) .

(١٣) المصدر السابق – (٢٦) .

(١٤) المصدر السابق – (٣٤) .

(١٥) المصدر السابق – (٤١) .

(١٦) المصدر السابق – (٤٣) .

(١٧) المصدر السابق – (٥٨) .

(١٨) المصدر السابق – (٥٨) .

(١٩) المصدر السابق – (٥٨) .

(٢٠) المصدر السابق - (٥٨- ٥٩).

(٢١) المصدر السابق - (٥٩ - ٦٠).

(٢٢) المصدر السابق - (٦٠).

(٢٣) المصدر السابق - (٦١ - ٦٢).

(٢٤) المصدر السابق - (٦١).

(٢٥) المصدر السابق - (٦٤ - ٦٥).

(٢٦) المصدر السابق - (٦٧).

(٢٧) **من الذرة إلى الكوارك** - تأليف سام تريمان - ترجمة د. أحمد فؤاد باشا (١٦).

(٢٨) **طبيعة القانون العلمي** - تأليف أحمد فرحات عمر - من مقدمة للدكتور: زكي نجيب محمود -(٥ و٦).

(٢٩) المصدر السابق - (٨).

(٣٠) **الإنسان ذلك المجهول** - تأليف : ألكسيس كاريل - (١٧- ١٨- ١٩).

(٣١) المصدر السابق - (٢٣).

(٣٢) **الفلسفة القرآنية** -عباس محمود العقاد - (١٢٣).

(٣٣) المصدر السابق - (١٢٤).

(٣٤) من الذرة إلى الكوارك - (١١).

(٣٥) المصدر السابق (١٢).

(٣٦) **رؤى مستقبلية** - تأليف : ميتشيو كاكو - ترجمة : د . سعد الدين خرفان - (٤٥٥).

(٣٧) الفلسفة القرآنية - (١٢٤).

الباب الرابع

الفلسفة تبحث عن اللّه

كل حديث الفلسفة عن الذات الإلهية ليس شاهدا
على
شئ إلا على تطور ورقى العقل الإنسانى نحو تصور
الذات الإلهية ، يصلح كجانب تاريخى لمراحل نمو
ورقى العقل ، إنما لا يفيدنا بشئ في معرفة الله ، فبحث
الفلسفة في هذا المجال لم يصل إلى شيء .



الحقيقة واحدة

هل اختلاف الحضارات واختلاف الثقافات مرده موقفهما من فكرة الألوهية . وعدم الفهم الحادث بين المجتمعات سببه اختلاف زاوية ووجهة النظر إلى تلك الفكرة ؟

فتلك الفكرة هى عماد الوجود الإنسانى ، أو الأساس الأوحد التى يبنى عليها أى نسق من الأنسقة الفكرية ، وبالتالى هى التى تحدد كافة الأنشطة الفكرية واتجاهاتها ومدى رحابتها أو ضيقها فى الفهم .

" فإن كل قضية فلسفية لابد أن تنبع أساسا وضرورة من فكرة الألوهية التى هى الغاية القصوى وسدرة المنتهى لكل تفكير فلسفى مهما كان نوعه " (١).

أم أن اختلاف الحضارات والثقافات هو الذى خلق وأوجد تعدد واختلاف النظرة إلى الفكرة ؟

نلاحظ أن أغلب المذاهب الفلسفية لم تحدد موقفها من الفكرية الألوهية بداية ، ربما عن غفلة ، أو عن إهمال متعمد ، أو رأت أن ترجئ تحديد موقفها إلى حين .

وبعد أن استكملت تلك المذاهب أبنيتها ، وحددت اتجاهاتها ، وجدت أن كل هذا لا يكتمل ولا يكسبها صفة المصداقية والحق والتوافق والتناغم مع العقل الإنسانى إلا بواحدة ، هو تحديد موقفها من الفكرة .

وتلك المذاهب أخطأت خطأ عظيما فى حق نفسها أولا وفى حق الإنسانية ثانية .

- **أما الخطأ** : فالشئ الذى بدأت تبحث عنه أو فيه فى النهاية كان يجب أن تبدأ به قبل أى شئ .

- **أما الخطأ** : فى حق نفسها فقد أوجدت نوعا من التناقض الداخلى فى بنائها الفكرى ، أو أحدثت ثغرة لم تستطع أن تجد لها تبريرا .
- **أما الخطأ** : فى حق الإنسانية ، فإن الإنسانية أعطت لتلك المذاهب كل ثقتها إلا أن المذاهب لم تستطع أن ترضى الرغبة الملحة النبيلة ، والشوق الجارف لدن الإنسانية إلى خالقها ، فتلك المذاهب غيبت الفكرة زمنا طويلا أو وضعتها فى الهامش من اهتماماتها .

وربما الذى سوغ لتلك المذاهب أن تقف هذا الموقف من الفكرة مبدأ الحرية فكل القيود أو الالتزامات الخلقية أو وضع حدود لكل شئ فى حياة الإنسان نابع أساسا – فى رأيهم – من ((الله)) ، وهم يرفضون كل تلك القيود أو الالتزامات ؛ لأنهم يريدون تشكيل وصياغة الوجود الإنسانى كما يشاءون ، وبكل حرية بدون تدخل من أى سلطة أو من يمثل تلك السلطة دينية كانت أو دنيوية ، وربما يكون موقفهم هذا رد فعل لتلك الأزمنة المظلمة التى عانت فيها الشعوب والأمم معاناة مريرة من تعسف وتعنت السلطة الدينية أو الدنيوية ، ومن جراء ذلك جمد وتوقف العقل الإنسانى عن الإبداع والابتكار ، بل تحجر وسيطرت الخرافات والتفسيرات أو المبررات الغيبية والتى من شأنها أن تعضد وتزيد من قوة وسيطرة تلك السلطتين .

ولكن ما علاقة تلك السلطتين بفكرة الألوهية ؟

العلاقة وثيقة ؛ لأن تلك السلطتين كانتا تستمدان نفوذهما من تلك الفكرة فهما مفوضتان من عند الله ، وهذا هو الرصيد أو المخزون أو السلاح الذى تستخدمه السلطتان .

وحينما أراد الفلاسفة تحطيم تلك القيود ، وجهوا كل هجومهم على هذا الرصيد لمحاولة تعرية السلطة ، أو إضعافها ، بأن حاولت إثبات زيف هذا الرصيد وعدم جدوى هذا المخزون ، وبذلك ألغت أو أبطلت أو غيبت فكرة الألوهية .

وأشد المذاهب تمسكا بمبدأ الحرية ستجدها أشد المذاهب إنكارا للفكرة . وفى الحقيقة هم لا ينكرون الفكرة ، بقدر ما ينكرون الأشكال السلطوية التى كانت تترمز أو تتلفع بتلك الفكرة ، لأن تلك الأشكال بمرور الوقت سقطت ولم يعد لها وجود ، أو لها وجود ولكنه هامشى ليس له تأثير كبير ، ومع ذلك ظلت تلك المذاهب تتخذ هذا الموقف المعادى أو الحاد من الفكرة ؛ لإحساسها أن تلك الفكرة لها سطوة وسلطان على النفس الإنسانية ، مساحة أو منطقة ليس للعقل فيها كلمة أو رأى أو وجود ، لذلك فهى ليست مبررة ... وهو ما نسميه بـ ((**الإيمان**)) .

لذلك أصبح أمام تلك المذاهب خياران :

- قبول فكرة (الألوهية) وما يستتبعها من قيود فكرية والتزامات خلقية وقبول شئ غير مبرر عقليا .
- أو رفض تلك الفكرة من أساسها .

وكان هذا مأزقا وجدت المذاهب نفسها محصورة فيه ، فلا تستطيع أن تقبل وكذلك لا تستطيع أن ترفض . ولكن لم يطل الأمر ، وخرجت من هذا المأزق بعدم القبول وعدم الرفض ، بأن اعترفت أن تلك المساحة أو المنطقة ((**الإيمان**)) ليست من مباحثها ، وليست من الموضوعات أو القضايا المهتمة بها ، وحدث فصل حاسم ، لا أريد أن أقول بين العقل والإيمان ، أو الواقعى واللاواقعى ، لأن هذا الفصل شئ لا يستطيعه أحد ، غير جائز ولا مسوغ له ، وقد تم لا لشئ إلا للخروج من هذا

المأزق ، وقد لا تكتشف الفلسفة أنها خرجت من مأزق لتقع فى مأزق أكبر وأخطر فحينما قامت بهذا الفصل أحدثت صدعا وتناقضا فى الوجود الإنسانى ، فهناك مساحة من الوجود معترف بها ، وهى تلك المساحة المعقولة الخاضعة للعقل والتفسير والتبرير.

وهناك مساحة غير معقولة ، غير خاضعة للتفسير والتبرير. وتم تقسيم ما لا يقسم ، وتجزئة ما لا يجزئ.

إن هذا الاعتساف فى التفريق بين هذين الوجودين المتقابلين قد عطل العقل زمنا طويلا عن فهم حقائق التكليف وحقائق الأديان . إن العقل ليعلم اليوم أن ذرات التراب وذرات الضياء من معدن واحد ، وأن الحجر اليابس يتفتت فإذا هو شعاع ، وأن الشعاع المنطلق ينعقد ويتقابل فإذا هو حجر ، وان الفيصل بين ضياء الفلك وضياء العقل قائم لا شك فيه ، ولكن لا شك كذلك فى خفاء هذا الأمر على العلم كخفائه على الإيمان .

فماذا يقول العالمون بالذرة من ((المؤمنين)) بالمادة دون الروح ؟ ماذا يقولون عن عقل ((الدماغ)) كيف يرى ما لا تراه العين بشعاع الضياء ؟

سيقول علما ما قال به قارئ الكتاب إيمانا حين قيل له عن الروح فسمع وصدق وقلبه مطمئن بالإيمان .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء:٨٥] (٢) .

الوجود الإنسانى كل واحد ، أو هو وحدة واحدة ، لا يقبل التجزئة أو التقسيم ... أما أن تقبله كما هو ، وكما خلقه الله مادة وعقل ، جسد وروح ، وأما أن ترفضه ككل .

لا تستطيع أن تخاطب عقل الإنسان بمعزل عن قلبه ، ولا روح الإنسان بمعزل عن جسده ، وأى دعوى أو مذهب يقم على الفصل فقد أوصد الأبواب بينه وبين الحقيقة ، وأعلن على رؤوس الأشهاد عن إفلاسه ، فأى شئ يقبل التجزئة إلا الحقيقة فهى واحدة .

ماذا قدمت الفلسفة للإنسانية ؟

ولنحصر السؤال فى أضيق نطاق ، ماذا كان إسهام الفلسفة فى قضية الألوهية ؟

- ✓ هل استطاعت أن توضح تلك القضية وتيسرها وتقربها من الناس ؟
- ✓ هل استطاعت أن تأخذ بيد الناس ليقتربوا من تلك القضية أكثر فأكثر ؟
- ✓ أم أنها تعاملت مع الموضوع بنوع من التعالى والتجرد ، فزادت الموضوع غموضا وإبهاما ، وبعادت ما بين الموضوع والناس ووضعت حواجز ومسافات ؟

الفلسفة فى معنى من معانيها أرقى نوع من أنواع التفكير أو التأمل وصل إليها العقل الإنسانى . وظلت الفلسفة تواصل رقيها إلى أن أصبح التفكير والتأمل غاية الغايات ، بدون النظر إلى المردود أو الناتج السلوكى أو الفعلى أو المادى فى حياة الناس ، لذلك تبلور موقف من الفلسفة اتخذه الناس أو المهتمون منهم بأمر الفكر ، وكذلك نتج عن ذلك موقف اتخذته الفلسفة – فيما بعد – من الناس ، وأصبح هناك مسافة أو شبه قطيعة بين الاثنين ، فلا الفلسفة تشعر بهموم الناس الحقيقية ، ولا الناس يشعرون بالفلسفة ، ولا يقدرون أهميتها فى حياتهم اليومية .

" هل الفلسفة نشاط ثانوى ؟

إن الحجة الظاهرة هنا هى أن الفلسفة قد انفصلت عن الحياة الحقيقية (الواقعية) ومن ثم فإن الأمور تسير في طريقها دون حاجة إلى الفلسفة وقد يكون المدخل الأفضل هو أن ننظر إلى الفلسفة على انها لا تتحقق إلا عند مستويات من التجريد بالغة السمو أو عميقة الأغوار فالفلسفة تميل إلى الابتعاد عن العالم الحقيقى " (٣) .

إذن الذنب ليس ذنب الفلسفة لأنها ملتزمة بمستوى معين من التفكير لا تستطيع أن تتنازل عنه وإلا فقدت معناها .

ولا الذنب ذنب الناس أو المهتمون منهم بأمور الثقافة والفكر ، لأنهم ليسوا على استعداد أن يصلوا إلى هذا المستوى الذى تتحقق عنده الفلسفة ، أو العالم الفعلى الذى يعيشون فيه لا يدفعهم دفعا ، أو أنهم لا يجدون ضرورة أو أهمية أن يجشموا أنفسهم عناء التعاطى مع الفلسفة .

وهذا الأمر لا يقلل من أهمية أو أثر الفلسفة فى حياة الناس ، كما أنه لا يغض من شأن هؤلاء النفر الذين تهيبوا الاقتراب أو ممارسة التفكير الفلسفى .

" وهذه العلاقة الواهنة بين الفلسفة والعالم الفعلى هى التى تجعل الأمر يبدو، مرة أخرى – كما لو كانت الفلسفة أمرا ثانويا ، أو موضوعا يمكن من خلاله مناقشة أى شئ مادامت لا توجد فى النهاية معايير تشمل الموضوع ككل ، لكن ما يجب أن نتنبه إليه هو أن الفلسفة ينبغى النظر إليها كعملية تشغيل أكثر منها سلسلة من المنتجات ، وأن تنوع عمليات التشغيل التى يشملها الموضوع الفلسفى الواحد هو مرة أخرى علامة على ثراء الفلسفة وليس دليلا على تفاهة شأنها " (٤) .

والـذى تـأثر بـالموقفين – موقـف الفلسـفة مـن النـاس وموقـف النـاس من الفلسفة – هو الفيلسوف ، لذلك لم يعد يسأل نفسه : هل أسهم فكره أو سيسهم فى تغيير حياة من حوله ، أو على الأقل سيؤثر بأى درجة من التأثير أم لا ؟

وبـدل مـن أن يهـتم الفيلسـوف بمعاجـة سـوء الفهـم المثـار حـول الفلسـفة أو محـاولـة تيسيرها أو تـذليل أوابـدها بدرجـة مـا ، بـدلا مـن أن يفعـل ذلـك ، واصـل طريقه الذى يبتعد فيه عن النـاس ويبعد النـاس عنه ، لذلك عـاش فى برجـه المرتفع أو البعيـد عـن النـاس ، أو أن النـاس هـم الـذين بنـوا لـه هـذا الـبرج ليريحـوا أدمغـتهم مـن أفكـاره وتأملاتـه ، مـع أنهـا لهـا تـأثير لا أحـد ينكـره - بدرجـة أو أخـرى فى حياتهم .

" إن الفيلسوف ، الذى تسخر منه العامة ؛ لأنه يعيش في عالم أفكـاره الـتى تبدو بريئة ، هو في الحقيقة قوة مهولة ، وفكره ذو تأثير لا يقل عـن تـأثير الـديناميت وهذا الفكر يسرى في مجراه ، ويلمس عقلا بعد الآخر ليصل في النهاية إلى الجماهير . ثم تـأتى اللحظـة الـتى ينتصر فيهـا علـى كـل العقبـات وليوجـه مسـار حركـة الإنسانية أو يحفر قبرا لحطامها " (٥) .

ونلاحظ أن الفيلسـوف رضـى بهـذا الوضـع أو قنـع بـه . وربمـا الـذى دفعـه إلى هـذا أمـران :

- إن الفكـر المحـض والتأمـل الخـالص لا يشـغل اهتمامـات الكثـرة الغالبـة من الناس ، فهو فى حاجة إلى مواصفات خاصة تتوافر فيمن يهتم به
- أو تشغله موضوعاته حتى أنـه لم يعد يشغل اهتمامات الخاصة بل خاصة الخاصة . فالفيلسوف إن قدر له أن يؤثر فتأثيره فى أضيق حدود .
- نبل مقصد الفيلسوف ، وسعيه الدءوب نحـو إنقـاذ الجنس البشرى من كثير من الشرور ، أو محاولـة هدايتـه إلى طريـق الرشـاد ، لم يقابلـه اعتـراف بجميـل

هذا الفيلسوف ، فوصل إلى قناعة إن عليه أن يعمل ويفكر ويتأمل ، ويعرض بضاعته ، ولا يفكر بعد ذلك ما نتيجة ذلك ، أو قل إنه يعرف نتيجة ذلك وهى الامبالاة وعدم الاكتراث ، والدليل على ذلك أن أكثر الذين غيروا وجه العالم فى مراحل كثيرة ليسوا هم الفلاسفة ، وإنما الساسة أو الجنرالات أو العلماء والمخترعون والمكتشفون ، ولا أظن أحد من الفلاسفة قد نجح فى ذلك ، مع أن لا أحد من هؤلاء الذين غيروا وجه العالم إلا وكان يستبطن فكرة ما أو مذهب ما يمت فى أساسه إلى فكرة فلسفية .

هذان الأمران جعلا الفلسفة لا تنظر وراءها أثناء مسيرتها الطويلة وهى تتقدم وتتطور بتقدم وتطور العقل الإنسانى .... ولكن هل انعكس ذلك على حياة الناس ، أو أسهم بشكل ما فى تقدم وتطور البشرية ، كما حدث مع مسيرة العلم ؟

وإذا قارنا بين المسيرتين ستظهر المقارنة مدى تخلف وتراجع الفلسفة وقصورها عما حققه العلم ، فقد نجح العلم فيما فشلت فيه الفلسفة ، ومع ذلك فلا غنى عن الفلسفة .

" فكثيرون يحطون كثيرا من قدر عمل الفلاسفة ، ويقولون إن الفلسفة هى مجموعة من التأملات المجردة التى لا أهمية لها فى الحياة ، وإنه ينبغى بالأحرى التوفر على دراسة العلوم التطبيقية ، لأنها هى التى تحدد طرائق عمل كل أوجه النشاط (من عمل المهندس إلى عمل المربى) ، من مثل علم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم السياسة . والأساس الذى يقف وراء ذلك هو أنه :

((فلنعش أولا ، ولنتفلسف بعد ذلك)) كما يقول المثل اللاتينى والتفلسف لا يغنى من فقر ولا يسمن من جوع .

إن هذه القضية باطلة بطلانا مطلقا ، وهى فوق ذلك تعبر عن اضطراب عقلى خطر. إن قصر المعرفة على الجوانب التكتيكية والعملية يقوم على افتراض مؤداه أنه يكفى أن تعرف فقط ((كيف)) يتكون هذا أو ذاك . والواقع أن سؤال ((كيف)) ينبغى أن يسبقه سؤال ((لماذا ؟)) والدين والفلسفة هما وحدهما القادران على تقديم إجابة تخص العلل والغايات ، ولا تقبل قول من يقول إن الحس المشترك (أو الرأى العام) يكفى فى هذا الصدد لأن ما يسمى بالرأى العام ظهر غالبا حينما نستقرئ التاريخ ، أنه ما هو إلا محصلة أفكار فلسفية سابقة إن الإنسان حيوان عاقل وهو لا يملك إلا أن يستخدم عقله ، وهو إن لم يفعل ذلك بشكل واع وفلسفى ، فإنه يفعله بشكل غريزى وعلى طريقة الهواة " (٦) .

العلم كثيرًا ما ينظر وراءه ، ويقوم بتصحيح مسيرته ، ويخرج من جلده إن لم يره مناسبا ، أو رآه يقيد من حركته ، ويعوق من انطلاقه .. الفلسفة لم تفعل ذلك وإن فعلته فهى تفعله وهى تحافظ على إطارها العام ، هى تغير فى نظرتها فى مذهبها فى اتجاهاتها فى أثوابها ، ولكن أبدا لم تغير من مكانها أو قيمتها بين الناس ، كما فعل العلم ، فقد اقتحم العلم حياة الناس اليومية ، شغلهم فى يقظتهم ومنامهم ، جعلهم يربطون حياتهم ومصيرهم به ويعلقون كل آمالهم وأحلامهم عليه ، وقد نجح العلم فى أن يكون عند حسن ظن الناس به فى أكثر الأحيان ... بينما ظلت الفلسفة حريصة على تلك المسافة التى تفصلها عن الناس أو أن مجالها وشؤونها فى واد وحياة الناس اليومية فى واد آخر. وربما تكون

الفلسفة معذورة فى ذلك ؛ لأن إذا كان مجال عمل العلم فوق الأرض – لذلك جهده ونتيجة عمله مشاهد وملموس – فإن الفلسفة ينحصر عملها تحت الأرض ، أى أنها تبحث عن الحقائق وجوهر الأشياء .

" الفرق بين العلم والفيلسوف هو فرق في اتجاه السير ، فإذا كانت مدركات معينة هى أساس علم معين ثم جاء من يبنى صعدا فوق تلك المدركات ، كان عالما ، أما إذا جاء من يحفر تحت تلك المدركات ليتبين عناصرها التى توضحها ، فإنه يكون فيلسوفا : على فكرة ((المكان)) يقوم علم الهندسة ، وعلى تحليل الفكرة نفسها تدور فلسفة ذلك العلم وهكذا " (٧) .

حينما أرادت الفلسفة أن تنتهج نهج العلم لم تستطع أن تحقق ما حققه العلم ، أو أن تصل إلى ما وصل إليه ، وخسرت الكثير من صلاحيتها الفكرية ، فهى لم تكسب ، وفى نفس الوقت خسرت الكثير ، وكل ذلك لأنها أرادت أن تتفق مع اتجاهات العصر أو تسايره فى نظرته العلمية أو اتجاهه العملى .

" فالطابع الجوهرى الذى يطبع عصرنا الحاضر هو – فيما أعتقد – حصر الإنسان نفسه فيما يستطيع أن يشهد ويرى ليستخرج من ذلك ما يمكن استخراجه من قوانين يستخدمها في حياته العملية استخداما عمليا نفعيا ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، فكأنما السؤال الأساسى هو : ماذا أرى من العالم وماذا أسمع ؟ وهل هذا الذى أراه وأسمعه يطرد وقوعه اطرادا أستطيع أن أجعل منه قانونا أركن إليه في حياتى العملية ؟

وإن شئت أن تضع ذلك نفسه في عبارة أخرى ، فقل إن طابع عصرنا الفكرى هو العلم التجريبى وما يستتبعه من مناهج البحث والنظر ، والفلسفة التى نشأت من هذا الاتجاه العلمى هى الفلسفة التى جرى الاصطلاح أن تسمى بالفلسفة الوضعية وجوهرها أن تجعل صدق الحواس أصلا لا يناقش لأنه من تلك الفروض المطلقة التى تنبنى عليها معرفة العصر واتجاهاته الفكرية ، والفروض

المطلقة لا تسأل عنها ، وإلا فإنها لا تعد مطلقة ، بل نسبية تستند إلى غيرها من مبادئ وأصول ، وليس هنالك بالطبع مانع مادى يحول بينك وبين أن تسأل عما يبرر افتراض ذلك الفرض المطلق ، لكنك إن فعلت ذلك ، خرجت على روح العصر السائد " (٨) .

تلك نظرة أو اتجاه من اتجاهات الفلسفة (الوضعية المنطقية) أرادت أن تحقق شيئين :-

- اللحاق بركب العلم التجريبى وتبنى نظرته واتجاهاته ، إيمانا منها أن تعوض أو تهرب من الفشل أو الجمود والتخلف الذى منيت به الفلسفة مقارنة بالعلم .
- الاتساق مع روح العصر الذى خرج من رحم العلم التجريبى ،أو قل إن روح العصر هو الذى تبنى هذا الاتجاه وهذه النزعة من العلم .

ولكن نلاحظ على هذا الاتجاه الفلسفى (الوضعية المنطقية) أنه بقدر اقترابه من مفهوم العلم التجريبى بقدر ابتعاده عن مفهوم أو مجال أو نطاق الفلسفة ، ومع ذلك فإن العلم التجريبى لم يمنح هذا الاتجاه الفلسفى شهادة اعتماد لتكون ضمن أساليبه العلمية البحتة ، حتى لو كانت تسير فى نفس النهج الذى يسير فيه .

" عند الفلسفة الوضعية أن الرؤية بالعين أو السمع بالأذن هى الملاذ الأخير في إثبات الصدق لدعواك أننا نعيش في عصر اتجاهه الفكرى هو أن يقوم صدق الرأى مرهونا بإمكان تطبيقه تطبيقا عمليا " (٩).

وهذا يدل على أن ليس لديها من الأساليب أو الطرق لتجدد نفسها إلا أن تنتهج نهج العلم التجريبى هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنها وجدت نفسها

مطالبة بأن تساير روح العصر ، أى أن تكون تابعة لا أن تكون رائدة فى هذا المجال مع أنها كانت تطمح أن تتقدم والأخرون يتبعونها بما فى ذلك روح العصر.

ولكن ما الذى جعل فرع من فروع الفلسفة أو مذهب من مذاهبها يلهث هكذا وراء العلم ؟ كذلك جعل الفلسفة تنظر بكثير من الحسد إلى العلم ، مع أنه كما يقال – إن الفلسفة هى أم العلوم ، وإن شمس الفلسفة الساطعة دوما بدأت تغرب ، وإن نجمها الزاهر بدأ فى الأفول.

" فقد أدى التقدم المذهل في التكنولوجيا والرياضيات التطبيقية والمنطق إلى تعميق الشعور بأن دراسة تاريخ الفلسفة كانت دراسة للإخفاق – إخفاق لا يمكن أن نعزوه إلى الافتقار إلى الذكاء أو إلى قابلية التطبيق من جانب هؤلاء الذين كانوا مشغولين باختراع القنابل واكتشاف الاشعاعات وأدوية المضادات الحيوية وما إلى ذلك ، فلم تكن الفلسفة تتقدم ونسب هذا الفشل أو أرجع إلى الطبيعة الشكلية الضعيفة للقضايا التى تعاملت معها ، أو إلى حقيقة أن إجاباتها كانت مراوغات بارعة أو هى بالأحرى قصاصات من الأسطورة والشعر ، ولكن بعض الناس لم يكونوا مستعدين لالقاء نصوصهم القديمة وراء ظهورهم ومن هنا كان هناك من يرى أن الفلسفة هى مجرد مجادلات حول العالم وليست رؤية له " (١٠).

ولكن إذا كان هذا ما وصلت إليه الفلسفة ، فلم لا تنفض الإنسانية عقلها من الفلسفة ويدها من الفلاسفة ؟ فأظن أن الإنسانية لم تستفد الكثير من الفلسفة حتى وإن استفادت ، فإن تلك الإفادة لا تعدل ما أخذته الفلسفة من اهتمام وجهد وربما تاريخ الإنسانية لم يكن ليتغير كثيرا لو لم توجد الفلسفة ، ولا يظهر الفلاسفة بل قد تكون أسعد حالا وأهدأ بالا وأهنأ عيشا لو كان بينها وبين الفلسفة حجابا.

" بل يكفى أن نفكر وحسب فى النتائج الضخمة التى أثمرها فكر الفيلسوف الألمانى هيجل ، وهو الفيلسوف الذى يصعب كثيرا فهم كتاباته :

فهو الذى فتح الطريق لتظهر حركات مختلفة مثل الفاشية والحركة الهتلرية والشيوعية ، وهو بهذا إحدى القوى التى قامت بتغيير وجه العالم فى القرن العشرين الميلادى " (١١) .

وإن كان تعبير(تغيير وجه العالم) لم يكن مناسبا ، والأنسب هو تشويه وجه العالم ، أو طمس ملامحه ، أو ملأه بالندوب والجراح التى مازالت الإنسانية تعانى منها إلى الآن .

ومع كل هذا عز على البشرية أن تفرط فى الفلسفة ، ودأبها ألا تفرط فى شئ ، ويتمثل ذلك فى إقامة المتاحف لتحتفظ بما ليس له تأثير فى العصر الحاضر ، ولكنه كان له وجود وتأثير بشكل ما فى زمان ما ومكان ما ، مثل تلك الأثار القديمة التى تمت إلى حضارات بائدة ومندثرة ، فقد جمع ما تبقى أو ما عثر عليه فى متاحف الآثار ، لتقضى من ذلك وطرا ما ، كذلك أقامت متاحف للأفكار والمذاهب والأيدلوجيات التى كانت تعكس وتصور نظرة أو رؤى الصفوة من الناس وتجد ذلك فى أى مكتبة من المكتبات العامة ، فستجد مئات من الكتب فى الفلسفة لم يعد لها قيمة بالمرة ، وهى لو لم توجد أصلا لما تغير شئ بالمرة .

" الفلسفة مثل أى شئ آخر لها أنماطها المتجددة ، فحينما يزور أحدكم القسم الخاص بالمراجع الفلسفية فى المكتبات المتخصصة فى بيع الكتب القديمة سيجد كتبا تبدو مثيرة كتبها أناس كانوا مهمين فى زمانهم ، والآن لا أحد على الإطلاق يهتم بتلك الكتب ، ويتزايد سمك الأتربة المتراكمة فوقها وقد يلقى بها

جانبا فى نهاية المطاف وتهمل ، بصرف النظر عن الرموز المهورة على أغلفتها ومن دون أدنى اعتبار لعناوينها الرائعة ، ولكن لماذا لا تحظى هذه الكتب بأهمية تذكر الآن (أوليس لها أهمية فى الواقع على الإطلاق) بينما تحتفظ كتب أخرى من الفترة نفسها ومن فترات سابقة عليها باهتمام أعظم وأكثر ديمومة ؟ السبب هو أنه لم يعد لها أى أهمية لدى أى شخص عدا مؤرخى الفكر ، لأنها لا تطرح أسئلة من النوع الذى يهم الفلاسفة فى الوقت الحاضر ، حتى وإن كانت تثير بعض القضايا التى تبعث على الاهتمام وقد تثير رؤى الفيلسوف ومبادئه التى يسترسل فى شرحها نوعا من الحيرة لكنها لم تعد صالحة لاثارة اهتمام المتلقين ويشبه هذا ألى حد ما مشاهدة متحدث يبدو من طريقته فى الإلقاء أنه خطيب مفوه لا يشق له غبار ، وإن كان يتكلم بلغة لا يستطيع أن يفهمها أحد من النظارة " (١٢) .

ولكن ما علاقة ما تقدم بموضوعنا ؟

ما سبق يدل على أن الفلسفة عانت وتعانى أزمة داخلية من ناحية وخارجية من ناحية أخرى .

- **داخليـــــة** بشأن وظيفتها أو مهمتها أو موقفها من الموضوعات والقضايا التى تناقشها .

- **خارجيـــة** بشأن موقفها من الناس ، وهل تضعهم فى الاعتبار أثناء عملها أم لا تحسبُ لهم أى حساب ؟

تلك الأزمة تؤثر بشكل أو بآخر على الموضوعات والقضايا التى تبحثها وكذلك على الأسلوب والطريقة التى تتبعها فى هذا البحث . بمعنى إذا كانت هى تعانى أزمة فهى فى غنى عن المزيد من الأزمات . أى تتجنب مناقشة أو بحث

القضايا والموضوعات لا نقول الشائكة أو الغامضة ولكن الموضوعات الجوهرية أو جوهر الجوهرية ، أو لنقل الموضوعات المقدسة ، وإن شئنا أكثر تحديدا ما يمنح صفة التقديس للأشياء وهو المقدس ذاته ، فقد تجنبت بحث المسألة أو القضية في البداية ، أو لنقل أنها أجلته ، ولكن الموضوع فرض نفسه بقوة وإلحاح نظرا لأهميته وجلاله ، فلم تجد مناصا من بحثه .

موقف الفلسفة من قضية الألوهية .

الفلسفة في موقفها من تلك القضية ترى نفسها في موقف فريد للغاية لا يماثل موقفها من أي قضية من القضايا الأخرى ، في نفس الوقت أدركت أنها عليها مسئولية جليلة وخطيرة ، لأن تلك القضية مصيرية تخص الجنس البشرى كله منذ الأزل وإلى الأبد ، ثم أن تحديد موقفها من تلك القضية الرئيسة سيشكل ويصوغ موقفها من كل القضايا التي تتعرض لها ، ليس هذا فحسب بل سيسهم بشكل رئيسي وأساسي في تكوين الفلسفة كأسلوب أو كمنهج ، أو كأداة فكرية للعقل الإنساني ، تستوعب كافة خصائص وسمات الوجود الإنساني ، غير غافلة إن الوجود الإنساني في ارتباطه بقضية الألوهية أو امتزاجه بها أرحب وأشمل من أي تنظير فلسفي .

" فإن كل قضية فلسفية لابد أن تنبع أساسا وضرورة من فكرة الألوهية التي هي الغاية القصوى وسدرة المنتهى لكل تفكير فلسفي مهما كان نوعه " (١٣) .

كذلك في تناولها لتلك القضية أو الموضوع ، لا شك أن هناك – ولابد – اختلاف بين طريقة تناولها لأي قضية أو لأي موضوع ، وهذا الموضوع ، ولا أقصد أن تتخلى الفلسفة عن طريقتها في التناول ، ففرق كبير أن تتخلى الفلسفة عن أسلوبها في التناول ، وأن تعطى الموضوع ما يستحقه من جلال وسمو .

ولكن تلك إشكالية ، فإذا كان الموضوع مقدسا قبل كل شئ ... ماذا ستفعل الفلسفة للمقدس ؟ وكيف ستتعامل معه ، أنها ستخرج كما دخلت بدون أن تفعل شيئا ، فطالما هو مقدس إذن محظور عليها أن تفعل أى شئ .

- فالمقدس غير قابل للنقد .
- غير قابل للتحليل .
- غير قابل للتجزئة .
- غير قابل للافتراض .
- غير قابل للجدل .

إذن وجود المقدس ، أو اعتراف الفلسفة بذلك هو نوع من المصادرة للفلسفة أو إلغائها من الأساس ، أو فى أحسن الفروض ستخرج بنفسها من هذا النطاق معترفة أن الموضوع ليس من اختصاصها ، ولا يقع فى مجال بحوثها . والفلسفة إن فعلت ذلك ستنأى بنفسها عن الدخول فى مأزق خطير ، ولكنها ستخسر كثيرا فكل ما تتوقع أن تكسبه من جراء ابتعادها عن مجال المقدس لا يعادل ما ستخسره ؛ لأن تلك القضية كما قلت تعتبر أهم قضية تمس بل تشكل محور الوجود الإنسانى .

لذلك لم تغامر الفلسفة بترك تلك القضية ، وإن كانت قد تناولتها بكثير من الحذر والحرص ، وفى أحيان كثيرة بكثير من التردد ، بأن تمنحها شيئا من الخصوصية ، واستتبع هذا بأن تتنازل عن أشياء من حقها لتعطى للمقدس حقه ، بأن تقلص من مساحة العقل ، وتفسح مساحة واسعة للقلب ، إيمانا منها بأن الإيمان محله القلب ، ولذلك لا مبرر للصنعة كما قال الفيلسوف الألمانى

(كانت) فى القرن الثامن عشر الميلادى ، وشايعه فى ذلك الإمام الغزالى ومن قبله أبو بكر الباقلانى ولإمام الحرمين الجوينى .

" إن صنعة العقل الإنسانى فيما بعد الطبيعة لا تأتى بيقين واقعى لأن العقل لا يستطيع ذلك فإذا اجتاز مرحلة الإنسان ودائرته الحسية لإلى دائرة أعلى منها فوقها وكل ما يأتى به لا يخرج عن الظن إذ العقل بحكم انه محدد بالبيئة ، وبالمكان والزمان والثقافة الخاصة والجو الطبيعى والاجتماعى والسياسى لا يستطيع أن ياتى بيقين عن ذلك الموجود غير المحدد ، وهو الله ، فالله لا تحده شهوة ولا رغبة ولا زمان ولا مكان ، ولا شئ مما يحد به الإنسان . ولذلك لا يستطيع المحدد أن يتصور غير المحدد إلا على شبه منه ، وذلك ظن ، وليس بيقين ومن ثم يطالب (كانت) بإفساح مجال القلب للإيمان وإبعاد العمل العقلى عن مجال الألوهية .

وعلى هذا النحو طالب الغزالى ، ومن قبله أبو بكر الباقلانى ، وإمام الحرمين الجوينى ، بإبعاد الصنعة العقلية عن مجال الألوهية ، ووضع الإيمان وتركيزه في القلب ، بدلا من تركه في مركز المناقشة العقلية " (١٤) .

ومع ذلك ، فإن عددا من المذاهب الفلسفية لم يتنازل عن حقه ، وبذلك لم يعط للمقدس حقه ، فدخلت تلك المذاهب فى مجال الإنكار أو الشك والتعطيل .

هل نحن فى حاجة إلى الفلسفة ؟

مما سبق لا تستطيع الفلسفة أن تأتينا باليقين ، وهى فى ذلك كالعلم كلاهما عاجز أو قاصر ، وإن كانت الفلسفة أصلح من العلم فى هذا المجال بالذات لأنها وإن كانت لا تستطيع أن تصل إلى اليقين إلا انها تستطيع أن تشير إليه تحدد الطريق إليه ، تعطينا خطة تساعدنا بصورة أو بأخرى فى الوصول إليه – إن قدرلنا أن نصل إليه – حتى لو لم تنجح الفلسفة فى القيام بذلك – فى أسوأ الفروض – **فنحن في حاجة إلى للفلسفة للأسباب الآتية :**

- أصبحت الفلسفة لازمة من لوازم الإنسان ، مع اختلاف الأراء حول أهميتها وفائدتها ، إنما لا أحد ينكر أن أى حضارة أو أى أمة أو أى مجتمع لا يمكن أن يتصور وجودهم واستمرار هذا الوجود وتأصله بدون فلسفة ، والحضارة الإنسانية بصفة عامة لم يكن لها أن تكتمل بهذا الشكل الرائع غير المسبوق بدون فلسفة ، ، وفى أكثر الأحيان كانت الفلسفة هى التى تتقدم المسيرة وتتلقى المفاجئات أو الضربات أو المعوقات التى تريد أن تحول بين الإنسانية وتقدمها . إذن للفلسفة دين فى عنق الإنسانية ، وربما هو الدافع وراء تقدير الإنسانية الفلسفة والفلاسفة ، رغم كل ما يثار حولها فى الوقت الحالى .
- حياة الإنسان الفكرية والعقائدية كأرض ينبت فيها الكثير من النباتات منها الضار ومنها غير النافع ، والأمر فى حاجة باستمرار للقيام بعملية نقد وتحليل لمعرفة الضار وغير النافع لاستئصاله كى لا يستفحل أمره ويقضى على النافع والمثمر ، ويبقى هو ، كذلك هناك مفاهيم وأقوال مسلم بصحتها وتلعب دورا هاما وخطيرا فى حياة الناس ، وهى لم تتعرض للاختبار أو النقد أو التحليل ، ولم يبحث عن سندها من الحق أو الضلال .... هنا يأتى دور الفلسفة .

" إن المهمة الرئيسية للفلسفة مهمة نقدية ، فينبغى على الفيلسوف أن يوضح المفاهيم والقضايا والبراهين العلمية ، وذلك عن طريق وضعها جميعا تحت مجهر التحليل المنطقى المفصل ، ومن مزايا هذه الطريقة فى التناول أنها تنبه

العقل ولها من القيمة ما يفوق الإجابات الفلسفية التى تحمل الشك بين طياتها "(١٥).

وهى مهمة صعبة وخطيرة فى نفس الوقت ، أن تطالب الفلسفة الناس أن يتخلصوا من عقائد أو مفاهيم عاشوا بها ومعها مدة من الزمن معتقدين فى صوابها ، وبدهيات لم يتخيلوا يوما أن تعرض لنيران الفحص والاختبار والنقد .

" **بمعنى أن الفلسفة ينبغى أن تقودنا إلى تحدى أفكارنا الأساسية وإخضاعها إلى التحقيق العقلانى ومع نهاية التحقيق العقلى نكتشف ماهى الأفكار التى يمكننا أن نتمسك بها ، وأيها التى يجب أن نتخلص منها** " (١٦) .

فالبشر يتصفون بصفة أساسية ، أنهم متسامحون فيما يعتقدونه ، أو قل إنهم لا يصبرون كثيرا على عملية تحليل تلك العقائد ، ويضيقون كثيرا بالنقد ويتبرمون أن تطلب منهم اختبار ما يعتقدونه لذلك قد يبنون ويرتفعون بالبناء غير مدركين أن بناءهم هذا على شفا جرف هار .

" **إن ضرورة الفلسفة أمر واضح للعيان ، لأنه بدون هذا النوع من الفحص العقلى فإن البشر سوف يبنون على غير شعور منهم نظما بغير رقابة من جانب العقل** " (١٧) .

فأغلب المشكلات بين الناس ، وسوء الفهم الحادث بينهم ، سببها أن القضايا والمسائل والمفاهيم فضفاضة ، ليست محددة ، أو متفق علي معناها المعتمد ، فقد يكون هناك مفهوم واحد ولكنه له أكثر من معنى عند العديد من الناس ، لذلك فجانب مهم من الفلسفة هو تحديد المفاهيم تحديدا قاطعا ، بل إن بعض الفلاسفة قصروا مهمة الفلسفة فى عصرنا الحالى على تحليل الكلام وتوضيح معانيه ، منصرفا عما كان يفعله الفيلسوف فيما مضى " **وأبقى**

الفيلسوف لنفسه عملا واحدا مشروعا هو تحليل الكلام لتوضيح معناه ، فإن سألتنى بعد ذلك ما الفلسفة في اختصار ؟ قلت إنما توضيح المعانى " (١٨) .

- قام الدين بدور هام فى الحياة الإنسانية ، ولا نبالغ إذا قلنا إنه الذى شكل وصاغ الوجود الإنسانى على هذا الشكل المعروف ، وهو الذى غذى وأمد الروافد التى أسهمت بشكل أو بآخر فى تلوين هذا الوجود ، ونحن إذا حذفنا – فرضا – الدين من الحياة لتغير شكل الوجود الإنسانى جذريا ، فإليه يرجع تبرير كل ما يفعله الإنسان ، وكل فعل امتنع عن القيام به ، مع وجود مسوغات كثيرة لفعله ." ولكننا نعتقد أن الدين روح ينبث فى الأخلاق والتقاليد إلى جانب النصوص والأحكام ، ومن هذه الروح يظهر عمل الدين ولا يحسب لدين من الأديان عمل نافع فى حياة البشر ما لم يثبت له هذا العمل بين أتباعه بما يوحيه إليهم من روح يصدرون عنه فيما تعمدوه ولم يتعمدوه من أفعال أو خلائق وآداب " (١٩) .

وحينما يكون للدين كل هذا التأثير وكل هذه الأهمية فلابد أن يكون لحمته وسداه العقل والمنطق ؛ لأن العقل والمنطق أهم أساسين يعتمد عليهما الوجود الإنسانى ، إذن الفلسفة أقدر من غيرها على تفسير الدين تفسيرا عقليا . " والدين بطبيعته لا يعتمد على الفلسفة ، ولكنه يحتاج هو الآخر إلى الإيضاح وإلى التفسير لأن الإنسان كائن مفكر ، وفى الواقع فإن المفسر إن لم يستخدم فى هذا الجهد التفسيرى فلسفة عقلية فإنه سرعان ما يقع فريسة التعصب والانحياز " (٢٠) .

ولم نقول إن الدين فى حاجة إلى الفلسفة لتفسير الجوانب العقلية فيه ؟ فالدين فى حد ذاته فلسفة ، فلسفة للحياة والوجود فى أسمى صورة ، كما أن الفلسفة تصلح أن تتخذ كعقيدة .

" **لأن العقيدة الدينية هى فلسفة الحياة بالنسبة إلى الأمم التى تدين بها ، وأنها لا تعارض الفلسفة في جوهرها ، وأن الفلسفة تصلح للاعتقاد كما تصلح العقيدة للفلسفة** " (٢١) .

إن الوجود بالنسبة للإنسان كان لغزا مبهما ، فى حاجة أن يزال من حوله هذا الإبهام والغموض ، ليكون الإنسان على بصيرة من أمره ، والذى سيزيل هذا الإبهام ويكشف هذا الغموض هى المعرفة ، وقد اعتمد على نوعين من المعرفة الأولى التى كان يتوصل إليها من خلال تفكيره وتأمله ، والثانية المستمدة من الكتب السماوية ورسل الله ، وهذان الفرعان هما اللذان يشكلان المعرفة الإنسانية والتى تهدف فى النهاية إلى فهم حقائق الوجود ، سواء كان وجودًا كونيًا أو وجودًا إنسانيًا .

والكتب السماوية لم تغفل الرغبة الملحة ، والظمأ الشديد من الإنسان إلى المعرفة ، فلبت تلك الرغبة ، واشتملت على جزء كبير من نصوصها على إمداده ما وسع عقله – بالمعرفة الحقة ، بأن خاطبت وتناقشت وتحاورت مع العقل الإنسانى على كافة المستويات ، ومن أكثر الكتب التى استجابت لإرضاء رغبة المعرفة هو القرآن الكريم ، فهناك العديد من الآيات التى تضمنت الأساليب والضروب الفلسفية لعرض الأدلة والبراهين أمام الإنسان .

" **إذا كانت الفلسفة هى المعرفة الحقة لله والكون السماوى والأرض والإنسان ، أو هى نظر العقل في تفكيره الذى يراد به معرفة حقائق الوجود في العالم الأكبر المحيط بالإنسان ، والعالم الأصغر الذى هو الإنسان والمبدأ الأول لذلك كله نقول إذا كان هذا هو تعريف الفلسفة والغاية التى تهدف إليها فهل في القرآن فلسفة ؟ ولماذا لم يؤثر عن المسلمين في الصدر الأول من التاريخ الإسلامى بحث في القرآن من هذه الناحية ؟**

إن القرآن باعتباره كتاب الدين الذى هو خاتم الأديان وإن الغاية منه هو هداية البشر كافة وتعريفهم الحق فيما يختلفون فيه ، يجب أن يكون قد احتوى أصول الفلسفة الصحيحة على اختلاف ضروبها وأقسامها " (٢٢) .

إلا أن هناك فرق بين أسلوب الفلسفة وأساليب القرآن ، إن الفلسفة ألزمت نفسها والآخرين بمستوى واحد فى مخاطبة الآخرين . أما القرآن فهناك العديد من الأساليب على كافة المستويات لمخاطبة جميع البشر على اختلاف مستوياتهم من التفكير والثقافة .

كذلك الفرق بين الفيلسوف والنبى - إن الفيلسوف معد لمخاطبة أو التواصل مع الآخرين وفق مستوى واحد ، فإن استطاع الآخرون الارتقاء لهذا المستوى فهم والفيلسوف على مستوى واحد من التفاهم ، وإلا فقد التواصل . أما مع النبى فلديه القدرة على المخاطبة والتواصل مع كافة المستويات من أدناها إلى أعلاها ، ليس هذا فحسب ، بل لديه القدرة والإمكانية أن يمد يده وينتقل بالناس من المستويات الدنيا إلى المستويات العليا ، وهذا لم يتوافر بصورة واضحة وقوية وكاملة إلا فى محمد - صلى الله عليه وسلم .

" ووفقا لما يقوله ((ابن رشد)) فإن ما جعل النبى محمدا (صلى الله عليه وسلم) هذا الرسول العظيم حقا خاتم الأنبياء هو قدرته كسياسى .

لقد استطاع أن يتغلب ويسمو على الحقائق التى كان الفلاسفة فقط هم القادرين على التفكير فيها ومناقشتها فيما بينهم ، وأسهب في شرحها للعامة وقد تحقق هذا بسبب تمكنه الرائع من أنواع اللغات لتى تصلح لمخاطبة الناس بإسهاب ، هذه هى المهارات السياسية ، وقد خلق محمد (صلى الله عليه وسلم) مجتمعا سياسيا من الجماعة الصغيرة نسبيا من المؤمنين التى بدأ بها . وفي أوقات مختلفة يكون من الواضح أن خطوط التفسير المختلفة في طريقها لأن تصبح مهمة حيث أن التمسك بفهم واحد للنص لن يسهم بشئ في تكسير الجليد في إطار الظروف

التى لم يعد فيها للعزف على هذا النهم أى صدى أو رجع عند العامة . فالإيمان يكون ناجحا إذا كان مرنا بما فيه الكفاية نحو التغيير بحيث يأخذ في الحسبان تغير الظروف . وعلى النقيض من هذا ينبغى لنا إلا نتوقع أن تتغير الفلسفة هذه الطرق " (٢٣) .

- أما كيف نصل إلى الحقيقة . وما الطرق التى يجب علينا أن نسلكها فى ذلك ؟

فالفلسفة تخبرنا أنها عن طريق التفكير ، فليس هناك من طريق غير ذلك يؤدى بصورة مباشرة ومستقيمة إلى الحقيقة .

أما التفكير فى ماذا ؟

والتفكير بماذا ؟

التفكير فى الكون بكل ما يحوى من مخلوقات .

والتفكير بكل ما يملك الإنسان من حواس مدركة ، تعينه أن يصل إلى الحقيقة ، وتلك الحقيقة هى التى ستصل أو ترشدنا إلى الله .

" إن التفكير فى حقائق الوجود هو طريق الوصول إلى الله ، ولا طريق غيره للحواس ولا للعقل ولا للبديهة : إيمان بالوجود الأبدى فى صفته المثلى وتفكير فى حقائق الوجود كما نراها ونحسها ونعقلها ، وذلك قصارى ما عند الفلسفة وقصارى ما عند العلم إذ يقف العلم عند حده وهذا هو العلم الذى فرضه الإسلام على كل مسلم ومسلمة وقال النبى فى رواية ابن عباس ((إنه أفضل من الصلاة والصيام والحج والجهاد فى سبيل الله لأنه سبيل الوصول إلى الله)) " (٢٤) .

فالعقل في حاجة إلى مادة إلى موضوع إلى كون إلى خلق ، يستخلص ويستنتج دلائل يعتمد عليها لتقوده فيما بعد إلى الحقيقة ، هو لا يستطيع أن يقفز إلى الحقيقة مباشرة أو أن يصل إلى الإيمان بالله بدون أن يمر بمراحل عديدة

كل مرحلة تسلمه إلى الأخرى ، يظل يتدرج خطوة خطوة فى طريق متصاعد حتى يصل إلى القمة ، وهو إذا وصل إلى القمة ، يسلم المهمة للقلب ليتولى هو بعد ذلك استمرار الطريق فى الرقى والصعود إلى ما لا نهاية ، أو قل إن القلب هو مرحلة راقية ومتسامية من مراحل العقل ، قد صفى وشف ، وأصبح على استعداد لتلقى الإيمان بكل ما يأتى به الوحى .

" وقد لجأ القرآن إلى هذه الطريق ، طريق دلالة الأفعال والآثار ، لتعريفنا بالله لأن هذا الطريق وحده هو الممكن لنا فيما يتصل بالله تعالى ، ذلك لأن المعرفة لتكون تامة بما يراد معرفته – يجب أن تكون قائمة على رؤية العين مع التفكير بالعقل ، ولكن هذا محال فى جانب الله . إذ يجب فى هذا أن يلجأ للآثار ليستدل بها العقل على من صدرت عنه ، ثم ليطمئن إليها القلب أخيرا ، وهذه المعرفة بالقلب هى الحقة فى رأى مثل الغزالى من المتصوفة المفكرين للوصول إلى الحقيقة أنه لم يجد فى هذه الناحية علم الكلام وافيا بمقصوده ، وإن طريق المتصوفة هو الطريق الحق الصحيح .

وبعد أن يصل القرآن بالإنسان إلى أن يعترف بالله بالدليل العقلى ثم إلى أن يؤمن به قلبه ويطمئن إليه وذلك عن طريق التى أشرنا إليها نجد فيه الدعوة قوية إلى الإيمان بالغيب ، إلى الإيمان بما يخبر به الرسول عن طريق الوحي مما يقف العقل وحده أمامه عاجزا عن إدراكه والتصديق به . ومن هذه كما قلنا ، ما يرجع إلى ذات الله وصفاته ، وما برجع إلى البعث والحياة الأخرى ، إذ كان فريق كبير ممن نزل القرآن بلسانهم يرون عجبا أن يتحدث متحدث عن حياة أخرى للإنسان

بعد أن يصير بالموت عظاما بالية وترابا تفرق هنا وهناك ويقولون (ذلك رجع بعيد) " (٢٥) .

من هذا ترى أن الدين لا غنى له عن الفلسفة ، فهى دعامة قوية من الدعائم التى يستند عليها أى دين وأى عقيدة ، لأن أى دين أو أى عقيدة خالية من العقل أو ما يدعو إليه هى قاصرة على تفسير الوجود الإنسانى أو القيام بأمر وشؤون التابعين لها ، وهذا يفسر موقف الدين الإسلامى من الفلسفة ، إنه يرحب بها ويدعو إليها ، وما ضاق الإسلام بالفلسفات فى يوم من الأيام ، ولكن الفلسفات هى التى تضيق .

" إنه لا يضيق بالفلسفة ، لإنها تفكير فى حقائق الأشياء لأن التفكير فى السماوات والأرض من فرائضه المتواترة ولكن المذاهب الفلسفية قد يظهر فيها ما يضيق بالإسلام ويخالفه حينا بعد حين ، ولا تثريب على عقيدة يخالفها بعض العقول ، لأن العقائد لا تطالب بموافقة كل عقل على سواء أو على انحراف وحسبها من سماحة أنها لا تصد عقلا عن سواه " (٢٦) .

لذا فنحن فى حاجة إلى الفلسفة ، أو قل نحن فى حاجة إلى روح الفلسفة لا سيما فى عصرنا الحاضر ، والتى تتعرض فيه العقائد لحرب ضروس ، لا سيما عقيدة العقائد كافة وهى العقيدة الإسلامية ، فالدعوات والمذاهب والأيدلوجيات تلاحق الناس كل وقت ، وبإلحاح شديد ، وبأقنعة براقة خادعة ومغرضة ، وهى لا شك – ناجحة إذا صادفت عقولا خاوية ، وأفئدة هواء ، ليس لها دراية أو دربة بأساليب التفكير الهادئ الفاحص الناقد لما يعرض عليها من أفكار وأيدلوجيات تريد من الإنسان أن يتخلى عن هويته وعن عقيدته وعن تفكيره وعقله ، ليكون ريشة

توجه كيفما تشاء تلك الأفكار والأيدلوجيات ، لذلك على الإنسان أن يكون قويا ومصدر القوة في عصرنا هذا المعرفة ، والمعرفه هى التى تجعله على بصيرة ورشاد من أمره ، وأن يكون فى وضع يسمح له أن يضع لكل سؤال جوابا يتسق مع عقيدته وفكره ، بدون هذه المواصفات فالإنسان معرض للهلاك والإبادة ، عقله وعقيدته قبل كيانه وجسده .

" إلا إن القرن العشرين جمع الأسئلة ، فلم يدع سؤالا عن نسبة من نسب الإنسان لم يطلب جوابه على نذير بالهلاك لمن جهل الجواب ، وقد يكون هلاكا للجسد والروح .

- ❖ ما مكان الإنسان من الكون كله ؟
- ❖ ما مكانه من هذه السيارة الأرضية بين خلائقها الأحياء ؟
- ❖ ما مكانه بين أبناء نوعه البشرى ؟ وما مكانه بين كل جماعة من هذا النوع الواحد أو هذا النوع الذى يتألف من جملة أنواع يضمها عنوان ((الإنسان)) .

وهى أسئلة لا جواب لها فى غير ((عقيدة دينية)) تجمع للإنسان صفوة عرفانه بدنياه وصفوة إيمانه بغيبها المجهول .. تجمع له زبدة الثقة بعقله وزبدة الثقة بالحياة ... حياته وحياة سائر الأحياء والأكوان إن القرن العشرين كان حقيقيا أن يسمى بعصر ((الأيديولوجية)) أو عصر الحياة ((على مبدأ وعقيدة)) لأنه كلما ألقى على الإنسان سؤالا من أسئلته تلك لم يعفه من جوابه ولم يسلمه إلى جزاء أهون من جزاء الحيرة عند السكوت عليه ... فإن يكن سكوتا عن الأجوبه جميعا فهو الهلاك المحدق بالأبدان والعقول " (٢٧) .

مأزق الفلسفة والخروج منه

الفلسفة فى بحثها عن الله كان أمامها طريقان :

- البحث فى ذات الله ، أى تصور العقل الإنسانى لتلك الذات .
- البحث فى علاقتنا بالله ، وما يترتب على تلك العلاقة من سلوك عملى فى حياة الإنسان .

أولا : البحث فى ذات الله

أخطأت الفلسفة خطأ جسيما حينما تحدثت عن ((الله)) كفكرة مجردة أو كمعنى سام ، هنا أنت لا تتحدث عن الله ، وإنما عن تصور إنسانى لذات الله هذا التصور تختزله فى فكرة ، وليس هناك فكرة بلا حدود ، وليس هناك فكرة بلا تجريد ، كذلك ليس هناك طريق آخر أمام الفلسفة ، فهذا هو لب عملها ، وعملها هذا مفيد من ناحية أنه يختصر الطريق إلى الحقيقة ، بدون الدخول فى تفصيلات أو تفريعات لا جدوى منها ، وكل ما يمكن أن تفعله - التفصيلات - أن تضل عن الحقيقة أو تعرقل الوصول إليها ، وضار وخطر من ناحية أخرى ، لأن التجريد نوع من التضيق نوع الاختزال لا سيما إذا كان فى موضوع مثل هذا الموضوع .

" حيث أن كل فكرة كان من الضرورى تجريد ، فإن الفلسفة لن تستطيع القيام بعملها بغير تجريدات ، ولكن هذه التجريدات وبقدر ما هى مفيدة إلا أنها غالبا ما تكون مستنبطة من قاعدة ضيقة ومثال ذلك هو العلم الطبيعى الغربى كما أنها غالبا ما تؤدى إلى تصلب عقلى به ينغلق المرء على سائر عناصر الحقيقة التى لا يجد لها مكانا فى صياغته المجردة " (٢٨) .

ولا أحد يشك فى شرف مقصد ونبل نية الفلسفة وهى تتحدث عن الله كفكرة، لأن كما قلنا لا بديل لها عن ذلك ، بل البديل الوحيد عن ذلك ألا تتحدث

عن الله كفكرة ، وبذلك تقع فى التناقض فهى تريد أن تخرج ((الذات)) عن التحديد والتصور، وأيضا ن التجريد ، ولب عملها هو التحديد والتصور والتجريد .

بهذا فقد بددت الفلسفة الكثير من الوقت والجهد ولم تصل بعد ذلك إلى شئ ، بل وصلت ، وكل ما وصلت إليه أن زادت الأمر غموضا وإبهاما ، وأقامت سدودا وحواجز وفواصل بين الله والناس .

الناس فى حاجة أن يعرفوا الله أو يزيدوا معرفتهم بالله ، يريدوا أن يقتربوا من الله أكثر وأكثر ، فوجدوا أن السبيل إلى ذلك المعرفة ، وليس هناك أفضل من الفلسفة لتقوم بذلك ، ولكن ما قدمته الفلسفة كان زادا عسيرا صعبا غريبا فالمرء قبل أن يستمع أو يقرأ ما تقوله الفلسفة ، ربما كان يشعر أنه قريبا من الله وأن هذا القرب يتأرجح ويتذبذب ، تارة يضيق وأخرى يتسع ، ولكن هذا الإحساس والشعور موجود يكاد يتحسسه ويشعر به ، أما بعد أن لجأ إلى الفلسفة ، بدأ يشعر بالغربة ، ليس هذا الذى كان قابعا فى قرار ضميره وعمق عقله ، وإن كان ما تقوله الفلسفة لا يستطيع رفضه رفضا كاملا ، كما أنه لا يستطيع أن يقبله قبولا تاما لا يستطيع أن برفضه لأنه كلام وحديث عن الله ، ولا يستطيع أن يقبله لأنه عسير على عقله ، غامض على فهمه ، مبهما على قلبه .

وخذ مثالا على ذلك :

" الله عند أفلوطين : هو الموجود الأول وهو الطبيعة العليا وهو واحد من كل وجه : واحد في الواقع وفي التصور الذهنى ، والكثرة لا توجد فيه بأى اعتبار ، كما أن التركيب لا يتطرق إليه مطلقا ولهذا يوصف بانه بسيط كل البساطة ، كما هو واحد في الذات وحدة مطلقة فلا يقال عنه أنه عقلى أو معقول ، فالعقل أمر إضافي يستلزم معقولا معه من جانب الذهن ، كما يستلزم أن يوجد في دائرته تكثرا ، كما أن وصفه بأنه معقول يقتضى التكثر فيه للسبب

عينه ، فهو فوق الوجود والفكر أى ما وراء ما يتخذ موضوعا للفكر من الوجود كما أنه هو ليس فكرا ، فليس معقولا لنفسه ولا هو عينه عقل ولا يوصف بأنه جوهر أو عرض والصفة الوحيدة التى يطلقها أفلوطين على الله الواحد أنه خير بمعنى أن الخير هو عين ذاته ، لا بمعنى أن الخيرية وصف قائم به فذاته وخيريته شئ واحد ، وقد صدر العقل عنه بالطبع لا بالإرادة ، لأن الإرادة توجب كثرة فيه كما أن هذا الصدور ليس في زمان ولا مكان " (٢٩) .

إن تأملت هذا الكلام طويلا ، وقلبته على جميع الوجوه فلن تخرج من ذلك بشئ ؛ ذلك لأن أغلبه قائم على نفى ما يتصوره العقل عن الذات الإلهية ، وحينما تنفى فأنت لا تقدم شيئا ، حتى وإن قدمت ، فإن ما قدمته لا يزيد معرفتنا بالله شيئا ، ولا يساعدنا فى أن نقترب من الله أكثر ، وربما تكون الفلسفة مضطرة على ذلك ، لأن الفلسفة إذا وصفت ((**الذات**)) فإن هذا الوصف وصف عقلى ينسب إلى العقل ولا ينسب إلى ((**الذات العليا**)) .

" فإن الأوصاف التى وردت لله سبحانه وتعالى إنما هى جارية على ما نعرفه نحن في حيواتنا وما نرسله من قول في عرفنا أما الحقيقة الإلهية فشئ آخر تقدره آيات كقوله تعالى :

﴿...... لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ......﴾ [الشورى:١١]

ولعل هذا ما يمكننا فهم أبعاد منعهم إطلاق الأسماء على الله سبحانه وتعالى فكانت توفيقية إذ لا يجوز أن يسمى إلا بما سمى به ذاته وجاء به الشرع " (٣٠) .

إذن الفلسفة فى حديثها عن ذات الله لم تخرج عن نطاق العقل الإنسانى بل هى تستهديه فى ذلك والعقل عاجز وقاصر أن يمدها بشئ فى ذلك المقام ولا أحد يستطيع أن يصل إلى حقيقة الله أو أن يعطى أوصاف أو صفات غير ما ذكر فى القرآن للذات المقدسة .

ونصل إلى **حقيقة هامة أن** كل حديث الفلسفة عن الذات الإلهية ليس شاهدا على شئ إلا على تطور ورقى العقل الإنسانى نحو تصور ((**الذات**)) ، يصلح كجانب تاريخى لمراحل نمو ورقى العقل ، إنما لا يفيدنا بشئ فى معرفة الله فبحث الفلسفة فى هذا المجال لم يصل إلى شئ .

وإذا دفعنا طموحنا المعرفى أن نتلمس شيئا عن الله ، فليس أمامنا إلا الدين وهو نوع آخر من الفلسفة .

" هنا نعلم أن الدين لم يكن أصدق عقيدة وكفى بل كان كذلك أصدق فلسفة حين علمنا أن الله جل وعلا ((ليس كمثله شئ)) فكل ما نعلمه أنه جل وعلا ((كمال مطلق)) وأن العقل المحدود لا يحيط بالكمال المطلق الذى ليست له حدود ، وليس لهذا العقل أن يقول للكمال المطلق كيف يكون وكيف يفعل وكيف يريد " (٣١) .

ثانيا : البحث فى علاقتنا بالله

- علم بلا عمل لا جدوى منه .
- ومعرفة بلا سلوك لا قيمة لها .

لم تعد المعرفة النظرية ترضى طموح الفلسفة فى العصر الحاضر ، أصبحت الفلسفة تضع عينا على التفكير النظرى والعين الأخرى على تطبيق هذا التفكير . تريد أن ينعكس هذا التفكير إلى سلوك وعمل فى حياة الناس ، أن يترجم إلى أفعال وتصرفات . الفلسفة حطمت البرج العاجى العالى الذى كانت تطل من نوافذه الزجاجية من على حياة الناس ، ونزلت لتتجول فى الطرق والدروب ، تلامس حياة الناس عن قرب ، تتعايش معهم ، تبدأ منهم وتنتهى إليهم . هناك مشكلات حقيقية يعانى منها الإنسان ، بعضها ظاهر للعيان والآخر خفى لا تدركه العين ولكنه

موجود ويفعل فعله فى تدمير أو تشويه وجود الإنسان . فمن غير الفلسفة قادر على التصدى للمشكلات التى تمس وجود الإنسان وتؤثر تأثيرا شديدا على حياته حتى أنه ظهر فرع من الفلسفة يسمى بالفلسفة التطبيقية .

" تتكون الفلسفة التطبيقية applied philosophy التى بدأت في الظهور على صورتما الحالية في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين من المحاولات الثقافية أو العالمية المختلفة للتعامل مع أخلاقيات الحياة الفعلية والمشكلات الاجتماعية والسياسية التى درجت العادة الأكاديمية على تجاهلها " (٣٢) .

وكأنى بالفيلسوف قد سأل نفسه أخيرا : لم أفكر أولا ، ثم أفكر ثانيا عن كيفية تطبيق هذا التفكير النظرى عمليا ؟
لم لا يكون تفكيرى منذ البداية عمليا ؟

بمعنى أن أهتم بالمسائل والقضايا الحياتية الملحة الضاغطة على وجدان الإنسان فى الحاضر ، وهذا ما أقصده من (عملى) .

أما القضايا والمسائل الخالدة التى لها علاقة بالإنسان وتمس وجوده ولكنها ليست ملحة ولا ضاغطة وليست لها تأثير مباشر وحيوى فقد ابتعد عنها الفيلسوف ولو مؤقتا .

" فلم يعد ينظر إلى الفيلسوف الآن على أنه يتعامل مع القضايا الخالدة المفترضة مثل « ما هى العدالة » أو « هل الله موجود » بل أنه يتعامل مع مسائل أكثر دقة ورهافة مثل « كيف يمكن أن أوفق بين اعتقادى في المذهب الذرى وبين نزوعى إلى الإيمان " (٣٣) .

- إذن الاتجاه تغير لم يعد يسأل : هل اللّه موجود ؟
- هل يعلم اللّه الكليات فقط أم الجزئيات أو أحدهما ؟
- هل خلق اللّه العالم وتركه يعمل كالآله أم هو الذى يديره ؟
- هل اللّه يتصل مباشرة بالكون أم هناك وسائط بينه وبين الخلق ؟
- كيف خلق اللّه الكون بما فيه من كائنات ؟
- أين اللّه ؟

كلها أسئلة لا العلم بها يفيد ولا الجهل بها يضر - كما يقولون - وأصبحت الأسئلة المفروض أن يسألها الإنسان كيف نرتبط باللّه ؟

- كيف أجعل وجودى كله يدور حول مشيئة اللّه ؟
- كيف أو ما هى الوسيلة التى تجعلنى أقترب كل آن وحين من اللّه ؟
- كيف يقوى إيمانى باللّه ويزيد ؟
- ما الذى يريده اللّه منا كأفراد وجماعات وشعوب وأمم ؟
- كيف أستطيع أن أكون قادرا أن أضحى بكل شئ فى سبيل إرضاء اللّه ؟

" إن ما ينبغى أن يدور حوله اللاهوت هو كيف نرتبط بالله لا أن يدور (اللاهوت) حول الله نفسه فالحديث عن الله ككائن يجمع ما بين الأخلاقى والأنطولوجى أو العلم وجودى ، يعنى أن نضع الأسئلة حول الكيفية التى ينبغى أن نتصرف ما مكان الأسئلة المتعلقة بما هو موجود " (٣٤) .

أحيانا تتفرع السبل بالإنسان ولا يدرى أى السبل يسلك ؟ أحيانا يكون أمام الإنسان خيارات كثيرة وبدائل لا يعرف ما يختار ؟ وهل ما اختاره الآن سيكون فى صالحه على المدى البعيد ؟

- وكيف يكون اختياره مستندا على القيم والمبادئ التى ترفع من قيمته وشأنه كإنسان له كرامة .

الإنسان فى حاجة - دائما - إلى بوصلة تهديه إلى سواء السبيل ، تنير له الطريق كى يرى موطئ قدمه ، هذا ما تقدمه له فلسفة الدين .

" هنـاك منـهج آخـر لفلسـفة الـدين اشـتهر في القـرن وهـو التأكيـد على الجوانب العقلانيـة مـن الـدين . فالـدين شـكل مـن أشـكال الحيـاة . ومنهج للسـلوك وأنـه مـن الخطـأ أن تـراه مرتبطـا بقائمـة معينـة مـن الفرضـيات هـذه هى الطريقة التى يميل الفلاسفة إلى أن يـروه بها مـن حيث أن الفلاسفة يفضلون أن يجزئوا الأشـياء أو يقسموها وفقـا لفرضياتهم الأساسـية لكـن الاعتقـاد الـدينى هو مسألة التزام بطريقة للحياة ، ولـيس بسلسـلة من المعتقدات المحددة وينبغى علينا أن نوظف أفضـل كفلاسـفة لـيس لتعريف الـدين بـل في استكشـاف الطـرق التى يساعدنا بها ما ندعوه بالدين على أن نفهم كيف نتصرف " (٣٥) .

أى أن الفلسفة – لا سيما فلسفة الدين – تحـاول جاهدة أن تساعدنا كيف نعيش حياتنـا ، لـيس هـذا فحسب ، ولكن كيف نعيش سعداء ، ونـدخل السعادة على الآخرين ؟

ولن يتسنى لنا ذلك إلا بالقضاء على الشرور داخل نفوسنا أولا ثم فى العالم ثانيا . وسوف ننجح فى ذلك بمقدار اقترابنا من الله وصدقنا مع الله وإخلاصنا له .

المراجع

(١) الله والعالم والإنسان في الفكر الإسلامى . د: محمد جلال أبو الفتوح شرف (٣٣٣) .

(٢) الإنسان في القرآن - عباس محمود العقاد - (٣٢) .

(٣) مستقبل الفلسفة في القرن الواحد والعشرين - أوليفر ليمان (٣٥) .

(٤) المصدر السابق - (٣٧) .

(٥) الفلسفة المعاصرة في أوربا -تأليف : إ. م بوشنكى _ ترجمة د. عزت قرنى (١٤) .

(٦) المصدر السابق (١١) .

(٧) قشور ولباب . د . زكى نجيب محمود (١٥٦) .

(٨) المصدر السابق - (١٨٠) .

(٩) المصدر السابق - (١٨١) .

(١٠) مستقبل الفلسفة في القرن الواحد والعشرين (٧٨- ٧٩) .

(١١) الفلسفة المعاصرة في أوربا - (١٣) .

(١٢) مستقبل الفلسفة في القرن الواحد والعشرين (٣١) .

(١٣) الله والعالم والإنسان في الفكر الإسلامى - (٣٣٣) .

(١٤) الفكر الإسلامى وصلته بالاستعمار الغربى. د. محمد البهى (٢٦٦- ٢٦٧).

(١٥) الفلسفة المعاصرة في أوربا - (٨٦) .

(١٦) الفلسفة في القرن الواحد والعشرين - (٢٠٥) .



(١٧) المصدر السابق - (٣٦٠) .

(١٨) قشور ولباب - د . زكى نجيب محمود (١٥٩) .

(١٩) التفكير فريضة إسلامية - عباس محمود العقاد - (٨٨) .

(٢٠) الفلسفة المعاصرة في أوربا (١٢) .

(٢١) الفلسفة القرآنية - عباس محمود العقاد - (٥) .

(٢٢) القرآن والفلسفة . د . محمد يوسف موسى (١٣) .

(٢٣) مستقبل الفلسفة في القرن الواحد والعشرين - (٢١٢) .

(٢٤) عبقرية محمد - عباس محمود العقاد - (١٥٩) .

(٢٥) القرآن والفلسفة . د . محمد يوسف موسى (٦٢) .

(٢٦) التفكير فريضة إسلامية - (٨٤) .

(٢٧) الإنسان في القرآن - عباس محمود العقاد - (٦) .

(٢٨) الفلسفة المعاصرة في أوربا (٣٥٩) .

(٢٩) الله والعالم والإنسان في الفكر الإسلامى . (٣٤٠) .

(٣٠) المجاز وأثره في الدرس اللغوى - د. محمد بدرى عبد الجليل : (٢٣٧) .

(٣١) الله - عباس محمود العقاد . (٢٣٧) .

(٣٢) مستقبل الفلسفة في القرن الواحد والعشرين (١٦٠) .

(٣٣) المصدر السابق (٨٠) .

(٣٤) المصدر السابق (٢٠٩) .

(٣٥) المصدر السابق (٢٧) .

الباب الخامس

التصوف يبحث عن الله

لقد نجح التصوف فيما لم يوفق فيه العلم والفلسفة
ولكنه قصر في توظيف ما وصل إليه ، ووضع
حجبا وحواجز بينه وبين الآخرين ، لقد حصل
على
غنائم كثيرة أثناء رحلته في البحث عن الله .. وحصل
خبرات رائعة
ومر بتجارب جعلت الوجود الإنسانى
أكثر رحابة وأشد إشراقا وأمتع مذاقا ، وأشف رؤى ، وولج
إلى عالم
من الطهر والنقاء ، وسار في دروب الحب والتسامح
وتسنم قمما من الرقى والسمو ،ولكنه – في النهاية – لم ينس
أن يغلق الأبواب
خلفه كى لا يتبعه أحد .

البحث فى الحقيقة

قد تحدد مادة البحث وموضوعه المنهج المتبع فى الدراسة وطريقة التفكير وزاوية النظر. وتصبح المادة أو الموضوع والمنهج متناظرين أو متوافقين.

فإذا كانت مادة البحث تدخل فى النطاق العلمى البحت، فلا شك أن المنهج المستخدم سيكون علميا، وسيستخدم الباحث كل الوسائل العلمية التى تعينه فى بحثه.

وإذا كانت مادة البحث بعيدة عن دائرة العلم (science) ومتعلقة بالإنسانيات من أدب وتاريخ وفلسفة ونفس إنسانية، فللباحث أن يتبع منهجا يتفق مع ما يبحثه، وهذا المنهج يختلف اختلافا كليا عن المنهج العلمى.

ففى مجال الإنسانيات لا أستطيع أن أجتزئ ظاهرة من الظواهر أو حالة من الحالات وأخضعها للتجريب المعملى مهيئا لها كل الظروف، متحكما فى كل المؤثرات؛ لأخرج بنتائج دقيقة ومحددة ومحكمة .... ومع ذلك أستطيع التحكم فى مراوغة موضوع البحث - الإنسان - أو مادته من خلال استخدام المنهج العلمى من الناحية النظرية فقط، وفى النهاية للباحث حرية اختيار المنهج الذى يتبعه.

ولكن حينما يكون موضوع البحث من القوة والسمو والعلو والتفرد والقداسة ... فإنه - بتلك المواصفات - يفرض على الباحث المنهج والأسلوب.

وفى العادة يكون المنهج المتبع فى البحث يعلو على الموضوع المبحوث وأقصد بالعلو.. الإحاطة والتمكن العقلى ودراسته ورصد أوصافه ونقده .... الخ

إلا أن الأمر هنا أن (الذات) التى ينصب عليها البحث أعلى من كل مناهج البحث والنظر، لا يستطيع أى منهج أن يتمكن منها دراسة ورصدا ووصفا...

فكل هذا يقصر عن ذلك . ولذلك يتحول موضوع البحث إلى منهج ، ومنهج البحث إلى موضوع للبحث .

الموضوع هنا هو الذى يملى على الباحث طريقة النظر والبحث والتفكير هو الذى يحدد متى يبدأ ومتى ينتهى ، ومن أين ينطلق وإلى أين يتوقف .

فنحن حينما نبحث في ((**ذات الله**)) أو نفكر أو نتأمل ، عاجزون عن الأحاطة به ، كذلك عاجزون عن رصد الأوصاف التى يتصف بها ، بل عاجزون عن كل شئ إزاءه إلا بما يسمح به لنا .

موقف العقل

وإذا وقف العقل أمام ذات الله وأدرك عجزه عن إدراك هذه الذات فهو ينقلب على نفسه باحثا عن ذاته المفكرة .... ماهى ؟ وما حدودها ؟

وما طاقتها ؟ وما فى وسعها ؟ وما ليس فى وسعها ؟

وما المساحة الحقيقية والواقعية التى يستطيع أن يجول ويتحرك فيها بدون قيد ؟

والعقل لا يتخذ هذا الموقف إلا فى حالة واحدة فقط ، حينما يقف وجها لوجه أمام ذات الله .

وحينما نفكر في ((**الله**)) لا نفكر فيه كحقيقة مطلقة ؛ لأن كلمة ((**مطلقة**)) كلمة خادعة ومضللة ، لأنها تعنى المغايرة لكل ما له حد أو وصف والعقل لا يتعامل – فى العادة – إلا مع ماله حد أو وصف ، فهو – العقل – قوة مدركة ، ويريد أن يكون هناك مدرك محدد ومعين ومغاير ومميز . لذلك لا نفكر فى ذات الله كحقيقة مطلقة ، وإنما نفكر فيه بما وسعت عقولنا ، نستوعب من الله

ما تطيقه عقولنا ، ندرك ما تقدر عليه عقولنا ، وتبقى حقيقة الله بعيدة عن متناول العقل ، فليس ميسر لنا إلا أن نلتمس قطرة ضئيلة من المحيط الواسع الزاخر ، وهذه القطرة وإن كان فيها كل خصائص وصفات المحيط ، إلا أنها لا تعطى تصورا واضحا لمدى اتساع المحيط ، ولا لمدى عمقه ولا لكل ما يسبح فيه من كائنات وأحياء.

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾(الكهف: ١٠٩)

فليس الأمر مجرد عجز عقولنا فحسب ، بل الأمر يتعدى ذلك بمراحل كثيرة ؛ لأنه قد يكون هناك في الكون كائنات ومخلوقات أخرى تتسع عقولها لما تضيق عنه عقولنا ، وتخترق من الحجب ما وقفت عقولنا إزاءه مستسلمة لعجزها وتستطيع أن تصعد فى سلم الإدراكات إلى أقصى غاية وأبعد مقصد ما قصرت عقولنا عنه .

- أيكون فى إمكانها أن تدرك مالم ندركه ؟
- أو أن تصل إلى مالم نصل إليه ؟

طالما أتيح لها مالم يتح لنا ، وزودت بما لم نزود به ؟

لا....

لأن الأمر هنا لا يتعلق بقدرة عقول وسعتها ، واختلاف تلك العقول من حيث القدرة والقوة . ولكن الأمر يتعلق أولا وأخيرا ((بالذات)) .

فلا يعقل الذات الإلهية ، ولا يدركها كما يجب ان تدرك إلا الذات نفسها ولا يحاط الإحاطة التامة بالذات إلا الذات ويقول الله عز وجل :-



﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام: ١٠٣)
لا ندرك الذات الإلهية مع أننا مخلوقون منها . فنحن متصلون اتصالا قويا بالذات كأقوى ما يكون الاتصال من خلال كوننا مخلوقين . وفى نفس الوقت منعزلين انعزالا تاما من خلال عجزنا عن إدراك الذات الإلهية .

وهذا ما أوجد لدينا ما يسميه ((**المتصوفة**)) بالشوق إلى الله ، أو الميل أو الاتجاه أو القصد إليه أو الحب أو الانجذاب . نريد ان نعبر تلك الهوة الواسعة التى تفصلنا وتعزلنا عن الله ، هذا العجز الإدراكى هو ما يدفعنا دفعا إلى الله ، دفع قدرى لا نملك حياله شيئا ، يستغرق كل خلية من خلايانا ، حتى بعد ان تفنى تلك الخلايا ، وهذا ليس بالغريب ؛ لأن الحب كان موجودا قبل أن توجد ، بل هو سبب إيجادها أول مرة ، حينما خلقت من العدم ، وهو سبب إيجادها المرة الثانية (**البعث**) .

بعد أن نفنا ويطوينا العدم فى طياته لا تنتفى **علاقة ((الله))** بنا ، تظل العلاقة ، بل تكون أقوى وأجل ، تصبح العلاقة فى أجلى صورها وأوضح معانيها بين الباقى والفانى ، بين الخالد والزائل ، بين الخالق وما يتصف به من صفات السمو والعلو والعظمة والكبرياء والقوة والجبروت والجلال والجمال ، وبين المخلوق وما يطرأ عليه من صفات الضعف والفناء والذل والقبح والهوان .

الفناء حالة من الحالات التى تطرأ على الكائن الحى ، أو هو صورة سلبية للوجود .

ولم نقول سلبية ؟ فللوجود صور لا تحصى . لا نعلمها - يفنى الكائن أو تفنى صورته المتلبسة بالزمان والمكان ، ويبقى الأصل والجوهر .

التلبس بالزمان والمكان حاجبان يحجبان الكائن أو يمنعانه من الاتصال القوى والحق بالله ، الصلة والعلاقة موجودة ، ولكنها فى غاية الوهن والضعف وحينما ينسلخ المخلوق عن الزمان والمكان تكن العلاقة فى أقوى صورها ... يصير المخلوق وعيا كاملا موحد الاتجاه ، محدد القصد ، مستغرقا استغراقا كاملا فى التأمل أو المشاهدة ، فلا حاجب يحجبه عن الله ، ولا شاغل يشغله عن الله يصل إلى حالة من حالات اليقين .

التصوف بين العلم والفلسفة

يعتبر التصوف هو المذهب الوحيد أو الاتجاه الذى حدد طريقه منذ البداية عن كيفية الوصل إلى الله ، وبطريق مباشر قصدا وعمدا .

لم يكن الأمر مع التصوف كما هو مع العلم ، فكما رأينا أن العلم وجد نفسه فى وقت من الأوقات مجبرا ومدفوعا أن يعترف بوجود الله حتى تتسق نظرته للكون ، وحتى يكون لديه نظرة شاملة تستوعب الوجود الإنسانى الرحب ، فقد بدأ من المادة وانتهى أو قادته أبحاثه أو دفعه جهده العلمى إلى أن يعترف بوجود الله .

كذلك لم يكن الأمر مع التصوف كما هو مع الفلسفة ، فجميع المذاهب الفلسفية لا تستطيع أن تقيم أى أساس فكرى مقنع أو أى قاعدة عقلية قوية إلا وهى مستندة على ركائز تعترف وتقر بكل صراحة بوجود الله ، وأى بناء فكرى أو نسق فلسفى يتجاهل أو يتغاضى عن تلك الفكرة معرض للانهيار ، أو هو ينظر إلى الوجود الكونى والوجود الإنسانى نظرة فيها الكثير من الاعوجاج والانحراف لذلك تأتى تخريجاته الفكرية والتأملية مبتورة أو مطموسة الملامح ، وكل حديثها

لا يتطابق مع الوجود الإنسانى الحق . والفلسفة لم تصل إلى تلك القناعة إلا بعد جهد ووقت عظيمين .

التصوف لم يبدد الكثير من الوقت والجهد – كما حدث مع العلم والفلسفة بل بدأ من حيث انتهى العلم وانتهت الفلسفة فيما يخص المسألة الإلهية ، بل تجاوز ذلك بمراحل ، فهو لم يبحث فى الأدلة التى يثبت بها وجود الله أو البراهين التى تبرهن على ذلك .

ولم يحاول أن يتغلغل فى الكائنات ليصل إلى أسرارها ومن ثم إلى مبدعها وخالقها ، ولم يحاول أن يضع تصورا عقليا للذات الإلهية ، وأن يبحث فى صفات تلك الذات ، وما يتعلق بهذا الأمر .

التصوف وضع بديهيات لم يناقشها . ولم يقف أمامها طويلا .

- الله موجود ...لا شك فى ذلك ، وتلك بديهية غير قابلة للمناقشة أو البحث .
- ذات الله تجل وتعلو وتسمو عن أى تصور عقلى ، بل مسألة العقل تلك غير مطروحة بالمرة ، وليس هناك أى استعداد لإشباع طموحات العقل أو إرضاء رغباته فيما يخص ذات الله .

كيف أصل إلى الله ؟

هذا هو السؤال الذى طرحه التصوف ، وإن كان التصوف لا يطرح أسئلة أو يلقى فرضيات .

- ✓ لنقل إنها رغبة أومهمة ، أو إحساس غامض إلى حد ما .
- ✓ لقد حاول العلم ذلك ، من خلال المادة .
- ✓ وحاولت الفلسفة ذلك ، من خلال الفكر.

- ✓ هذان - المادة والفكر - مستبعدان تماما لدى التصوف ، التصوف يبحث فى إزالة العوائق ، وإزاحة الحجب ، والمادة والفكر عائقان أو حاجبان يحجبان الإنسان عن الوصول إلى الله .
- ✓ إذن لم يبق إلا النفس الإنسانية .
- ✓ فكما أن مجال العلم المادة .
- ✓ ومجال الفلسفة الفكر .
- ✓ فمجال التصوف النفس الإنسانية .

****

وشئ آخر يختلف فيه التصوف عن العلم وعن الفلسفة ، أن العلم أقام بنيانه الشامخ بعيدا عن فكرة الألوهية واستكمل هذا البنيان إلى حد ما ، ثم بعد ذلك اكتشف أن هناك خواء ، هناك نقص فى هذا البنيان ، لن يكتب ويقدر له التمام إلا بأن يضع فكرة الألوهية أساسا لهذا البنيان ، أو يعطيها المكان والمقام الملائمين لها والذى تستحقه .

والفلسفة كانت تضع عينا على قضاياها الفكرية والفلسفية والأخرى على قضية الألوهية ، وكانت أحيانا تتغاضى أو تتغافل عنها للأسباب التى سبق وذكرناها .

أما التصوف فلم يتبلور ، ولم تقم له قائمة ، ولم يظهر إلى الوجود إلا لتحقيق الرغبة السامية ، وهو الوصول إلى الله .

خيار التصوف

واختيار التصوف للنفس ليس قائما على المفاضلة بين المادة والفكر والنفس ، فالمادة - وهى موضوع العلم - ليست واردة على بال التصوف ، وإن كانت موجودة فهو وجود وهمى .

وكذلك الفكر - وهو موضوع الفلسفة - فليس واردا على بال التصوف وإن كان موجودا فهو وجود وهمى كذلك .

إذن الحقيقة الوحيدة الماثلة هى النفس ، حتى هذه - فى النهاية - سوف يكتشف التصوف أن ليس لها وجود حقيقى ، لأن الوجود الحق الوحيد هو وجود الله ، وما سوى ذلك فليس بموجود ، أو على أحسن الفروض فهو وجود لا دوام له .

والوسيلة التى اختارها التصوف للوصول إلى الله ، ستملى عليه الأسلوب أو المنهج الذى سيتبعه فى ذلك ، فالغاية العظمى هى الله عز وجل ، إذن قبل أن اتجه بها فى الطريق لابد أن تهيأ تلك الوسيلة ، لابد أن تعد وتجهز بما يتناسب وسمو ورقى وعلو الهدف .

" والله سبحانه وتعالى جميل يحب الجمال ، ولا يقرب إلا كل جميل والجمال ليس فقط مظهرا براقا يانعا ، بل هو جمال الجوهر في تحققه بالقيم العليا والحقائق السامية " (١) .

التصوف نوع من التطهر

جاء فى ((المعجم الوجيز)) من معانى التصوف :

- " طريقة سلوكية قوامها التقشف والتحلى بالفضائل لتزكو النفس وتسمو الروح " .
- و " علم التصوف مجموعة المبادئ التى يعتقدها المتصوفة والآداب التى يتأدبون بها فى مجتمعاتهم وخلواتهم " .

إذن هو ليس بحث نظرى فى كيفية الوصول ، وإنما هو سلوك عملى هدفه إذكاء النفس وتطهيرها لتسمو الروح وآداب يتأدب بها الصوفى .

وأيضا " التصوف آداب وتزكية نفوس ، وتطهر أخلاق ومجاهدات وتصحيح معاملات " (٢) .

وكذلك " حركة الروح نحو الأعلى الوجودى لا المكانى وحقيقة الأشياء كلها " (٣) .

الهدف نبيل ، والغاية سامية ، بل الأسمى فى الوجود . إذن يجب أن يدفع الإنسان دفعا ليحصل على أعلى مدارج الكمال والسمو الإنسانى ، وقد لا يكون هذا إلا من خلال تحصيل جملة من المعارف العقلية أو الإلمام بتصانيف من العلوم الإنسانية ... نعم إن هذا من شأنه أن يوسع مدارك الإنسان ويصقل من عقله ولكنه لا يستطيع أن يرتقى بالنفس ، لذلك لابد من وضع منهج تسير فيه النفس من الأدنى على الأعلى ، تظل تترقى فيه واضعة ذلك نصب عينيها .

" والتصوف فى حقيقة الأمر ليس علما مكتسبا يستطيع الإنسان أن يحصله بالقراءة ولو أفنى فى ذلك زهرة شبابه ونضارة حياته ، ولكن التصوف ذوق يكتسب بالعمل والسلوك والتهذيب النفسى والخلقى وحين ذلك تثمر هذه المجاهدة أحوالا وأذواقا قد يعبر عنها الصوفى أو لا يعبر " (٤) .

ومن هنا كانت صعوبة هذا المنهج ووعورة مسلكه ، أنه عمل وسلوك وفعل ومجاهدة ، ومحاولة جادة لفطم النفس ، ليس عن الحرام ، وما نهى الله عنه فحسب بل ردعها عن بعض الحلال ، وحظرها المباح أحيانا ، كما يقول الإمام الغزالى **" النفس إذا لم تمنع عن بعض المباحات طمعت في المحظورات "**

فالصوفى لا يريد السيطرة والتحكم فى نفسه فحسب ، وإنما تلك وسيلة بل هى وسيلة لوسيلة أخرى ، وهى أن تترقى النفس وتزكو لتكون مهيأة أن تبدأ طريقها إلى الله .

- ❖ ومن هنا كان الإعراض عن هذا المنهج .
- ❖ ومن هنا كان الهجوم الشديد الذى يتعرض له .
- ❖ ومن هنا كانت الكراهية الشديدة لهذا الأسلوب .

ولكن هذا الإعراض وهذا الهجوم وتلك الكراهية نابعة من عدم الفهم لحكمة التصوف ، أو مع بعض التجوز لفلسفة التصوف ..... إنه محاولة جادة ومخلصة ومستمرة للتخلص من أهم ما يفسد على الإنسان صفو وجوده ، من أهم ما يعوقه عن الوصول إلى الله .

ضرورة التصوف

وربَ سائل يسأل ما ضرورة التصوف ؟ ألا يكفينا العلم والفلسفة والدين ؟

لا أحد يقلل من شأن العلم ولا الفلسفة ولا الدين ، ولكن الأمر متعلق بداء و مرض ، وأن هذا الداء والمرض يستفحل فى وقت من الأوقاتى استفحالا شديدا هذا الداء فى حاجة إلى علاج ، علاج يكون على قدر شراسة الداء ، والداء الذى نعيشه فى عصرنا هذا ، هو ترك النفس على هواها ، تدليل النفس ، الاستجابة لكل رغباتها ، ووضع عناوين ممقوته لأى صورة تردع النفس عن هواها ، أصبح مقياس السعادة الزائف فى الحياة المادة ، وكيفية إرضاء أو إشباع النفس ، وللأسف النفس لا تشبع ولا ترضى ، وكل المأسى والشرور التى نراها فى العالم وحدثت وستحدث هى المادة ، وكيفية الحصول عليها بأى وسيلة من الوسائل ....

هنا لابد من الوقوف أمام النفس والتى قال عنها الإمام البوصيرى :

والنفس كالطفل إن تهمله شب علـــى *** حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

فالنفس كالطفل يجب تذكيرها بأن الحياة ليست مادة ، ليست إشباع رغبات وتلبية مطالب ، لم يخلق الله عز وجل الإنسان ليأكل ويتناسل فقط ، فهذا درك حيوانى بحت ، اختاره من أراد أن يعيش كالدواب ... ولكن هناك جانب آخر خلقنا من أجله ، بل لم نخلق إلا من أجله ، وإذا لم يتحقق هذا الهدف فحياة الإنسان نوع من العبث ، وجود لا قيمة له ، ولا جدوى فيه . هذا الهدف هو العبودية لله . فلأن الله قد اختار الإنسان من مخلوقاته دونا عن غيره لتحقيق هذا الهدف

ولأن العبودية لله من أشرف وأجل الغايات ، لأنها تتعلق بذات الله ، فقد كان خلق الإنسان من الشرف والجلال ما يتناسب وتلك الغاية .

أشرف المخلوقات لأشرف الغايات .

هذا الشرف ليس من طبع الإنسان ولكنه مهيأ له ، معد له ، ميسر له ، هناك عوامل نفسية وإمكانات وجدانية ، وكذلك هناك ظواهر كونية تدفعه إلى ذلك أو تهديه أو ترشده إذا هو عزم أن ينهض بهذا الهدف ، والهدف الأسمى ، ولامقصد الأجل هو الاقتراب من الله ، وبداهة لن نستطيع فعل ذلك إذا كان كل تفكيرنا صباحا مساءا فى كيفية تحقيق الطموحات المادية وتلبية رغبات النفس الإنسانية .

" ولا يخفى أننا نعيش في عصر مادى مسرف في المادية ، ولم يعد الناس فيه – اللهم إلا قلة واعية – يلقون بالا إلى القيم الروحية ، وأصبح الغالب على حياة الناس فيه عدم الاستقرار النفسى الذى ينبعث من نظرهم إلى كل شئ في ضوء المادة وقياسهم كل شئ بمقياس الحس " (٥) .

لا أحد ينكر أن حياتنا فى العصر الحاضر قد أصابها خلل ، وألم بها اضطراب ، ولم تعد متزنة ، وأن وجودنا لم يعد ممتعا ، لا أحد يشعر الدفء والإشراق الملل والسأم والضيق أصبح نغمة سائدة ، ويحاول الإنسان الهرب من ذلك بالانغماس فى بحر الماديات ، ويا ليته يرتوى ، ولكنه يعود منه أشد ظمأ ومللا وضيقا ؛ ذلك لأنه لم يسلك الطريق الصواب ، هو فى حاجة أن ينقذ نفسه يعيد لها استقرارها وأمنها واطمئنانها ورضاها وهدوءها واتزانها .

التصوف هو الكفيل أن يؤدى تلك المهمة الشاقة والعسيرة ، نعم إن التصوف له مهمة ودور فى الحياة ، ليس انعزالا وخلوة ، وهو وإن انعزل فليكون أشد

قربا من الحياة ، وإن اختلى فليكون أشد التصاقا بالوجود ، إنه يلملم شتات النفس ، يعيد إصلاح ما انصدع من الوجود الإنساني ، فهو منهج راق ومثال لكيفية أن يعيش الإنسان حياته .

" والتصوف في رأينا منهج كامل في الحياة ، والصوفي المحقق هو الذى لا يرى تعارضا بين حياته التعبدية وحياة المجتمع الذى يعيش فيه ، بل هو الذى يستعين بحياة التعبد على حياة المجتمع وما فيها من مشقة وكفاح والتصوف بهذا الاعتبار يعد ((فلسفة إيجابية)) تضفى على حياة الإنسان معنى ساميا " (٦) .

نعم هناك مذهب أو اتجاه أو تيار يسود العالم اليوم ، وهو الإعلاء من شأن المادة ، تقديس كل ما يشبع الجسد ، ويروى من ظمأ النفس ، ولا يكلفها عناء ولا مشقة ، وإن هذا المذهب يكسب أنصارا ومؤيدين وداعين له ليس كل يوم بل كل لحظة ، والهدف تحويل العالم كله إلى وكر للملذات والشهوات ، وجعل العالم عبارة عن معبد وثنى ، يقدس فيه الجسد والمادة ، كعبته التى يطاف حولها كل آن وحين القوة الطاغية ، عالم لا مكان فيه للروح ، لا موطن فيه للضمير ، البشر فيه عبيد وأرقاء للسادة المستبدين والمهيمنين والمسيطرين ، لا مكان فيه للحب والتراحم والسلام ، وإن ظهر داع للمودة والمرحمة بين بنى الإنسان ، ليوقف من سرعة تلك الدوامة التى تريد ابتلاع العالم ، فالواجب إسكاته إلى الأبد ... وها هو حال العالم اليوم شاهد على ما نقول ... العدل هو ما يراه القوى المستبد ، القانون هو ما يملى نصوصه ، الرأفة والرحمة هما ما يتفقان مع مصالحه ، الحكمة والصواب هما ما يوافقان نزواته وشهواته ، والذى يقف أمام هذا الطاغوت فمصيره ليس بخافٍ عن أحد .

هنا تظهر ضرورة التصوف ، لأن الإنسان فى حاجة أن يكفر بتلك المذاهب والاتجاهات ، أن يجد فى نفسه القوة لمقاومة كل هذا الإغراء ، يحاربها ، يناصبها العداء ، يحاول ألا تكون لها صدى أو تأثير فى نفسه ، لأنه يعتصم بضميره ومن قبل يعتصم بالله .

" ولكن التصوف على حقيقته الكاملة هو حرية الضمير في الإيمان بالله على الحب والمعرفة ، وبلوغ هذه المرتبة هو فضيلة الإسلام الذى أطلق ضمير الفرد من عقال السيطرة الروحية وييسر له أن يلوذ بسريرته هذا الملاذ الأمين الذى لا يداخله فيه حسيب أو رقيب غير حسيبه ورقيبه بين يدى الله ولا غنى عن مثل هذا الملاذ في زمن من الأزمنة ولا في جماعة من الجماعات ، ولا سيما الأزمنة التى تبتلى فيها الضمائر الصوفية بالقلق بين الجماعات المضللة عن سوائها ، جهلا بحقيقة الدين أو جمودا عن المألوف من بقايا الأقدمين . في مثل هذه الأزمنة لا يستغنى ضمير الإنسان عن ملاذ يعتصم به ويأوى إليه بين جماعته ، وهو عامل فيها حريص على هدايتها غير معتزل لشؤونها ، ولا حاجة بالمسلم في أمثال هذه الأحوال إلى ابتداع شئ في أصول دينه فإن أصول دينه الأولى قائمة على حرية الضمير ، تنهاه أن يستسلم لما يأباه رغبة أو رهبة أو مجاراة لعرف الأكثرين إذا كان الأكثرون لا يعلمون " (٧) .

التصوف آية كونية

وإذا كان التصوف فى أحد معانيه ، أو فى جوهره عبادة خاصة صادقة صافية مخاصة لله ، فإن الكون كله بلا استثناء فى حالة تصوف .

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ ﴾ (الإسراء: ٤٤)

فالإنسان ليس بدعا فى هذا الأمر ، ولكنه يدخل فى أنشودة قدسية لتسبيح الله عز وجل .

" والتصوف الإسلامى آية سرها فى الهدى القرآنى ، والروحانية المحمدية وإنى لأحسبه أحيانا آية كونية لأنه ضرورة لازمة لهذا الوجود وغاية من غاياته وحجتنا **قوله تعالى** :-

﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ (الذاريات: ٥٦ - ٥٨.)

والتصوف هو أكمل صور العبادات فى خير أمة أخرجت للناس لأنها تطوع دائم للعبادة ، تطوع بعد الفرائض والنوافل ، ولهذا لم يكن شرعة عامة ، بل كان ميزة خاصة لمن أخذ الكتاب بقوة واصطفاه الله وأتاه عزما وعلمه من لدنه علما " (٨) .

التصوف نوع من المقاومة

فى وقت تعز فيه المقاومة ، لا يظن أحد أنه مقاومة سلبية ، بل هو فى أعلى درجات الإيجابية .

فحينما يجتاح العالم كله أو يتعرض لإرادة طاغية ، توافرت لها كل أسباب القدرة ، راغبة فى تغيير القيم والمعايير ، وإعادة تشكيل وتكوين البشر ، وفق ما تهوى والعبث بضمائرهم واللهو بأرواحهم ، لتنفيذ مخطط شيطانى الوسيلة ، جهنمى الهدف للعودة آلاف السنين إلى الوراء ، إلى زمن العبودية والرق والخضوع لغير الله والإشراك به ، هنا لا قيمة للفرد ... هو مجرد رقم فى حسابات تلك الإرادة الطاغية هنا لا قيمة للآدمى ... إنه مجرد عائق ينبغى سحقه وإبادته لتمهيد الطريق لإقامة إمبراطورية الشر والدم ، إمبراطورية الكفر والشرك . هنا لا قيمة للضمير .. إنه نوع من الجبن والتردد ينبغى القضاء عليه لعدم تأجيل أو تأخير المخطط . هنا لا قيمة للحب ... لا قيمة للرحمة ... لا قيمة للتسامح .

حينما يسود العالم تلك الظلمة ، ويسيطر عليها ذلك الضلال ، فلابد أن يكون هناك مقاومة ، رفض أن يتنازل الإنسان عن فرديته ، أن يبيع الإنسان آدميته ، أن يقايض على حريته ، أن يرهن روحه ، ويراهن على عقيدته ، وليس أمامه إلا أن يلجأ إلى حصن قوى يتحصن به كى لا تذوب أسوار مقاومته ، ويعلن منه صيحات التحدى لتلك الدوامة الشيطانية التى تريد ابتلاعه ... يرفض فيه الإغراءات والشهوات وعالم المادة الذى تحلم به النفوس الخسيسة والقلوب المريضة غير خائف ولا وجل من الإرهاب والتهديد والوعيد .

هذا الحصن هو التصوف ، عودة إلى جوهر الإنسان الحقيقى ، إلى معدنه الأصيل ، فهنا يعطى كل شئ حجمه الصحيح ، واسمه الصادق ، لا تزييف لا غش لا خداع لا مكر لا طمع لا شره لا حقد .. كل شئ فى مكانه ... الحب والتسامح والرحمة ترفع ألويتها ليعيش فى ظلها بنو الإنسان ، لتنفيذ مشيئة الله .

نعم ... الإنسان في حاجة - بين الحين والآخر - أن يغمض عينيه ، أن يصم أذنيه ، وأن يحول بين هذا السيل الجارف من الترهات وبين عقله ، وأن يقيم حاجزا بين تلك الدعاوى المغرضة وبين قلبه ، ويلملم شتات نفسه ، ويفكر ويتأمل بكل هدوء وتريث ويسأل :

- ما الذى يحدث فى العالم الآن ؟
- ما المصير الذى سينتهى إليه ؟
- ومن وراء كل ما يحدث ؟
- وما موقفى من كل ما يحدث ؟
- كيف أحافظ على آدميتى وأصون عقيدتى ؟
- كيف أكون لبنة فى صرح الخير والسلام والعدل والوئام ؟

هذا ما الإنسان فى حاجة إليه ، وأن ينفذ تلك الحاجة فى غاية العسر ؛ لأن أعداء الخير والسلام لن يتركوا لأحد أن ينعم بتلك اللحظات ، إنهم كالشياطين التى تفسد على المصلى صلاته ، وتقطع على المتأمل تأملاته ، لأنها تعلم يقينا أن تلك اللحظات هى لحظات شحن ومدد ، يستمد المرء من خلالها القدرة على المواجهة وصواب الرأى ، وصلابة الإرادة ، يخلع الإنسان خلالها ثوبه الطينى وتجرد من أهوائه ورغباته وشهواته ، ويعود إلى جوهره الروحانى ومعدنه النورانى

يصل إلى الحقيقة التى يحاولون أن يخفوها على العالم ، أن حياة الإنسان – مهما طالت قصيرة ، وأن وجوده مهما تأصل ظل زائل ... لذا ينبغى أن يعمر الوجود بالحب والتسامح والرحمة ، لا بالكره والقسوة والانتقام .

" التصوف يقدم حلولا عديدة لكثير من مشاكل الإنسان اليوم ، إنه يساعد الإنسانية على التحقق بالقيم العليا الصانعة للسلام الكونى ، والباثة للمودة والأخوة بين البشر وفي الوقت نفسه ، يدعم التصوف معركة الإنسان ضد كل القوى التى تعمل على تشيئه وتغيبه وامتلاكه واستلابه وتغريبه وإزاحته من مركزية الوجود لمصلحة الآلة ، والمادة والاستهلاك ، ضد كل القوى التى تعمل على إسكات إبداعه وتفرده وتميزه وذاتيته ، إن التصوف يحقق إنسانية الإنسان ويصر على الإيمان به وبأنه عمد الوجود وبانيه ، وأنه القيمة الكبرى والثورة الحقيقية في الكون ولولاه يندرج الوجود في العدم .

إن الصراع العالمى اليوم هو صراع ثقافتين ، صراع فكرين ويندرج الفكر الصوفي في إطار الثقافة التى تدعم الإنسان نماءه المادى والمعنوى ، البدنى والروحى في مواجهة الثقافة التى هى ضد الإنسان .

ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى فكر يعلى من قيمة الإنسان وينظر إليه على أنه مركز الوجود ومحور الكون وحامل الإمانة الإلهية " (٩) .

نعم نحن فى حرب دائمة ، ليس لها مكان محدد ، ولا محدود ، ولا تستخدم فيها أسلحة معروفة ، أو لنقل نحن فى جهاد ، وجهاد أكبر ، جهاد نجاهد فيه أنفسنا قبل أن نجاهد أعداءنا ، ولن يتسنى لنا الانتصار فى أى معركة قبل أن ننتصر على أنفسنا ، نجاهد فى نفوسنا كل رغبة تنزل بنا عن كرامة الإنسان ، كل شهوة تحط من قدرنا كآدميين ، كل إغراء يغض من شأننا كعباد من عباد الله منحنا الكرامة .

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا  ﴾ (الإسراء: ٧٠)

وشرفنا بإرسال رسله وكتبه .

هذا الجهاد خلق أصيل ومكون أساسى من مكونات التصوف سنذكره فى حينه إن شاء الله .

أهمية التصوف

لضرورة التصوف تنبع أهميته ، ومعنى ضرورته انه لازم للإنسان لزوم الأشياء التى لا يقوم وجوده وبقاؤه إلا بها ، كالماء والهواء والطعام ، وأشياء أخرى كثيرة وإن نقص عنصر من عناصر تلك الأشياء تعرض وجوده للتلف والفساد سواء على المدى القريب أم على المدى البعيد ، أما أهميته فترجع إلى انه شئ لا يستغنى عنه للارتقاء بالفرد ومن ثم بالجنس البشرى .

وهناك نوعان من الارتقاء أو مستويان :

المستوى الأول:- وهو أن يكون الإنسان محتفظا ومحافظا على صفاته الإنسانية لا يتدنى إلى المستوى الحيوانى ، ولا ينحرف إلى المستوى الشيطانى لأن الإنسان بما حباه الله من الصفات كائن راق بالنسبة لبقية الكائنات والمخلوقات ، كرمه الله بميزة العقل والروح .

المستوى الثانى:- وهو أن يعلو الإنسان ويرتقى درجات فوق المستوى الأول ليكون مهيأ لأن يقترب من الله ويصل إلى أقصى درجات التطهر... فأنت لا تستطيع أن تعبد الله وتؤدى ما فرضه عليك إلا وأنت طاهر – الطهارة على اختلاف مستوياتها – تلك الطهارة لا سيما النفسية تعينك على أداء العبادة ، أو تشعرك أنك مقدم على أداء شئ خاص ومميز ، فعل ليس كبقية الأفعال ، فعل يتجسد الإخلاص ليس لأحد من البشر ، ولكنه لله وليس له غاية أو هدف ، إلا أنه يتناسب – بقدر ما يسع الجهد الإنسانى –

مع عظمة وجلال وقدسية الله ، طهارة خارجية ، وطهارة داخلية ، وهى خلو القلب من كل شئ سوى الله ... تأمل نصيحة الشيخ ((محي الدين بن عربى)) لمريده وهو يتأهب للصلاة :

" فإذا توضأت فاسع في الخروج من الخلاف وتوضأ ، أسبغ وضوء ، وسم الله في بدء كل حركة ، وأغسل يديك بترك الدنيا منها ، ومضمض بالذكر والتلاوة واستنشق بشم الروائح الإلهية ، واستبر بالخضوع وترك الكبر وأغسل وجهك بالحياء ، وذراعيك بالتوكل وامسح رأسك بالمذلة والافتقار والاعتراف ، وامسح أذنيك باستماع القول واتباع أحسنه ، وأغسل قدميك لإيطاء كثيب المشاهدة ثم اثن على الله بما هو أهله ، وصل على رسوله الذى أوضح لك سنن الهدى صلى الله عليه وسلم ، وقف في مصلاك بين يدى ربك من غير تحديد ولا تشبيه وواجهه بقلبك كما توجه الكعبة بوجهك وتحقق إن ما في الوجود أحد إلا هو وأنت فتخلص ضرورة وكبره بالتعظيم ومشاهدة عبوديتك وإذا تلوت فكن على حسب الآية المتلوة فإن كان ثناء عليه فكن أنت المحدث وهو الذى يتلو كتابه عليك فيعلمك الثناء عليه فيما يثنى به على نفسه ، وكذلك في آية الأمر والنهى وغير ذلك لتقف عند حدوده وتعرف ما وجه عليك سيدك من الحقوق فتحضرها في قلبك لأدائها والمحافظة عليها والحظ ناصيتك بيده في ركوعك ورفعك وسجودك وجميع حركاتك فتسقط لك الدعوى في هذه الملاحظة حتى تسلم فإذا سلمت فابق على عقدك إنه ما ثم أحد غيرك وربك سبحانه وسلم بالفظ على من أمرك فإن سلامك على نفسك " (١٠) .

هنا تجد أن كل شئ غاية فى حد ذاته ، وكل حركة من الحركات وراءها رصيد عظيم من الإخلاص ، واستشعار الفعل المقدس الذى أنت مقبل عليه ، ستقف بين يدى خالقك وخالق الأكوان ، الواحد الأحد ، العظيم القهار الرحمن الرحيم ذى الجلال والإكرام .

بدون هذه التهيئة والإعداد النفسى والوجدانى والقلبى والعقلى ، لا أظنك ستفلح أن تعقد صلة تصلك بربك .

إذن أهمية التصوف تأتى من أنه باب مفتوح يطل من خلاله الإنسان على مدارج الرقى والسمو، وتثبت وتؤكد على الإمكانات والطاقات المهولة داخل الإنسان والتى يمكن أن يستثمرها لجعل حياته أكثر إشراقا، وأنه منحى جديد ومختلف لجلب السعادة، وأنه اقتراح وجيه لوجود أصيل ثر، أو رافد عظيم لوجود الإنسان، غير تلك الروافد التى تعتمد على الأمانى الكاذبة لإشباع مادى لا يتحقق إلا بالتضحية بالقيم والمبادئ، وإن تحقق بعد ذلك، فهى وصمة يوصم بها الإنسان أن بعد سعيه الدءوب وجهده المستمر لم يرتفع فوق مصاف الدواب بل هو أضل.

عبارة عن برنامج متكامل لتحقيق سعادة الإنسان وأمنه واستقراره بأبسط الإمكانات ... هذا البرنامج – إذا نفذ – يتيح للإنسان أن يكون وحدة مستقلة – إراديا عن العالم حوله، لا يريد منه شيئا، ولا ينتظر منه شيئا، مستغنيا عن العالم الذى يريد أن يغتاله أو يستنزفه، لآخر رمق، يكدر عليه صفو وجوده يبدد له استشرافه لرؤى وجود دافئ وهادئ ومستقر.

والصوفية ليست تعليمات خارجة عن منطق العقل، والصوفيون ليسوا أناسا خارجين عن منطق الحياة، ولكنها اقتراح أو عرض سخى لأن يمتلك الإنسان زمام نفسه، وإذا نجح الإنسان فى السيطرة على نفسه فلا شك أنه ناجح فى السيطرة على العالم، أو فى أسوأ الفروض سيكون فى غنى عن هذا العالم.

" وإن إناسا من أبناء العصر الحاضر يحسبون أن الصوفية بقضها وقضيضها تراث مهجور ولكنهم يعلمون كل يوم – وسيعلمون – إن الإنسان لن يستغنى في حياته يوما واحدا عن الصوفية في ناحية من نواحيها، لأن رياضة النفس ضرورة لازمة كرياضة الجسد، وأكبر ما يلقاه الناس في العصر الحاضر فإنما هو إفلات زمام الإنسان العصرى من يديه ولا غنى له يوما عن ذلك الزمام، ولا غنى

في سياسة جسده عن بعض الحرمان باختياره وعن بعض الشدة برضاه وأحرى أن يكون ذلك شأنه في سياسة النفوس "(١١) .

والإنسان – بل الجنس البشرى كله – متشوق أن يعرف أقصى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان من درجات الكمال واقعا وفعلا ، وهل إذا حاول الوصل إليها فهو بالغها ؟ أم أنها حلم من الصعب تحقيقه ، ومن العسير تحويله إلى واقع ملموس ؟

فهناك دعاوى ومذاهب واتجاهات تقول إن الإنسان أسير رغباته وشهواته وواقع تحت ضغط طموحاته المشروعة منها وغير المشروعة ... وأنك لوجردته من هذا لم يبق منه شيء، لأنه ليس غير تلك الرغبات والشهوات ، فالذى يجرى على جميع المخلوقات الدنيا يجرى عليه ، وليس هو بدعا من الخلق !!

التصوف – والإسلامى خاصة – يضحض تلك الدعاوى ، ويثبت أن الإنسان فى إمكانه أن يكون مخلوقا شريفا نبيلا ، أن يكون سيد المخلوقات وأمير الطبيعة حوله .

" والتصوف الإسلامى هو أعلى قمة حامت حولها المحاولات العالمية للكمال الروحى والمعارف اللدنية ، ولا أقول بلغتها ، لأن سبل الكمال الروحى قد تعددت بتعدد الفلسفات وتعدد الوسائل والغايات ، فقد حاول قوم أن يقبسوا من نور هذا الكمال بالتصفية والتخلية كرجال الفلسفة الإشراقية ، وحاول قوم أن ينالوه بالنسك والطهارة كزهاد اليوجا الهندية ، وحاول آخرون أن يبلغوه بالاستغراق والتأمل كأصحاب المذاهب النظرية والفلسفية "(١٢) .

التصوف نوع من الكمال

وأهمية التصوف ترجع إلى أنه لا بديل عنه ، لا عوض له ، أنت لا تستغنى عنه بالفلسفة ، أو بأى مصدر معرفى آخر ، لأنه صميمه سلوك وعمل ، جميع المعارف تهدف إلى الرقى والسمو العقلى ، وأحيانا تترجم إلى سلوك ، التصوف يبدأ من الفعل وينتهى إلى الفعل ، بل ليس له نهاية ، إنه سعى دائب للتدرج البطئ والوئيد الراسخ نحو الكمال الروحى والنفسى ، فانت لا تستطيع أن تؤدى ما أمر الله به كاملا إلا بعد بلوغك حد الكمال ، النقص لا ينتج عنه إلا نقص ، وتلك بديهة تغيب عن الكثيرين ، أنت عاجز عن تأدية فعل ما كاملا طالما أنت ناقص ، ولن تستطيع أن تشعر بصفات الكمال الإلهى إلا إذا تلمست درجات الكمال النفسى ... كيف تدرك شيئا أو تتذوق شيئا ليس له أى صدى فى نفسك ؟ !

فنحن لن نصل أو نقترب أو نتذوق أو ندرك صفات الله الكاملة ألا إذا بلغنا درجات الكمال الإنسانى أولا ، فإذا كان هناك إرسال من الله ، فاستقبال هذا الإرسال أو الرسالة يتوقف على قدرة وكمال وسلامة أجهزة نفوسنا المستقبلة لفيوض هذا الإرسال .

" التصوف الإسلامى ليس مذهبا من مذاهب الفلسفة ، ليس نحلة من نحل الزاهدين والمتأملين ، وليس هدفه من تلك الوسائل ما تهدف الفلسفة من كمال عقلى وطاقة نظرية وما ينشده الزهاد والنساك من إطلاق لقوى الروح ، حتى تأتى بالعجائب والغرائب ، وإنما التصوف الإسلامى هو كمال في العبادة ... وكمال في الطاعة وكمال في العبودية ، هو محبة لله وعمل على رضاه وأمل في نجواه هو أنشودة يشترك فيها القلب والروح والجسد والجوارح ، أنشودة تسبح بحمد الله لا تفتر ولا تهدأ لأن لحنها دائم الحياة في القلب . دائم الحياة في الروح . دائم الحياة في الإدراك والحس ، أنشودة تحيل الكون بأسره إلى آية ربانية يلمسها القلب كما تراها العين وتسمعها الأذن كما تدركها الروح .

فإذا بكل شئ محراب ، وإذا بكل شئ مصلى ، وإذا بالصوفي لا يبرح المحراب ولا يفارق المصلى أينما توجه بوجهه وسبح بفكره ، إنه دائما مع الله ، فهو متأدب بأدب من أحس يقينا في كل لحة بصر بأن الله معه يسمع ويرى وما يأتى بعد ذلك من علم وفيض ، وما يأتى بعد ذلك من خارقة أو كرامة ، وما يأتى بعد ذلك من كمال روحى أو إشراق نفسى فهو نافلة لأنه وسيلة لا غاية وسلم لا هدف .

فالمعارف الصوفية إذن ثمرة الكمال في العبادة ومنحة الفيض في الطاعة وأنوار القلب في محبته ونجواه ، إنما حلى الطريق لا أساسه وروحه " (١٣) .

سياسة النفوس على وفق مراد الله

جميع الأمراض النفسية التى عرفها علم النفس ولم يعرفها بعد راجعة إلى عدم امتلاك زمام النفس ، أو نابعة من عدم معرفة كيفية سياسة النفس ، وكما يقول الإمام الغزالى ((السعادة كلها في أن يملك المرء نفسه والشقاء في أن تملكه نفسه)) ، وسياسة النفس أن تكون فى وفاق مع نفسك ... هناك وئام وتصالح وتناغم وانسجام بين الإنسان ونفسه .. لا صراع لا تنافر لا تدابرلا تخاصم . فالكثيرون يسيرون فى طريق ونفوسهم فى طريق مخالف ، فتجد حياتهم مليئة بالندم والتبكيت واللوم والقلق والخوف والجزع منقسمين على أنفسهم ، مذبذبين ، إنهم فى عذاب لا يدرون كيفية الخروج منه .

وسياسة النفس عسيرة ويسيرة فى آن واحد .

عسيرة : لأنك تبغى تذليل طبع غريزى مركوز فى جبلة الإنسان ، هناك قوة عنيدة داخل النفس ، رافضة للانصياع ، متأبية على الخضوع ، وهناك فى الخارج ما يؤجج نيران تلك النفس ، ويزيد من اشتعال نارها ، هناك وعود لإرضاء رغبات وإشباع شهوات تلك النفس ... فأنت له استطعت السيطرة – لو إلى حين – على القوة الداخلية ، فلست بقادر على إسكات وإخراس تلك

الوعود البراقة والمغرية والتى يسيل لعاب النفس لها ... فأنت إن نجحت فى السيطرة على الداخل لأن نفسك بين جنبيك وانصاعت وأطاعت ... فأمامك مهمة أخرى ، وهو القضاء على ما يحرك ما نجحت فى تسكينه فالأمر مع النفس ومع ما حولها مثل الأمر مع هذا الشاب المراهق الذى تمتلئ عروقه بالنشاط والفتوة ، والرغبات الآدمية تتأجج فى صدره والظمأ يحرق كيانه ، يريد أن يرتوى بما هو طبيعى لنداء اللحم والدم فإنت إن حاولت أن تقنعه بأن يسيطر على تلك الرغبات والشهوات وأن لا يترك العنان لشهواته وغرائزه ... فأنت مطالب فى نفس الوقت ألا تعرضه إلى ما يضعفه ، إلى ما من شأنه أن يصهر أسوار مقاومته بما يراه كل آن ... بما يسمعه ، بما يشاهده ، بما يلاحقه ويطارده ، بما يقتحم عليه حتى منامه ، وإن لم تفعل ذلك فأنت تكلف هذا الشاب بما لا يطيق ، وليس أمامه إلا أمران .

- إما أن يضعف وتتصدع مقاومته وينحرف ويشبع ظمأه بطرق غير مشروعة .
- وإما أن يحطم هذا العالم الذى يرى فيه تحديا لصموده ونقاءه وطهارته .

كذلك النفس لا تستطيع أن تطالبها بأن تصوم عن الحرام ، وقد سدت أمامها – عمدا وقصدا – كل سبل الحلال ، والحرام يحيط بها من كل جانب بل يطاردها مستعملا أعتى وأشد أساليب الإغراء والإغواء .

ويسيرة : إذا وضعت كل معاناة النفس ومشقتها وعذابها فى كفة ووضعت مراد ورضا الله فى الكفة الأخرى . ما يهون على الإنسان كل الآلام والعذاب الذى ينتج من أنه خسر أشياء أو ضحى بأشياء ، ما يهون عليه كل هذا أن

هناك أجراً ، هناك ثواب ، هناك عوض ، هناك مقابل ... وممن هذا الأجر والثواب والعوض ؟ من الله .

إذا وضعت الله فى حسابك - ولابد أن تضعه ليس فى حسابك بل فى سويداء قلبك - فليس من حساب إلا حسابه ، وليس من وعد صادق إلا وعده وليس من جزاء أوفى إلا جزاءه .

أسباب الشقاء الإنسانى ، أو ما يحول تلك الحياة إلى معاناة واصبة أن الأجر الإلهى يغيب أو يغيب عن عمد عن الأذهان ، فحينما يعرف الإنسان أن الله مطلع عليه ، وأن كل معاناة وكل ألم وكل جوع وكل حرمان وكل مرض .... هو مأجور عليه ، لن يكون فى الحياة عذاب أو تعب أو منغصات ، فالإنسان سوف يتحملها إن لم يكن له حيلة أو وسيلة فى دفعها أو التخلص منها - بنفس راضية مطمئنة لأنه يعلم يقينا أن ما يحدث هو من أمر الله وقضائه ، وأنه مثاب ثوابا عظيما إن هو صبر وشكر وفوض الأمر لله .

فأنت لا تسوس نفسك وفق أحدث النظريات التى توصل إليها علم النفس أو وفق أحدث النظريات أو المذاهب الفلسفية ... أنت لا تسوس نفسك وفق ما يهوى العالم حولك ، أو وفق ما تهوى ... أنت هنا تسوس نفسك وفق إرادة ومشيئة الخالق الأعظم .. وفق مراد أرحم الراحمين ، الذى أمر رسله أن يدعوا - أول ما يدعون - إلى الرحمة والحب والتسامح .

الاستغراق فى حب الله

والاهتمام بمراد الله واستحضاره فى كل وقت يرتقى بالصوفى إلى درجة الحب ، والحب يرتقى به إلى الفناء فى المحبة الإلهية ، أى لا يبقى فى الوجود كله سوى الله ، وهذا نوع عزيز من الكمال يبلغه الصوفى بعد مراحل كثيرة .

" يقول ابن تيمية فى كتابه العبودية متحدثا عن مقام الفناء فى المحبة الإلهية : ((الفناء عن إرادة ما سوى الله ولا يعبد إلا إياه ولا يتوكل إلا عليه ولا يطلب من غيره وهو المعنى الذى يجب أن يقصد بقول الشيخ أبى يزيد حيث قال :

أريد أن لا أريد : أى المراد المحبوب المرضى ، وهو المراد بالإرادة الدينية وكمال العبد أن لا يريد ولا يحب ولا يرضى إلا ما أراده الله ورضيه وأحبه وهذا معنى قولهم فى قوله تعالى – إلا من أتى الله بقلب سليم – قالوا هو السليم مما سوى الله ، أو مما سوى عبادة الله ، أو مما سوى إرادة الله أو مما سوى محبة الله ، فالمعنى واحد . وهذا المعنى إن سمى فناء أو لم يسم هو أول الإسلام وآخره وباطن الدين وظاهره " (١٤) .

هذا الإحساس أو هذه الحالة أو هذا المقام يجب ألا يستأثر به الصوفية وحدهم ، يجب أن يعايشه ويستحضره كل إنسان ، إن كل حركاته وسكناته كل تصرفاته ليس لها إلا دافع واحد هو حبه لله ... ولك أن تفسر هذا الحب بالطاعة المطلقة ، بالعبادة الخالصة ، بالخضوع التام .

ويجسد هذا المعنى الصوفى أبو الحسن الشاذلى قائلا :

فمن أحب الله هان عليه كل شئ .
ومن عرف الله صغر لديه كل شئ .
ومن وحد الله لم يشرك به شيئا .
ومن آمن بالله آمن من كل شئ .
ومن أسلم لله قل ما يعصيه .
وإن عصاه اعتذر إليه .
وإن اعتذر إليه قبل عذره

ويقول أيضا فى هذا المقام

" أوصانى أستاذى – رحمه الله تعالى – فقال :

حدد بصر الإيمان تجد الله فى كل شئ
وعند كل شئ **ومع كل شئوفوق كل شئ**
وقريبا من كل شئومحيطا بكل شئ**
بقرب هو وصفهوبإحاطة هى نعته**
وعد عن الظرفية والحدودوعن الأماكن والجهات**
وعن الصحبة والقرب والمسافات
وعن الدور بالمخلوقات
وامحق الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن
كان الله ولا شئ معه

تزكية النفس

النفس الإنسانية – كما قلت – هى المطية أو الوسيلة التى سيصل الصوفى من خلالها إلى الله أو يحاول من خلالها الاقتراب من الله ، وهو يعلم بداية أن الطريق صعب ووعر وشاق وطويل ، وأن الهدف بعيد بعيد ، لذلك قد يضل ولا يصل أو قد يصل ولكن ليس إلى الهدف الذى حدده من البداية ... ولكى يتجنب كل تلك

المخاطر والأهوال ، يجب ان يعد المطية إعدادا جيدا يتناسب وشرف الهدف ونبل المقصد .

" والمعرفة الصوفية أسرار أكنها الله وأختص بها أصفياءه وجعل الطريق إليها محفوفا بالمخاطر والمعوقات ولن يتمكن من سلوكه إلا من وطد عزمه على اجتيازه وجاهد جهادا شاقا حتى إذا ما انتصر في جهاده ارتفع الحجاب الكثيف الذى غطى على بصره وبصيرته فأدرك من الحقائق في نفسه وفيما يحيط به ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر " (١٥) .

والبرنامج الذى وضعه الصوفية – أو بعضهم – لتزكية النفس لتكون معدة ومهيأة للوصول إلى الله يتكون من مراحل :

- **المجاهدة** : وهى عبارة عن وقفة عاقلة مع النفس لكشف ومعرفة آفات أو عيوب أو نقائص أو أمراض النفس ، ومعرفة أسبابها ومصدرها ، ثم معالجتها للبرء منها ، بدون هذا لا يستطيع الإنسان أن يلج إلى بداية الطريق الموصل إلى الله لأن تلك الآفات تمثل عائقا ومانعا يعوق ويمنع الإنسان أن يتقدم ويسير فى الطريق إلى الله .

" ولذا يعتبر صوفينا – ابن عطاء الله السكندرى – مجاهدة النفس بداية الطريق إلى الله ، ويظهرنا على أنه بدونها لا يتحقق سير السائرين فيه ، وفي هذا يقول في حكمة من حكمه ((لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين إذ لا مسافة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك))
وهذا يعنى أنه لولا محاربة النفوس ما تحقق سير السائرين إذ لا مسافة حسية أو قطعة حقيقية بين السالكين وربهم ، إنما السير في الطريق ليس إلا قطع عقبات النفس)) (١٦) .

الصوفي هنا لا يبحث في ((ذات الله)) أو عن الله ، فالله موجود ومتصفا بكل صفات الكمال التى يدركها الإنسان ومالم يدركها ... ولكن العقبة هى النفس وما هو مركوز فى طبعها من آفات تمنع الوصول إلى الله .

آفات النفس

أما الموانع التى تمنع النفس من السير فى الطريق إلى الله فهى كثيرة ، وكلها تسد منافذ النفس ان تصل إليها أنوار الهدى .

" ويحذر ابن عطاء الله السالك من آفات نفسه القاطعة له عن الوصول إلى الله فيقول:

((آفات المسير إلى الله تعالى القاطعة على بعض السائرين طريقه عشرة : رؤية العمل وامتداد الأمل وتحدث النفس ببلوغ الولاية والركون لاقبال الخلق والمقنع بمرانى الأحلام ، والتأنس بالورد والتلذذ بالوارد والسكون للوعد والاكتفاء بالزعم والغرة بالله .

ويبين شيخنا للسالك أن عدم الرضا عن الله وعدم السكون لقضانه وقدره مع الرضا عن النفس ، هو أقبح ما يكون من السالك في سلوكه فيقول:

((علامات السقوط من عين الله ثلاث : الرضا عن النفس ، وعدم الرضا عن الله ومزاحمة الحق بالقضاء والقدر)) " (١٧) .

رياضة النفس

أساس لا بديل عنه عند الصوفى ، وهو التشبه بصفات الله ... وإن كان هذا فى حد ذاته مطمحا من المستحيل الوصل إليه ، إلا أن مجرد استحضار صفات الله فى ذهن الإنسان والمداومة على تذكرها كفيل ان يحدث تغييرا كبيرا فى نفس الإنسان ؛ لأنك وأنت على علاقة بتلك الصفات القدسية ، هذا يجعلك تعيش فى عالم من الكمال وإن لم تساعدك همتك أن تتشبه بتلك الصفات على قدر طاقة الإنسان ، فعلى الأقل هذا سيمنعك من ان تفعل ما يتناقض وتلك الصفات .

" والأساس الذى تقوم عليه رياضة النفس عند ابن عطاء الله السكندرى هو النظر إلى أوصاف الله ومحاولة التشبه بها على قدر الطاقة الإنسانية ، ولذا يبين أبن عطاء الله للسالك أنه لن يخرجه عن وصفه الذميم إلا شهوده لوصف الله إليه الإشارة بقوله ((لن يخرجك عن الوصف إلا شهود الوصف)) والتخلق بأخلاق الله على قدر الطاقة الإنسانية هو سبيل السالك إلى السعادة الحقة فيقول ابن عطاء الله ((سعادة العبد وخصوصيته في التخلق بأخلاق الله تعالى والتحلى بمعانى أسمائه وصفاته بقدر ما يتصور في حقه أن يتصف بمحاسنها إلى أن يكون العبد قريبا من الرب جل وعلا ، والمراد قرب الدرجات والمقامات لا قرب الجهات والمسافات)) "(١٨) .

أما رياضة النفس عمليا فهى عبارة عن تعويد النفس على نوعين من العمل :

- التخلص من الآفات والعيوب .
- التحلى بالميزات والأخلاق الحميدة .

ويعبرون عنها بالتحلية والتخلية ... أى إبدال أوصاف مذمومة بأوصاف حميدة ، وكل وصف ذميم تتخلص منه ، تضع مكانه ما يقابله من وصف محمود .

ولنأخذ وصفا مذموما ((الرياء)) كيف نتخلص ونضع بدلا منه وصفا حميدا ((الإخلاص)) .

" **الرياء شرك والشرك محبط للعمل ، وأعظم الرياء من راءى بالإيمان .**

قال تعالى :-

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ (البقرة: ٢٠٤)

اعلم أن كل شئ يتصور أن يشوبه شئ فإذا صفى عن شوبه سمى خاصا ويسمى الفعل المصفى إخلاصا ، والعادة جرت بتخصيص الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله عن جميع الشوابت . استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك في عبوديتك " (١٩) .

وقس على ذلك بقية آفات النفس . ورياضة النفس لها مراحل لابد أن تمر بها من الناحية السيكولوجية :

- الفكرة المجردة .
- الشعور بمضمونها .
- السلوك العملى لتحقيقها .

وهناك وسائل أخرى لمساعدة النفس مثل العزلة أى الانقطاع المعنوى لا الحقيقى عن الخلق ، والخلوة وهى محادثة السر مع الحق بحيث لا يرى غيره ومن حيث هى وسيلة إلى هذه الغاية بأنها التبتل إلى الله والانقطاع عن غيره .

وأيضا من الوسائل المعينة الذكر ... وله ثلاث وظائف :

-**خلقية** : بذكر الله دائما والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا من شأنه أن يزيل الحجب عن القلب ويثمر المحبة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم .

-**العرفانية** : على ثلاث مراتب .. ذكر اللسان وذكر القلب , ذكر السر .



-الميتافيزيقيـــة : ترديد اسم الله ومحاولة حذف كل ما يتعلق بالفكر والنفس مما سوى الله حتى يمتلأ كيان الإنسان بوجود الله .

بعد هذا تدخل النفس فى مجال من الصفاء والشفافية فقد تخلصت من عتامتها وكثافتها وأزيلت عنها الحجب ، وأصبحت مهيأة أن تتلقى الفيوض الربانية .

" والصفاء ينتج عن انجلاء مرآة القلب بذهاب ما تراكم عليها من ظلمة وكثافة وبانجلائها تصبح قابلة لمختلف الإدراكات الذوقية والكشفية .
والقرآن الكريم يزكى ذلك بقوله :
((واتقوا الله ويعلمكم الله)) ، والحديث الشريف يقول :
((من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم)) ، وليس غريبا أن يكون للسلوك القويم أثر في تهذيب الوجدان وفي تصفية النفس وتنقيتها وإجلاء مرآتها فتدرك من المعانى أعمقها ، وتلهم من الأسرار أدقها ... وقد روى النبى – صلى الله عليه وسلم – قوله ((إذا رأيتم الرجل قد أوتى زهدا في الدنيا ومنطقا فاقتربوا منه فإنما يلقن الحكمة)) وقيل إذا زهد العبد في الدنيا وكل الله تعالى به ملكا يغرس الحكمة في قلبه)) (٢٠) .

نعم .. إن أهم عائق يعوق الإنسان عن الوصول إلى الله ليس صعوبة ووعورة الطريق فحسب ، ولا لأن الله منع عن الإنسان ذلك ، فالأمر بيد الإنسان إن شاء هذب نفسه وصفاها وأبعد عنها الحجب التى تحجب عنه الخيرات الكثيرة ، وكما **يقول الإمام الغزالى :-**

" أنوار العلوم لم تحجب عن القلوب لبخل ومنع من جهة المنعم تعالى عن ذلك ، بل لخبث وكدرة وشغل من جهة القلوب ، فإنما كالأوان ما دامت مملوءة بالماء لا يدخلها الهواء والقلب المشغول بغير الله لا تدخله المعرفة بجلاله "

الهدف من المجاهدة والرياضة

ليس الهدف هو قهر النفس ، فليس مجرد قهر النفس يحقق الوصول إلى الله ، وإنما الهدف هو أن تكون النفس مستعدة ومجهزة ومهيأة لتلقى فيوض ونعم الله ، أو لتحقيق إرادة الله ومشيئته .. فأنت لا تصل إلى الله بإرادتك ورغبتك فلا إرادة إزاء إرادة الله ، ولا مشيئة إزاء مشيئة الله ، وإنما هو – إذا شاء – سينعم عليك بالتجلى .

" فهو – ابن عطاء الله – يقرر أن مجاهدة السالك لنفسه برياضتها من الناحية الأخلاقية أو بالخلوة والعزلة والذكر ، ليست علة حقيقية في قهر النفس ، ذلك لأنها مظهر إرادته ، ، وإرادته إرادة وهمية لا تتصف بالوجود الحقيقى ، وإنما العلة في رأية هى إرادة الله المدبرة لكل شئ في الوجود ، فهى وحدها العلة في انتصار السالك في المعركة بين قلبه ونفسه ، أو بين طبيعته النورانية وطبيعته الظلمانية . وفي ذلك يقول : ((النور جند القلب ، كما أن الظلمة جند النفس ، فإذا أراد الله أن ينصر عبده أمده بجنود الأنوار وقطع عنه مدد الظلم والأغيار " (٢١) .

المقامات

وبعد أن يمر الصوفى بالمراحل السابقة يكون قد ترقى وحقق إنجازا عظيما على الصعيد النفسى والوجدانى ، وهذا بدوره يدخله فى مجال المقامات والرياضة حتى يصعد ويترقى من مقام إلى مقام .

" هى مراحل الطريق إلى الله ، وهو ما يرسخ للسالك من أحوال السلوك نتيجة مجاهداتها المختلفة فيقال مثلا أن السالك متحقق بمقام التوبة إذا كان

قد جاهد نفسه حال التوبة عن المعاصى والشهوات بقهر دواعيها ثم صار مالكا لزمامها من هذه الناحية .

ويتدرج السالك فى مقامات السلوك مجاهدا نفسه حتى يستوفى جميع المقامات وهذه المقامات - بتعبير علم النفس الحديث - حالات وجدانية خاصة هى مظاهر ما يتحقق به السالك من استقرار نفسى حال سلوكه ، وقد تواضع الصوفية على أن السالك لا يمكن أن يتحقق فى مقام من المقامات إلا إذا كان مشتغلا بالرياضة له .

ومقامات السلوك تسعة : التوبة والزهد والصبر والشكر والخوف والرجاء والرضا والتوكل والمحبة " (٢٢) .

التصوف والعقل

أى جهد إنسانى يخلو من العقل أو من إسهاماته ، هو نوع من العبث بل إن ما ينتج عن هذا لا يمت للإنسان بأى نوع من الصلة ، وأى تعريف للإنسان يستبعد تلك الخاصية فهو تعريف أبتر ؛ لأنه يشوه ويطمس حقيقة هامة من حقائق الوجود الإنسانى ، فقد وهب الله الإنسان تلك الميزة أو الخاصية ، وأمتن بها عليه وأشاد بها وعدها من أهم النعم التى أنعم بها عليه .

وأى خطاب موجه للإنسان يستبعد عنصر العقل ، فليس خطابا موجها إلى الإنسان ، ولكنه موجه لأى مخلوق كأي آخر غير أن يكون الإنسان .

والذين يتخيلون أو يتوهمون أن التصوف يجافى العقل أو يخاصمه يوجهون طعنة قاتلة للتصوف كفيلة أن تقضى عليه للأبد ، ولا تقوم له قائمة بعد ذلك ، فالتصوف هو جهد إنسانى خالص له غاية نبيلة وهدف شريف والإنسان لا يتحرك قيد أنملة بدون عقل ، إذن التصوف لا غنى له عن العقل .

وإنها فرية لصقت عن عمد بالتصوف ، وهذا ما جعل الكثيرين ينفضوا أيديهم من التصوف ، وينفضوا من حوله ، لا سيما فى العصر الحديث ، ويخفت صوته ويكاد أن ينزوى فى الزوايا ، بل تلك أيضا لم يعد لها وجود .

فالعقل ركن من الأركان العتيدة للتصوف ، والصوفى الحق رجل عقلانى فى المقام الأول ، بل وصل من خلال فكره وتأمله إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه العقل ، وهو يرفض رفضا قاطعا ما سوى ذلك .

ومع ذلك فهناك فرق - ليس كبيرا - بين الفيلسوف والصوفى وعالم النفس ، لأن كل هؤلاء كلفون بالوصول إلى الحقيقة ، يريدون أن يأخذوا بناصية

الإنسان إلى الحقيقة ، يريدون الهدى والرشاد لبنى الإنسان ، هذا ما يجمعهم ويفرقهم – فى الشكل وليس فى المضمون – الأسلوب المتبع فى البحث .

" فالتعمق فى طلب الأسرار صفة مشتركة بين الصوفية وفلاسفة التفكير الذين يغوصون على الحقائق البعيدة وعلماء النفس الذين ينقبون عن ودائع الوعى الناطق وغرائب السريرة الإنسانية "(٢٣) .

وللعقل درجات أو مستويات أو ارتقاءات ، فهناك عقل علمى ، وهناك عقل فلسفى ، وهناك عقل صوفى ، لأنك لا تستطيع أن تبتر أو تستبعد شيئا خلقه الله فى الإنسان ، وكما قلنا نحن فى حاجة أن نضيف عناصر إلى الإنسان أو نستكشف أشياء موجودة داخله لم نكن على وعى بها ، لا أن نستبعد أشياء موجودة ونلمس أثرها فى كل شئ حولنا ، ولن نستفيد ولن يستفيد أحد إن أبعدنا العقل من أى جانب من الجوانب الإنسانية .

والصوفى له منهج فى المعرفة أو أسلوب أو طريقة أو اتجاه يختلف عن العالم وعن الفيلسوف .

" والصوفية من حيث النوع نوعان عظيمان ... نوع العقل والمعرفة ونوع القلب والرياضة ، والصوفية من حيث موقعها من الدنيا كذلك نوعان ... نوع يتخطاها وينبذها ونوع يمشى فيها ويصل منها إلى الله ، ويتأدى من الخلق إلى الخالق جل وعلا " (٢٤) .

وإن كنا نختلف مع أستاذنا العقاد – رحمه الله – فى أنه اعتبرها نوعين والأفضل أن نعتبرها مستويين أو درجتين :

- **المستوى الأول** : عقلى ومعرفى
- **المستوى الثانى** : قلبى ورياضى .

وهناك من يكتفى بالمستوى الأول ، ولا تمكنه همته من الوصول إلى المستوى الثانى ، وهناك من يتجاوز المستوى الأول ليصل إلى المستوى الثانى ، ولا غنى لأحدهما عن الآخر ، ولن يتسنى لك الارتقاء إلى المستوى الثانى إلا بعد المرور بالمستوى الأول ، ونلاحظ أن المستوى الثانى غطى أو حجب المستوى الأول ، حتى أن البعض لا يرى فى الصوفية إلا القلب والرياضة ، ويظن أنها خالية من العقل والمعرفة .

المنهج المعرفى عند الصوفية

والبداية التى بدأ منها الصوفى طريقه ، أو نقطة انطلاقه ، هى التى أملت عليه منهجه فى المعرفة ، فقد بدأ بالفعل والسلوك ، وهذان خاصان بالنفس فأنتهى بالذوق والشهود والإلهام ، وهؤلاء متعلقون بالنفس ، وبذلك كان الصوفى متسقا مع نفسه ، ومتفقا ومتناغما مع منهجه منذ البداية ، فليس من المنطقى أن يبدأ بفعل وسلوك وينتهى بتأمل فكرى مجرد .

" التصوف ليس ثمرة لثقافة كسبية ، إن الوسيلة إليه ليست هى الثقافة ولكن الوسيلة إليه إنما هى العمل ، إن الطريق إليه إنما هو السلزك والمعرفة الناشئة عن العمل والسلوك هى إلهام وهى كشف وهى ملأ أعلى انعكس على البصيرة المجلوة ، فتذوقه الشخص حالا وأحس به ذوقا وأدركه إلهاما وكشفا " (٢٥).

وهذا يدل على أن الصوفى لا يجافى الفلسفة ، ولا يعادى التفكير العلمى المحض ، ولكن لديه بدائل عن ذلك ، اختار منهجا آخر ، والاختيار يؤكد مبدأ الحرية وينفى مبدأ القسر والحتم ، فكل البدائل معروضه أمامه ، وهو لم يختر الأفضل ، ولكنه اختار ما يتناسب ورؤيته الداخلية ، فليس ما اختاره بأفضل مما تركه ، ولا ما تركه بأقل مما اختاره ، فكل ميسر لما خلق له ...

الصوفى لا يناسبه منهج الاستدلال العقلى ، لأنه يراه مبددا جهده ووقته وبعد ذلك لا يصل به إلى النتيجة المرجوة ، لا تعينه الدلائل والبراهين ، وهو ليس فى حاجة إليها ، القضية بالنسبة له ليست فى حاجة إلى إثبات أو إقرار .. لقد وصح الهدف واستبان الطريق لديه ، لا غموض ولا إبهام ، لا شك لا تردد ، هو يريد أن يتعايش حالات الإيمان ... يجرب ،أو كما يقولون يتذوق حلاوة أقصى درجة يستطيعها قربا من الله ، ولا يكتفى بذلك ، بل يريد أن يتجاوز ذلك إلى ما فوقه .

" والعلوم فى رأيه – محى الدين بن عربى – على ثلاث مراتب :

- ✓ علم العقل وهو كل علم لك بالضرورة أو عقيب نظر .
- ✓ وعلم الأحوال ولا سبيل إليه إلا بالذوق كالعلم بحلاوة العسل ومرارة الصبر .
- ✓ علم الأسرار وهو العلم الذى فوق طور العقل وهو علم نفث روح القدس فى الروع ويختص به النبى والولى " (٢٦) .

هنا يعترف الصوفي أن هناك عقلا ، وأن هناك علمًا يعتمد على هذا العقل ولا ينكره ، ولكن هناك أيضا علمًا يسميه علم الأحوال ، سبيله أو وسيلته الذوق علم نابع من المباشرة الحية للمعلوم . ونوع ثالث يسميه علم الأسرار فوق طور العقل ومعنى أنه فوق العقل أنه تجاوزه ولم يتخطاه ، أو لم يستغن عنه ، وفى النهاية كلها علوم يتحصل عليها الإنسان بوسائله الخاصة ، ومنها ما يعان عليه . وهو يتخذ هذا الموقف من العقل ، لا لأنه لا يقيم له وزنا ولا لأنه لا يرى جدوى منه ، فالعقل له كل التوقير والاحترام عند الصوفى .

" فالعقل ضرورى في النواحى التى أوصى الله سبحانه وتعالى باستعماله فيها وذلك مثل التفكر في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار للاستدلال من ذلك على قدرة الله تعالى وعظمته واحاطته وهذه درجة عظيمة من درجات العبادة ، أما استعمال العقل في الوصول إلى ذات الله فمنهى عنه " (٢٧) .

فالصوفى يقول بكل صراحة وتواضع إن منطقة العقل – الاستدلالات والبراهين والأدلة – قد تعداها وتجاوزها ، أو أن ما تقود إليه ليس هدفه أو مبتغاه .... إن هدفه أبعد من ذلك .

" فليس من رسالة التصوف البحث في فرائض الأحكام الشرعية ولا البحث في الصفات الربانية ولا الجدال والحوار في المعارف الفلسفية والمذاهب العقلية " (٢٨) .

فما تؤدى إليه المعارف الفلسفية والمذاهب العقلية بعد جهد ووقت هى بدهيات عنده ومسلمات ، ليست فى حاجة إلى إثباتات أو إقرارات ، هو ليس فى حاجة إلى الكائنات والكون وما فيه من عبر وعظات ليقوده إلى الله ، هو يرى فى الكون وفى العقل وفى الفكر حواجز أو موانع تمنعه عن الذوق أو الكشف أو الإلهام ، يريد أن يستغرق بكل كيانه ، بكل خلاياه ، يريد أن يدخل فى حالة من حالات الوجد الإدراكى ، أو الإدراك الوجدى بقدر ما يمكنه جهده وقدرته لذات الله تعالى .

" منهج الاستدلال العقلى هو المنهج الذى ينتقل صاحبه من معنى إلى معنى كأن يستدل من وجود آثار الله وهى الكائنات على وجود مكونها وهو الله وهو المنهج الذى يوجب تصديقا ويصطنعه المتكلمون والفلاسفة أما منهج الشهود والذوق فلا انتقال فيه بالذهن من معنى إلى معنى إذ هو منهج يدرك به الصوفى الحقيقة العليا ، الله ، إدراكا ذوقيا مباشرا لا يدخل فيه الاستدلال العقلى (العقل) وهو المنهج المسمى أيضا بالكشف الصوفى وهو منهج خاص بالصوفية وحدهم وهم يؤثرونه على غيره من مناهج المعرفة " (٢٩) .

الصوفى يريد الوصول إلى الله بطريق مباشر ، وبدون واسطات ، وهو يرى أن لا شئ يرقى إلى تلك المكانة ليساعده فى الوصول ، فكل ما فى الكون مفتقر فى وجوده إلى الله ، وكل ما فى الكون يستمد كينونته من الله ، بل أن الوجود الحق هو الله ، وما عدا ذلك فهو وهم وخيال وظلال ، فكيف يقود الوهم إلى الحق ؟

وإذا استعان الصوفى بأحد كى يوصله إلى الله ، فليس هناك من معين إلى ذلك غير اللّه عز وجل .

" منهج الاستدلال العقلى في المعرفة بالله وإن كان ممكنا في رأى شيخنا - ابن عطاء الله السكندرى - إلا أن المعرفة الحاصلة به من قبيل عدم الوصول إلى الله ، لأن الله حاضر دائما أبدا ، فمتى يغيب حتى يستدل عليه ؟ ثم كيف يستدل عليه بما هو مفتقر في وجوده إليه ؟ واستمع إلى ابن عطاء الله قائلا :

((شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه ، المستدل به عرف الحق لأهله وأثبت الأمر من وجود أصله ، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه ، وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه ؟ ومتى بعد حتى تكون الآثار هى الى توصل إليه .

وقائلا في عبارة أخرى من عبارات مناجاته فيها رقة وعذوبة :

((إلهى كيف يُستدَل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك ؟

أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك ؟

متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك)) " (٣٠) .

ودلالة المخلوقات على ذات الله محدودة ومتناهية ، ورب سائل يسأل ..

ولم لا نعتمد على المخلوقات والكائنات لتوصلنا إلى الله ، أليس هو مبدعها وخالقها ؟ وعلى هذا هى تدل عليه عز وجل ، وتجسد لنا وتوضح وتكشف عن عظيم قدرته ، **فالله عز وجل يقول في حديث قدسى :-**

((كنت كنزا مخفيا ، فأردت أن أعرف ، فخلقت خلقا فعرفتهم بى ، فعرفونى))

فكل ما فى الكون شاهد ودال على الله عز وجل .

نعم كل هذا حق ، ولكن طاقة وقدرة الكائنات فى أن تدل على الله أو أن توصل إلى الله محددة ومتناهية ، ودلالتها مرتبطة بتلك الحدود وهذا التناهى فكل ما تكشف عنه تلك المخلوقات والكائنات هو عجزها وقصورها فى الدلالة الحقة عن الله ، والوصول الحق إلى الله – كما قلنا – لا يكون إلا بواسطة الله .

" ويعجب ابن عطاء الله أشد العجب أن تكون الكائنات موصلة إلى الله فهل للكائنات وجود مع وجود الله حتى توصل إليه ؟! إن الكائنات إن كانت موصلة إلى المعرفة بالله عن طريق الاستدلال بما على مكونها فما ذلك إلا لأن الله هو الذى ولاها رتبة التوصيل فوصلت إليه ، لا إن التوصيل لها من حيث ذاتها وبذلك لا يكون الوصول إلى الله إلا بفضل الله " (٣١) .

والوصول إلى الله كلمة غامضة ومعنى مبهم ، ومقصد غير محدد ... إلا أن ابن عطاء الله **يوضح هذا المقصد بقوله** :-

((وصولك إلى الله وصولك على العلم به ، إلا فَجَلَّ ربنا أن يتصل به شئ أو يتصل هو بشئ)) .

ولا يقصد بالمعرفة هنا المعرفة النظرية ، ولكن المعرفة المقصودة عبارة عن (**حالة**) يشعر من خلالها الصوفى أن هناك فيضا من الله عليه ، هذا الفيض يستغرقه ويجعله فى حالة نشوى ، حالة سعادة لم يشعر بها من قبل ، يصل فيها الصوفى إلى عدم الإحساس بذاته وكيانه ... فكل شئ تحول إلى حالة من حالات الفيض ، سماها بعضهم بحالة الفناء ، فناء الصوفى فى تلك الحالة ، ليس هناك إحساس ولا ذات محسة ، ذابت الذات ولم يبق إلا هذا الإحساس والشعور الصرف .

"والمعرفة بالله قد تكون إثبات وجوده وتقديسه عما لا يليق به ، وصفه على ما هو عليه وبما وصف به نفسه ، وهذه معرفة عامة المكلفين ، وهى معروضة عليهم وتسمى بالمعرفة العامة ، وقد تكون حالا يحدث عن شهود ذوقى ويكون

العارف هو من أشهده الله ذاته وصفاته وأسماءه وأفعاله وتسمى بالمعرفة الخاصة وهى معرفة الصوفية التى لا تستند إلى العقل وإنما إلى الذوق " (٣٢) .

إذن فالمعرفة عند الصوفى حالة ، أو حالات أو تجارب وجدانية تترقى بصفة مستمرة ، وهذا الترقى مرتبط بترقيه فى العبادة والإخلاص فيها ، يتذوق من خلالها الصوفى مشاعر وأحاسيس ترتفع به إلى سماوات الطهر والنقاء الربانى وتقترب به من معارج القرب والنور الإلهى ، كل هذا – كما قلنا – مرتبط بترقيه فى العبادة ومدى إخلاصه فيها .

التجربة الصوفية منغلقة على ذاتها

أو أن التجربة المعرفية لا يكتب لها الاكتمال إلا من خلال هذا الانغلاق المتعمد الذى يعطى فرصة سخية للصوفى أن يلملم شتات نفسه ، ويبدأ بإقامة حوار تأملى هادئ متدرج نحو الارتقاء ... ومن ناحية أخرى يغلق ويوصد المنافذ بينه وبين العالم الذى يرى فيه أكبر تحد له ، ويمثل له دوامة جماعية تريد أن تبتلعه وتطمس فيه إرادته ، وتغتال كل طموحاته فى الوصول إلى درجة التناغم مع نفسه ومع غايته ، ومن ثم إلى درجة الاكتمال أو الوصول إلى هدفه الأسمى .

وهذا ما أحدث هوة أو مسافة بين التصوف والناس ، إنه عالم محاط بالغموض والأسرار والرموز والإشارات ، وعلى مدخل هذا العالم بوابة لا تسمح بالدخول إلا لمن يتمتع بمواصفات خاصة لا تتوافر فى الكثير ، فليس مجرد توافر الرغبة يعتبر جواز مرور إلى هذا العالم ، هناك أشياء ومواصفات أخرى يجب أن تتوافر فى الصوفى ، والمأزق الذى وجد الصوفى نفسه فيه أنه لا يستطيع أن يدعو إلى شئ ، فهو لا يستطيع أن ينفتح على الخارج أو يدعو إلى ذلك ، بسبب هذا عجز التصوف أن يؤسس كيانا معرفيا – كما حدث مع العلم والفلسفة –

يتطور وينمو مع مرور الوقت ، وأيضا عجز عن أن يدافع عن نفسه ، وإن كان هناك دفاع ، فهو ليس دفاع للانتشار والتوسع ، وإنما لمجرد تأصيل وجود والحفاظ عليه من أن يذوى ويضمر. والذى ساعد على ذلك أو فرض هذا الوضع على التصوف أمران : موضوع المعرفة واللغة المستخدمة .

أولا : موضوع المعرفة

المعرفة المتحصلة للصوفى تتسم بالغموض والإبهام ؛ لأنه لم يعتمد فى تحصيلها على الوسيلة المعروفة – العقل – ولم يعتمد فيها على الآخرين ، وإنما تلقاها من ذاته فقط ، فهى تبدأ من ذاته وتنتهى إلى ذاته ، ليس هناك سلسلة متصلة يعتبر حلقة من حلقاتها ، بحيث يكون امتدادا لمن يأتى بعده .... التواصل هنا لا وجود له ، ثم أن موضوع المعرفة كله متصل ومتعلق بذات الله عز وجل وكيفية الوصول إليه ، ولكى تحصل على تلك المعرفة أنت فى حاجة أن تمر بمراحل عديدة .

" ولن يهتدى العقل اطلاقا وحده إلى المعرفة الصوفية وحقيقتها بدون سلوك ومجاهدة وهذا لابد لها من إرشاد شيخ عارف بصير بمسالك الطريق ودروبه وشعابه " (٣٣) .

وبعد ذلك قد يصل أو لا يصل ، فهى ليست كتابا أو مجموعة كتب تطلع عليها فى سياق حياتك المعتادة فتحصل علما وتجلب لنفسك نفعا ، الأمر هنا فى حاجة إلى انقطاع وعزلة وخلوة ورياضة ومجاهدة .... إلخ .

" والمعرفة بالله – عند ابن عطاء الله – وذلك من حيث موضوعها أشد ما تكون غموضا ، وليس من اليسير على من لم يسلك طريق الصوفية أن يعرف شيئا مفصلا عن ذلك الموضوع وذلك لأن الحقائق التى تتكشف للصوفي في خلواته حقائق فردية ذوقية لا يمكن أن تتصف بصفة العمومية " (٣٤) .

" وهم يعتبرون أن المعرفة التى توصلوا إليها نوعا من الأسرار والأسرار يضن بها ولا يجوز البوح بها أو إذاعتها ((لأن كلام الأولياء والعلماء بالله منطو على أسرار مصونة ، وجواهر حكم مكنونة لا يكشفها إلا هم ولا تتبين حقائقها إلا بالتلقى عنهم)) " (٣٥) .

ثم إن كل ما يأتى به الصوفى من معرفة لا يتوافر لها عنصر الإقناع ولا تتسم بالقوة وهى لا تشكل فى مجموعها معارف يعتد بها – عند البعض – ولا تستطيع أن تقيم هيكلا أو بناءا معرفيا ، لأن المعرفة – كما ذكرنا – تقوم على البرهان أو تستمد ركائز من الواقع ، أو ما تدركه الحواس ويقره العقل .

" وسيلة الصوفي إلى إرساء قواعد نظرية ميتافيزيقية في تفسير الوجود قائمة على دعائم الذوق لا البرهان " (٣٦) .

اليقين المفتقد

هل يستطيع أحد أن يجزم أن ما يحصله الصوفى من معرفة فى الإمكان أن يتوافر لها عنصر اليقين ، واليقين الذى نقصده أن تكون هناك معرفة ثابتة مقنعة متسقة فى بنائها الداخلى ومتسقة مع أى بنيان معرفى آخر أو أن أغلب – وليس كل – الأبنية – المعرفية الأخرى تؤيدها . لا يتطرق إليها شك ، لا تختلف باختلاف الأفراد أو الأزمنة أو الأمكنة ؟

نستطيع أن نقرر ذلك من عدمه إذا عرفنا وسيلة الإدراك التى يعتمد عليها الصوفى فى تحصيل علمه ... قلنا ، أو هم قالوا إنها الذوق أو الفطرة أو ((الحدس)) وإن كان الحدس وسيلة إدراك نافذة ، إلا إنك لا تستطيع أن تجزم أنها تأتى باليقين ، لأن الوسيلة هنا وسيلة إدراك فردية ، وليس ثمة دليل ولا برهان عليها .

" اعتقاد الصوفي في ((الحدس)) وسيلة للإدراك ، وذلك في مقابل المعرفة الاستدلالية التحليلية التى هى المعرفة العلمية ، أعنى أن الصوفي يعتمد على رؤية للحق تأتى إليه بغتة ، وهى تأتى نافذة إلى أعمق الأعماق الخافية وراء الظواهر البادية للحواس ، ثم هى إذ تأتى إنما تفرض نفسها على صاحبها فرضا بحيث لا يكون له قبل بردها أو بالتشكك في صدقها ، ولك ان تقيس هذا كله إلى السير المتمهل البطئ الذى يخطو به العقل وهو على حذر ، كلما تناول موضوعا بالدراسة ، وإنما لدراسة – مع هذا التمهل الحذر معرضة للخطأ ولا تضمن لصاحبها اليقين ، ثم هى فوق هذا دراسة تقف عند الظواهر كما تتبدى للحواس ولا تنفذ خلال تلك الظواهر إلى المحجوب وراءها لتكشف عنها الحجاب " (٣٧).

ورب منكر ينكر علينا هذا ، **ويقول** : وهل وصل العلم إلى اليقين ؟

وهل وصلت الفلسفة إلى **اليقين** ؟ فى صفحاتك السابقة أثبت أن لا العلم ولا الفلسفة استطاعا أن يصلا إلى يقين معرفى فيما يخص المسألة أو القضية الإلهية !!

فإذا كان العلم والفلسفة قد عجزا عن الوصول إلى اليقين وهما يعملان فى النور ، ومحصولهم المعرفى مكشوف على رؤس الأشهاد ، ويسوقان الأدلة والبراهين والشواهد على ما يقولان ... فالذى يعمل فى الخفاء ، ويستعين بوجدانه أو حدسه ويعتمد على الذوق ، وليس ثمة دلائل ولا براهين – أظن – أنه أشد عجزا عن الوصول إلى اليقين .

اليقين الذاتى

الصوفى يعلن أن ما حصله يتوافر له عنصر اليقين حينما انكشف الحجاب وزالت الغمامة ، وأنه – وحده – قد أدرك الحقيقة ببصيرته ... نعم ، ولكن هنا يظل اليقين يقينا ذاتيا مقصورا عليه ، لا يستطيع أن يجاهر به أو أن يدعو إليه أحدا أو يقيم عليه أى برهان أو دليل .

" تبدأ النظرة الصوفية عندما يحس المتصوف بأن أمرا كان ملغزا قد انزاح عنه الحجاب ، فانكشفت له فجأة حقيقة كانت خبيئة وراء ذلك الحجاب فيراها هو رؤية مباشرة لا سبيل فيها إلى شك حتى وإن خفيت عن سائر العالمين ، إنما رؤية ((اليقين)) وهى رؤية بالبصيرة لا بالبصر إذ لو كانت رؤية بصرية لشهدها كل ذى عينين وقد ينعم الصوفي برؤيته تلك ويصمت ، قاصرا خبرته الروحية تلك على نفسه ، ولكنه أيضا قد يتأمل فيما بعد ما قد تمرس به من تلك الخبرات الروحية أو الحالات التى انكشف له فيها الحجاب عما وراءه ، ثم يحاول أن يجرى تلك الحالات في لفظ ينقل على الآخرين عن طريق الايحاء شيئا قريبا مما مر به وعندئذ نستطيع نحن سائر عباد الله الذين لم تنكشف عنهم الحجب ولم يروا إلا ما شهدته أعينهم التى في رؤوسهم أقول إننا عندئذ قد نقرأ ما كتبه المتصوف عن حالاته فتلهمنا بما تستطيع قدراتنا التخيلية أن نستلهم " (٣٨) .

ما يعرضه الصوفى ، أو ما حصله ، ليس علما - كما هو متعارف عليه وإنما حالة من الحالات الوجدانية ، حالة ذاتية معاشة ، قد نجح - وفق ما يراه فى أن يصل إليه بطرقه الخاصة ، وليس أمامك إلا أن تحاول أن تصل إلى ما وصل إليه ، لتشعر بما شعر به ، أو تعايش ما عايشه .

ومن الخطأ هنا أن نسأل : هل توافر اليقين هنا أم لم يتوافر ؟

فاليقين شهادة عقلية يمنحها العقل فيما يعرض عليه ، أو لنقل إنها شهادة يشترك فى صياغتها العقل والقلب كى لا يتطرق إليها الشك من أى ناحية من النواحى ، فلا أحد يستطيع أو يجرؤ أن يستبعد العقل ، وأيضا لا يستطيع أحد أن يستبعد القلب أو الوجدان ، وأى دعوى تستبعد أى من هذين هى دعوى عرجاء .

" فلئن كانت بصيرة الوجدان قادرة على الكشف ، فالعقل من ناحيته يكتفى بدور المراقب والمراجع ، ليميز في ((الكشوف)) المزعومة بين القمح والشعير ، ثم لينسق العناصر المقبولة في رقعة واحدة متكاملة النسج والبناء "(٣٩) .

ونحن – هنا – لا نرجح جانبا على جانب ، فلسنا من أنصار العقل على الوجدان ، ولا نرفع من شان الوجدان ونحط من قيمة العقل ، فالاثنان – العقل والوجدان – كالجناحين للطائر ، لا يستطيع الإنسان أن يرتفع ويحلق فى سماوات العلم والمعرفة والرقى والسمو بدونهما ، وإن أكتفى بواحد ، فهو حتما ساقط .

" فالعلم ، أو العقل هى الشعلة التى تضئ مراحل الطريق بداية ووسطا ونهاية ، أما الوجدان – أو قل التصوف – فهو الذى يغوص بك إلى الأعماق "(٤٠) .

ثانيا : اللـغـة

شكلت اللغة للتصوف مأزقا شديد الحرج ، مع أن التصوف استطاع أن يجتاز كثيرا من العقبات ، إلا أن اللغة شكلت عقبة تمنع من أن يعامل التصوف كما تعامل المعارف الإنسانية الأخرى ، وكان من المحال تذليل تلك العقبة ؛ لأنها نابعة من طبيعة التصوف ، أو من منهجة المعرفى ، لذلك يمكن اعتبارها سمة من سمات التعبير لدى الخطاب التصوفى ، أكثر من اعتبارها عقبة ، وهم يرون أن اللغة تقف عاجزة أن تستوعب ما لديهم من علم ... فهناك أسرار ، والسر يجب أن يظل طى الكتمان ، والألفاظ كاشفة للمعانى وشارحة لها ، إذن لم يبق إلا الرمز الذى يحافظ – إلى حد ما – على السر .

" إن علم الأسرار عزيز وصعب المنال ومن خصائصه أن العبارة لا تستطيع أن تحتويه ، بل إذا أخذته سمج واعتاص على الأفهام ، ومن هنا لجأ الصوفية إلى الرمز بخلاف العلم النظرى ، فإن العبارة كلما بسطته حسن وفهم معناه أو قرب عند السامع الفهم "(٤١) .

وإذا كانت اللغة تتكون من حروف ، والحروف تكون كلمات ، والكلمات تكون جملا ، والجمل عبارت وفقرات ، أى من الشكل البسيط إلى المركب ، فأن

التصوف لا يستطيع أن يستخدم اللغة بهذا الشكل المعتاد والمنطقى فى نفس الوقت ، فما لديه من معارف أو حالات أو كشف او ذوق ، تلك الحروف تضيق أن تستوعب ما لديهم من معانى ومشاعر ، إذن فهم فى حاجة إلى لغة غير تلك اللغة المتداولة بين الناس ، وفى نفس الوقت هم فى حاجة أن يبنوا جسورا من التفاهم – على أى مستوى من المستويات – بينهم وبين الناس ، فهم لا يعيشون فى فضاء خال ، والناس فى حاجة أن يفهموهم ، وهم فى حاجة أن يفهموا الناس ، وإلا فهم يحكمون على أنفسهم بالعزلة الأبدية ، إذن لا مناص لهم من استعمال اللغو المعتادة ولكن بنوع من التجوز ، فاللغة لديهم ذات مستويات ، أو لنقل إن اللغة لديهم كاشفة عن المعانى بالإضافة إلى أنها معبر بين ما يفهمه الناس من معانى الكلمات وبين ما يقصده الصوفية ، وهذا ما ألجأهم مرة أخرى إلى الرمز.

" إن اللغة العادية تقصر عن أداء كل ما عندهم من معان لأنها تقوم على الذوق أكثر مما تقوم على المنطق ويعبرون عن ذلك بقولهم : إن قميصا من نسج تسعة وعشرين حرفا عن معاليك تقصر ، فلم يجد الصوفية – إذن – وسيلة يمكن التعبير بها عن معانيهم وأذواقهم إلا الرمز الذى لم يجر على قاعدة واحدة سار عليها الصوفية وإنما اختلف باختلاف الموضوعات التى تناولوها " (٤٢) .

بالاضافة إلى أن هناك اتجاه فى التصوف يميل – عن عمد – أن يكون حديثه معتمدا على التلميح أكثر من التصريح ، ويكتفى بالإشارة من بعيد على ما يقصده ، والحجة فى ذلك أنه يخاطب الخاصة وليس العامة ، لأنه إن خاطب العامة فهذا نوع – فى عرفهم – من الابتذال والسطحية ، والتصوف ينأى بنفسه عن ذلك .

" ويظهر أن ابن عطاء الله السكندرى راعى أن تكون حكمه هذا للخاصة دون غيرهم ، ويبدو واضحا أنه لا يريد أن يعبر عما انطوت عليه من حقائق التصوف تعبيرا صريحا ، فهو معتقد – كغيره من الصوفيين – أن التعبير الصريح عن مثل هذه الحقائق ليس من صفة الصوفى المحقق لما فى ذلك من ابتذال لها وإلى ذلك الاشارة بقوله فى الحكم لمريده : ((من رأيته مجيبا عن كل ما سئل ومعبرا عن كل ما شهد وذاكرا كل ما علم فاستدل بذلك على وجود جهله)) " (٤٣) .

التصوف بين الأدب وعلم النفس

تحصيلاً على ما سبق اعتبر البعض كتابات الصوفية أو حكمهم أو أحاديثهم نوعا من الأدب ؛ لأنه نابع أصلا من الوجدان أو فى أحسن الفروض يعبر عن حالات نفسية ، أو حالات ترقى النفس ، رغبة فى الوصول إلى الله عز وجل وتخاطب الوجدان ، وتوافر لها عناصر أخرى مما يتوافر – عادة – للأدب من مميزات وخصائص ، لا سيما الأدب أو الفن الشعرى ، فهو أقرب إلى ذلك . والبعض الآخر اعتبر كتابات الصوفية علما قائما بذاته مع شئ من التجوز... ولم ؟ فليس هناك أى تجوز أن نقول على التصوف إنه علم ، أليس كل اهتماماته – كما رأينا – تنصب على النفس الإنسانية ؟

إذا من الممكن أن نعتبر التصوف علما بنفس المنطق الذى جعلنا نعتبر البحث فى النفس علما .

إلا أن هناك فرقا جوهريا بين عالم النفس والصوفى ، فعالم النفسء يبحث موضوعه بموضوعية تامة ، هناك مسافة ومساحة فاصلة بين ذاته الباحثة وموضوع بحثه .

ثم هو يبحث فى النفس كما هى ، كما خلقها الله ، بكل مميزاتها وعيوبها وما طرأ عليها من اعوجاج أو انحراف وسبل معالجتها ، ثم هو يستعين بما وصل إليه من قبله من بحوث وأراء ونظريات ، ويعرض ما توصل إليه من حقائق أو قضايا بإسلوب واضح ومباشر ومنطقى .

أما الصوفى فيتعامل مع النفوس الطامحة إلى الترقى والسمو ، ويضع برنامجا له مراحل وله خطوات ، كل هذا يتم داخل إطار من الحرص على رضا الله وطاعته والعمل وفق مراد الله عز وجل .

أما أسلوب عرضه لما توصل إليه فكما ذكرنا آنفا ، وهذا هو ثوب التصوف لا يستطيع أن يفعل كما تفعل بقية العلوم من وضوح ومباشرة وصراحة فى العرض لأن كل العلوم موضوعية . أما التصوف فذاتى ، وليست تلك سبة أو عيبا ، فهذه هى حقيقة التصوف ، والذى ألجأه إلى ذلك هو منهج المعرفة الذى يعتمد - كما ذكرنا - أول ما يعتمد على ((الحدس)) .

" لأن ترى شيئا بحدسك معناه أن تدمج ذاتك في ذاته ، وأن تقع منه على ما هو فريد فيه ، وإذا قلنا ذلك فكأننا قلنا إنك تقع منه على الجانب الذى يستعصى على أى تعبير ، إذ بماذا يكون التعبير إلا بالرمز اللغوى الذى لا يكون إلا أداة تعميم ، لأنك تستخدمه في جميع الحالات المتشابهة على حد سواء ، فإذا كان ما قد رأيته بالحدس ((فريدا)) لا أشباه له ، فهو مما يوصف برموز اللغة أو ما يقوم مقامها " (٤٤) .

الصوفى ليس أمامه خيار إلا أن يستخدم هذا الأسلوب أو تلك الأداة فى التعبير عن جملة معارفه التى توصل إليها ، وهو إذ استخدم التصريح أو استخدم اللغة المعتادة بين البشر ، فهو ليس صادقا لا مع نفسه ولا مع تجربته .

" كما أن ما يتحدث عنه الصوفي من المعارف يكون عادة بلغة الإشارة والرمز ، يغلب على عباراته صيغة الايهام والتعقيد ويصبح من العسير على الإنسان العادى أن يشارك الصوفي - ولو إلى حد ما - في تذوق ما يعبر عنه من معارف أو في ما تنطوى عليه هذه المعارف من موضوعات " (٤٥) .

- إشارة ورمز .
- إيهام وتعقيد .
- صعوبة مشاركة الإنسان العادى الصوفى فيما يعبر عنه .
- إذن الأمر أمر طلاسم وأحجبة وغموض وإبهام .

نعم هوذا التصوف ، دونه عقبات وموانع ، ليس مباحا لكل الناس فالتصوف - كأى شئ فى الحياة - يناسب البعض ويقتنع به ، ولا يناسب آخرين وقد يتبرمون به ، ذلك لأنه يكلف الناس مشقة وحرجا ويفرض أو لنقل يعرض عليهم نموذجا من الكمال الإنسانى ، وهم قادرون عليه ، إلا أنهم يضيقون بأمور التضيق وهم قادرون على السعة ، وكما قال المتنبى :

ولم أر عيبا فى الناس ... كنقص القادرين على التمام

" ولو أصبح الناس كلهم متصوفين معرضين عن شواغل الدنيا لفسدت الدنيا ، وبطل معنى الحياة ومعنى الزهد في الحياة ، ولكن لابد من هذه النزعة في بعض النفوس وإلا قصرنا عن الشأو الأعلى في مطالب الروح ، وفقدنا ثمرة التخصص أو ثمرة القصد الحيوى الذى ينظم لنا ثروة الروح وثروة العقول وثروة الأبدان .

والقصد الحيوى مكفول شريعة القرآن في كل مطلب من هذه المطالب الروحية ن فهى مباحة لمن يطيقها وهى لا تفرض على جميع المسلمين ، ولابد من هذه الإباحة ولابد من هذا الاعفاء فأنما يجريان بالقدر الذى يفيد ويمنع الضرر في كلتا الحالتين " (٤٦) .

التصوف والشريعة

احتمال الخطأ والضلال والانحراف وارد فى التصوف أكثر مما هو وارد فى العلم والفلسفة ، وهذا راجع إلى أمور منها :

موضوع المعرفة عند الصوفية هدفه الأسمى هو الوصول إلى ((الله)) وهو ليس من الموضوعات السهلة اليسيرة التى يصل فيها إلى درجة من اليقين أو لنقل إنه من الموضوعات التى لها نقطة أو مرحلة تستطيع أن تجزم أنك وصلت فيها إلى قرار ، فالبحث فى حد ذاته هو موضوع المعرفة ، وهو الهدف والغاية .

- **الصوفيون - كما رأينا** - يتناولون موضوع المعرفة وكأنه سر من الأسرار لا ينبغى لأحد الاطلاع عليه أو مكاشفة أحد به ، لأن ما وصل إليه الصوفى - حسب اعتقاده - خاص به وحده ، نتيجة سعيه الذاتى ، وتطهره الفردى ، فما وصل إليه خاص به وقد تضاف على الآخرين .
- ليس هناك معايير موضوعية يحتكم إليها الصوفى ليقيم ما وصل إليه ، ومقدار الصدق فيه ، فكل ما وصل إليه ذاتى وأن يخطأ الانسان نفسه أو ينقدها عسير ، وأشد عسرا مع الصوفى .
- **الأسلوب المستخدم** - كما رأينا - فى التعبير الصوفى لا يتيح لأحد من الخارج الحكم أو نقد ما يعبرون عنه من نتاج معرفى ، فكل الجهد - من القارئ - مصروف إلى فك رموز وطلاسم ومحاولة شرح وتبيان ما قالوا به وليس هناك أرض مشتركة أو مفاهيم موحدة أو لغة واحدة بين الداخل والخارج ، بل ليس هناك علاقة بين عالم الصوفية الداخلى والعالم الخارجى .

- **طبيعة التصوف** شكل مناخا مناسبا وأرضا خصبة أن تتسرب إليه – بدون أن يشعر أحد – تيارات ومذاهب واتجاهات لا تمت للإسلام بصلة ، تلك التيارات والمذاهب والاتجاهات رأت فى التصوف ((**حاضنة**)) مثالية توفر لها كل ما تحتاجه من دفء وهدوء وسكون ، حتى تستوى وتغلظ وتؤتى ثمارها الشيطانية ، نعم تلك التيارت والتى تستبطن العداء والحقد للإسلام والمسلمين ، تسربت خفية إلى كل شئ فى الحياة الفكرية والثقافية فى التفسير والحديث والتاريخ والأدب والشعر ، ولكن كان التصوف – كما قلنا – هو الحاضنة المثالية ، لأنها واجدة فيه مالم تجده فى غيره . ومن هنا حدث سوء الفهم بين الناس والصوفية ، ومن هنا جاء سوء الظن ، ومن هنا جرى ما جرى للتصوف والصوفية – فى بعض الفترات – من اضطهاد وتنكيل وعمليلت تطهير ، لذلك كان لابد أن يكون هناك معيار صادق وحق يحتكم إليه الجميع – وأولهم الصوفية – فى تمييز الطيب من الخبيث ، وكان هذا المعيار أو الشاهد الذى يقيسون عليه هو الشريعة ، فما اتفق مع ما تقوله الشريعة ووافقها يعد طيبا ، وما خالفها واختلف معها يعد خبيثا يجب اجتثاثه من أصوله ، وإن كان من الصعب اجراء مثل تلك العملية الجراحية لأن احتمالات التأويل وصرف اللفظ عن معناه الحقيقى واللاقصدية يجعل الصوفية فى منأى من الحساب والمحاسبة .

على هذا فينبغى على الصوفية – وقد فعلها الكثيرون – محاسبة أنفسهم قبل ان يحاسبهم غيرهم ، نقد ذواتهم ، التشكك والارتياب فيما وصلوا من معرفة تزكية النفس – وهم خبراء بها – لابد أن تكون بحساب ولها ما يبررها لأنهم

قد يكونون مادة غنية وسهلة للشيطان ليعبث بها ومعها ، وهو عابث بها إلا من عصم الله ، فإذا كان الأنبياء والرسل أنفسهم لم يسلموا من وساوس الشيطان ونزغاته أيسلم الصوفى وهو بشر ممن خلق الله ؟

والطبيعي والمنطقى أن الصوفى لا يكتسب تلك الصفة إلا إذا كان متبحرا وعالما ثقة فى الدين ، ويتخذ الشرع حصنا وملاذا يعصمه من أى ذلل أو خطأ .

يقول الإمام الشعرانى :

" ثم اعلم يا أخى أن علم التصوف عبارة عن علم انقدح في قلوب الأولياء حيث استنارت بالعمل بالكتاب والسنة ، فكل من عمل بما انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها نظير ما انقدح لعلماء الشريعة من الأحكام حين علموا بما علموه من أحكامها ، فالتصوف إنما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة إذا خلا من علة وحظوظ النفس ، إن علم التصوف تفرع من عين الشريعة ولكنه لا يشرف على ذوق إلا من تبحر في علم الشريعة حتى بلغ الغاية ، ثم أن العبد إذا دخل طريق القوم وتبحر فيها أعطاه الله هناك قوة الاستنباط نظير الأحكام الظاهرة على حد سواء فيستنبط في الطريقة واجبات ومندوبات وآداب ومكروهات " (٤٧) .

المنطلق الحق الذى ينطلق منه الصوفى ، والبداية الصحيحة هو الدين وليس شئ غيره والمصدر والنبع الثرى الذى يستقى منه الصوفى كل معارفه هى الشريعة ، فذلك هو العمود الفقرى .

" لأن عماد التصوف وقوامه في المعرفة هو الفهم في الدين والبصر بالتأويل فهما يعطيه الله لمن أرتضى من عباده واستنباطا يهدى إليه الله من أحب واصطفى " (٤٨) .

نعم قد يأتى الصوفى ويطلع علينا بأشياء غريبة ، ليست مألوفة لنا ويصدمنا بأقواله ... ولكن شتان بمن يأتى بشرع جديد مغايرا للشريعة الإسلامية

ومن يأتى بفهم جديد للشريعة ، ويكون - فى نفس الوقت - محافظا على الأصول غير مبدل ولا مغير فيها . **يقول الشيخ محى الدين بن عربى :**

" ومعنى الفتح في كلام هؤلاء القوم حيث أطلقوا كشف حجاب النفس أو القلب أو الروح لما جاء به رسول الله من الكتاب العزيز والأحاديث الشريفة إذ الولى قط لا يأتى بشرع جديد وإنما يأتى بالفهم الجديد في الكتاب وللسنة الذى لم يكن يعرف لأحد من قبله ، ولذلك يستغربه كل الاستغراب من لا إيمان له بأهل الطريق ويقول هذا قول لم يقله أحد على وجه الذم لهذا القول "(٤٩) .

فينبغى إلا يغيب عن بال الصوفى أن فى كل ما يعمل وفى كل ما يأتى به من أسرار وفتوحات وكشوفات ، وما شاء الله له ، أن كل هذا أولا وأخيرا يجب أن يتفق مع القرآن والسنة ، وإذا حدث ووقع للصوفى سر وكشف وفتح وكان معارضا للقرآن والسنة فينبغى على الفور طرحه والتخلص منه ، لأن كل ما يصل إليه الصوفى لا ضامن له أنه على حق وصواب ، بينما الضامن موجود فى القرآن والسنة .

يقول أبو الحسن البصرى :

" وإذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك : إن الله تعالى قد ضمن العصمة فى الكتاب والسنة ولم يضمنها لى فى جانب الكشف والالهام ، ولا المشاهدة ، مع أنهم اجمعوا على أنه لا ينبغى العمل بالكشف ولا الالهام ولا المشاهدة إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة"(٥٠) .

هنا نجد نقدا ذاتيا ، تحديدا لقدرة الصوفى وتحجيم لإمكاناته ، الأمر ليس فوضى ، أو بلا قيود ((**إذا عارض كشفك**)) هذا شئ وارد ومحتمل ، الصوفى ليس معصوما ، إن كل ما يفعله يفعله من كونه بشر ، يبدأ من تلك الصفة وينتهى بتلك

الصفة . إن التصوف جهد إنسانى ، تجربة إنسانية للارتقاء بالإنسان إلى أقصى ما تمكنه نفسه ليصل إلى ذروة الكمال الإنسانى ، ووصوله إلى تلك الذروة لا يدرجه فى صنف آخر من المخلوقات له طاقات مطلقة أو غير معروفة .

ما يأتى به الصوفى قد يكون كذبا وضلالا وافتراء ، هنا لا ينبغى أن تأخذ الصوفى العزة ، بل ينبغى أن يضحى بكشفه وفتوحاته إن تعارض هذا مع القرآن والسنة .

الشيخ : (المرجع والدليل)

ولم يكتفوا بذلك ، بل تحرزوا أكثر وتشددوا فى إنه لابد أن يكون هناك أستاذ دليل شيخ قائد للصوفى ليرشده ويهديه إلى سواء السبيل ، يجنبه مزالق الطريق – وهى كثيرة – وينجيه من الغواية والهوى ، ويعينه فى رحلته الشاقة ... فما من صوفى إلا وله شيخ ومعلم ، فلا العقل ولا المجاهدة كافيان للصوفى .

" ولن يهتدى العقل إطلاقا وحده إلى المعرفة الصوفية وحقيقتها بدون سلوك ومجاهدة وهذا لابد لهما من إرشاد شيخ عارف بصير خبير بمسالك الطريق وشعابه .

والتربية في الطريق الصوفي أمر له أهميته ، ويعول عليها الصوفية تعويلا كبيرا ولا يكاد يوجد فذ من أفذاذ الطريق دون أن يكون له موجه ومرشد يدله على طرق الجهاد ووسائله حتى ينتصر ويدرك ويبصر " (٥١) .

وهذا تقليد حميد للصوفية لا يتوافر عند الكثيرين من أرباب المعارف الأخرى ، ذلك لأن هناك أشياء لا تستطيع أن تحصلها من الكتب أو من المصادر المتعددة للمعارف ، فلابد من تلاقى الطالب مع الأستاذ ، المريد مع الشيخ وجها لوجه ، لابد أن يكون هناك تلاقح فكرى مباشر ، امتزاج روحانى بين الاثنين خلاصة الخبرة ، عصارة العمر الطويل ، زبدة التأمل والفكر ، روح يبثها المعلم

فى كيان طالبه ، تظل فى صدره دافعة له فى طريق الخير والرشاد ، تنير له الكثير من الدروب المظلمة والعراقيل التى قد تصادفه فى طريقه .

إذن الأمر يخضع لكثير من الضوابط ، لا يطلع علينا رجل فجأة ليطالبنا بأن نعتبره صوفيا ، نحن فى حاجة أن نسأل عن شيخ أو أستاذ أو معلم الصوفى .... من الذى منحه وأعطاه الرخصة والشهادة ، الصوفى نفسه لا يستطيع التحرك فى هذا المجال والتصرف إلا بوجود الشيخ .

" والمتصوفة جميعا قد أجمعوا على أن السالك لطريق الله لابد له من شيخ مرشد ؛ ليكشف له الصحيح من الزائف والالهامات والواردات ، وليعلمه الأدب وطرائق التحلى به وليفصل له في خواطر قلبه ، وليعصمه من الزلل وليداوى أمراضه النفسية من الكبر والرياء وحب الدنيا والحسد والغل والنفاق وأمثالها " (٥٢) .

وجزء كبير من حياة الصوفى وجهده قد ينفقها فى البحث عن الشيخ فبدونه يحس الصوفى بأن هناك نقصا ، وهناك عجزا وتقصيرا ، وأنه لن يستطيع أن يبدأ رحلته وطريقه إلا بعد العثور على هذا الشيخ ، والكثير من السياحات والرحلات التى يقومون بها هى للبحث عن الشيخ ، ويظل الصوفى فى حالة من القلق والاضطراب والعذاب إلى أن يجد شيخه ، وهو يلتمس من الله أن يوفقه ويهديه إلى ذلك الشيخ ، يلتقيان وتتم الدائرة ويصل تيار العطاء الروحانى .

يقول الإمام الشعرانى :

" والشيخ في الطريق ضرورة لازمة بالغ ما بلغ علم المريد ولو حفظ آلاف الكتب ، فهو في هذه الحالة كمن يحفظ كتابا في الطب ولا يعرف عمليا منازل الدواء على الداء ، فإذا سمعه سامع وهو يدرس الكتاب قال إنه طبيب عظيم ، فإذا رآه حين يسأل عن اسم المرض وكيفية إزالته علم حينئذ مقدار جهله لابد من شيخ

في الطريق كما قال موسى للخضر « هل اتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا » "(٥٣).

وكان الشيخ يقوم بوظائف أو أمور كثيرة لمريده منها :

- **الرقابة** ، فهو رقيب عين بصيرة وخبيرة تتفقد أحوال المريد ، تنفذ إلى داخله بل أن المريد هو الذى يكشف له دخيلة نفسه .

- **التقييم** ، من خلال تمرس هذا الشيخ ، يستطيع أن يقيم من أمامه إن كان يصلح أو لا يصلح ، وما الذى ينقصه ، وما الذى يحتاجه ، وما عيوبه ليتخلص منها ، وما مميزاته لينميها .

- **التعليم** ، الصوفى فى حاجة دائمة إلى هذا ، إنه يشعر بظمأ شديد إلى العلم لأنه مشرف على بحار أسرار وأن قطرة واحدة قد ينفق حياته كلها ليحيط بها علما ، وقد لا يكفى عمره هذا .

- **الإرشاد** ، الصوفى معرض للزلل أكثر من غيره لذلك هو فى حاجة إلى التحذير إلى التنبيه ليظل سائرا فى طريقه لا ينحرف عنه .

- **الهدى** ، هناك معارف كثيرة لم تفتح مغاليق أسرارها للعقل البشرى ، و لذلك أسباب كثيرة منها أن العقل لم يقف أمامها ، لا يعلم بوجودها أصلا ، لذلك لم يطلبها من مظانها ، أو أماكنها أو مصادرها ، وربما يكون الشيخ قد حام حولها ، ولكنه لم يوفق إلى كشفها ، وقد ينجح المريد فى كشف ما عجز الشيخ عنه ، فيقوم الشيخ بتوجيه المريد إلى ذلك ، لعل المريد تتوافر له من الأسباب ما لم يتوافر للشيخ ، أو لعل المريد يكون مهيأ ومعدا لأمر لم يهيأ ولم يعد له الشيخ ، وهذا ما يعجز المريد أن يأخذه من أى مصدر آخر من مصادر المعرفة

وهذا ما يزيد من أهمية الشيخ ، وهذا ما يتميز به التصوف عن أى شكل معرفى آخر.

مما سبق نعرف أن هناك ضوابط ، وهناك نقد وتمحيص وفحص وتقييم وشهادات - ضمان - تصدر ، كل هذا لمحاولة أن يكون التصوف شكلا معرفيا أو علما أو أسلوبا أو مذهبا معترفا به يحقق للبشرية انجازا معرفيا يغطى أو يعالج بطريقة ما جزءا أو مساحة من الوجود الإنسانى ،أو رغبة نبيلة ، وهدف شريف لمحاولة الاقتراب خطوة أو خطوات فى الطريق الطويل ، طريق الوصول إلى الله .

المراجع

(١) مجلة العربى الكويتية - العدد (٥٧٩) صفحة (٧٥) .

(٢) التصوف الإسلامى والإمام الشعرانى - طه عبد الباقى سرور (٣٣) .

(٣) مجلة العربى الكويتية - العدد (٥٧٩) صفحة (٧٥) .

(٤) الشيخ الأكبر محى الدين بن عربى سلطان العارفين - تأليف : عبد الحفيظ على القرنى (١١١) .

(٥) ابن عطاء الله السكندرى - وتصوفه - د. أبو الوفا الغنيمى التفتازانى - (المقدمة) .

(٦) المصدر السابق (المقدمة) .

(٧) التفكير فريضة إسلامية - عباس محمود العقاد (١٧٦- ١٧٧) .

(٨) التصوف الإسلامى والإمام الشعرانى (٦٠- ٦١) .

(٩) مجلة العربى الكويتية - العدد (٥٧٩) - صفحة (٧٢) .

(١٠) الشيخ الأكبر محى الدين بن عربى سلطان العارفين -(١٤٤- ١٤٥) .

(١١) التفكير فريضة إسلامية (٣٧) .

(١٢) التصوف الإسلامى والإمام الشعرانى - (٥٩) .

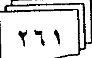
(١٣) المصدر السابق - (٥٩- ٦٠) .

(١٤) أبو الحسن الشاذلى . د. عبد الحليم محمود (١١) .

(١٥) المصدر السابق (٢٢) .

(١٦) ابن عطاء الله السكندرى - وتصوفه - (١٣٧) .

(١٧) المصدر السابق (١٤٤) .



(١٨) المصدر السابق (١٤٣) .

(١٩) المصدر السابق (١٤٥) .

(٢٠) الشيخ محى الدين بن عربى - سلطان العارفين - (١٣٤) .

(٢١) ابن عطاء الله السكندرى - وتصوفه - (١٦٣) .

(٢٢) المصدر السابق - (١٦٦) .

(٢٣) التفكير فريضة إسلامية - (١٦١) .

(٢٤) المصدر السابق (١٦٧) .

(٢٥) أبو الحسن الشاذلى - (٢٠٨) .

(٢٦) الشيخ الأكبر محى الدين بن عربى - سلطان العارفين (١٩٢) .

(٢٧) المصدر السابق (١٣١) .

(٢٨) المصدر السابق (٧) .

(٢٩) ابن عطاء الله السكندرى - وتصوفه - (٢٣١) .

(٣٠) المصدر السابق - (٢٣٢) .

(٣١) المصدر السابق - (٢٣٣) .

(٣٢) المصدر السابق - (٢٦٦) .

(٣٣) الشيخ الأكبر محى الدين بن عربى - سلطان العارفين -(١١١) .

(٣٤) ابن عطاء الله السكندرى - وتصوفه . (٢٦٦) .

(٣٥) المصدر السابق - (٧٢) .

(٣٦) المصدر السابق - (١٦٠).

(٣٧) **المعقول واللامعقول في تراثنا العربي** - د. زكى نجيب محمود (٣٧٦-٣٧٧) .

(٣٨) **المصدر السابق** (٣٧٧ - ٣٧٨) .

(٣٩) **المصدر السابق** (٣٨٢) .

(٤٠) **المصدر السابق** (٣٧٥) .

(٤١) **الشيخ الأكبر** - محى الدين بن عربى - (١٩٣) .

(٤٢) **المصدر السابق** (١٦٦) .

(٤٣) **ابن عطاء الله السكندرى** - وتصوفه - (٧١) .

(٤٤) **المعقول واللامعقول في تراثنا العربى** - د . زكى نجيب محمود - (٣٨٤-٣٨٥) .

(٤٥) **ابن عطاء الله السكندرى** - وتصوفه - (٢٦٦) .

(٤٦) **التفكير فريضة إسلامية** - عباس محمود العقاد (١٩٢) .

(٤٧) **التصوف الإسلامى والإمام الشعرانى** (٧٠) .

(٤٨) **المصدر السابق** (٦٩) .

(٤٩) **المصدر السابق** (٧٣) .

(٥٠) أبو الحسن الشاذلى - (٨٨) .

(٥١) **الشيخ الأكبر - محى الدين بن عربى** - سلطان العارفين (١١١) .

(٥٢) **التصوف الإسلامى** - والإمام الشعرانى - (٣٣) .

(٥٣) **المصدر السابق** - (٣٤) .

الختام

وصلنا ولم نصل .

وصلنا إلى نهاية مرحلة فى الطريق ، ولكن لم نصل إلى نهاية الطريق ، طريق البحث عن اشرف واقدس وأجل ما يشغل العقل والضمير والوجدان الإنسانى وستظل الإنسانية مشغولة العقل والضمير بهذا الأمر ، وستظل موصولة الأسباب به .

وقد حاولنا فى هذه الرحلة أن نقيم مبدأ التجاور بين من لا يتجاورون ، وأن نوفق بين ما لا يتوافقون ، وأن نصالح بين من لا يتصالحون ... العلم والفلسفة والتصوف ، فلكل منهم منهجه وأسلوبه وأداته فى النظر والرؤية والمعرفة وهم – حتما – فى المنهج والأداة والنظر والرؤية مختلفون ، فما يقبله أحدهم قد يرفضه الآخران ، وما قد يوافق عليه الاثنان قد يختلف عليه الاخر ، وقد يذهب كل منهم فى طريق يخالف ويبتعد عن كل واحد منهم .

ولا يشغلنك ظواهر الأمور ، ولا تخدعنك الخلافات والاختلافات ، فلكل هؤلاء غاية واحدة ، وهدف واحد ، هو تحقيق الأمن والسلام للوجود الإنسانى كل منهم يسعى إلى هذا حسب منهجه ورؤيته وأسلوبه ، وتحقيق الأمن والسلام للوجود الإنسانى هو غاية نبيلة تندرج ضمن ما أمر به الله – عز وجل – خلقه ولا تجتمع البشرية وتتوحد كلها على شئ مثل اجتماعها وتوحدها على عبادة الله وتوحيده وعدم الشرك به .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾(آل عمران: ٦٤)

وأى عمل إنسانى ، وأى جهد بشرى لا يضع هذا الموجود الأعظم والخلاق الأقدس نصب عينيه وفى وجدانه والضمير هو عمل مخرب وجهد مضلل

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (الفرقان: ٢٣)

ونحن لا نسأل هل وفق العلم والفلسفة والتصوف فى الوصول الحق إلى الله – عز وجل – أم لم يوفقوا ؟

لأن هذه غاية لا أحد يملك أن يجيب عليها ، غاية ما يمكن أن نقول :

إن العلم والفلسفة والتصوف قاموا بجهد رشيد فى البحث عن الطرق والأساليب والدوات ، هنا يمكن أن نحكم على تلك الطرق والأساليب والأدوات : هل ساعدت أم عرقلت ؟ هل بددت الكثير من الوقت والجهد أم وفرت وادخرت الوقت والجهد ؟

- ❖ هل هدت وأرشدت أم ضللت وأبعدت ؟
- ❖ وهل لبت واستجابت لرغبات وأمانى البشرية أن تزداد قربا ومعرفة وعلما بخالقها أم أن الأهواء والرغبات والميول عبثت وشطحت بها بعيدا عن تلك الرغبات والأمانى ؟
- ❖ هل كانت – الأدوات والطرق والأساليب – صادقة مع نفسها اولا ومع الأخرين ثانية ، وتخلت عن الكبر والعجب بحيث تعترف فى النهاية أن هذا الموضوع فوق طوقها وخارج نطاقها وانها أدنى من ذلك بكثير أم أنها



ذهب بها الكبر والعجب كل مذهب وتنكبت جادة الصواب وسواء السبيل ؟

وفي النهاية فإن كل هؤلاء - العلم والفلسفة والتصوف - جهد وجهاد إنسانى ، قد يحالفه التوفيق ، وقد لا يحالفه ، وتبقى النيه هى مقصد المخلصين الصادقين .

